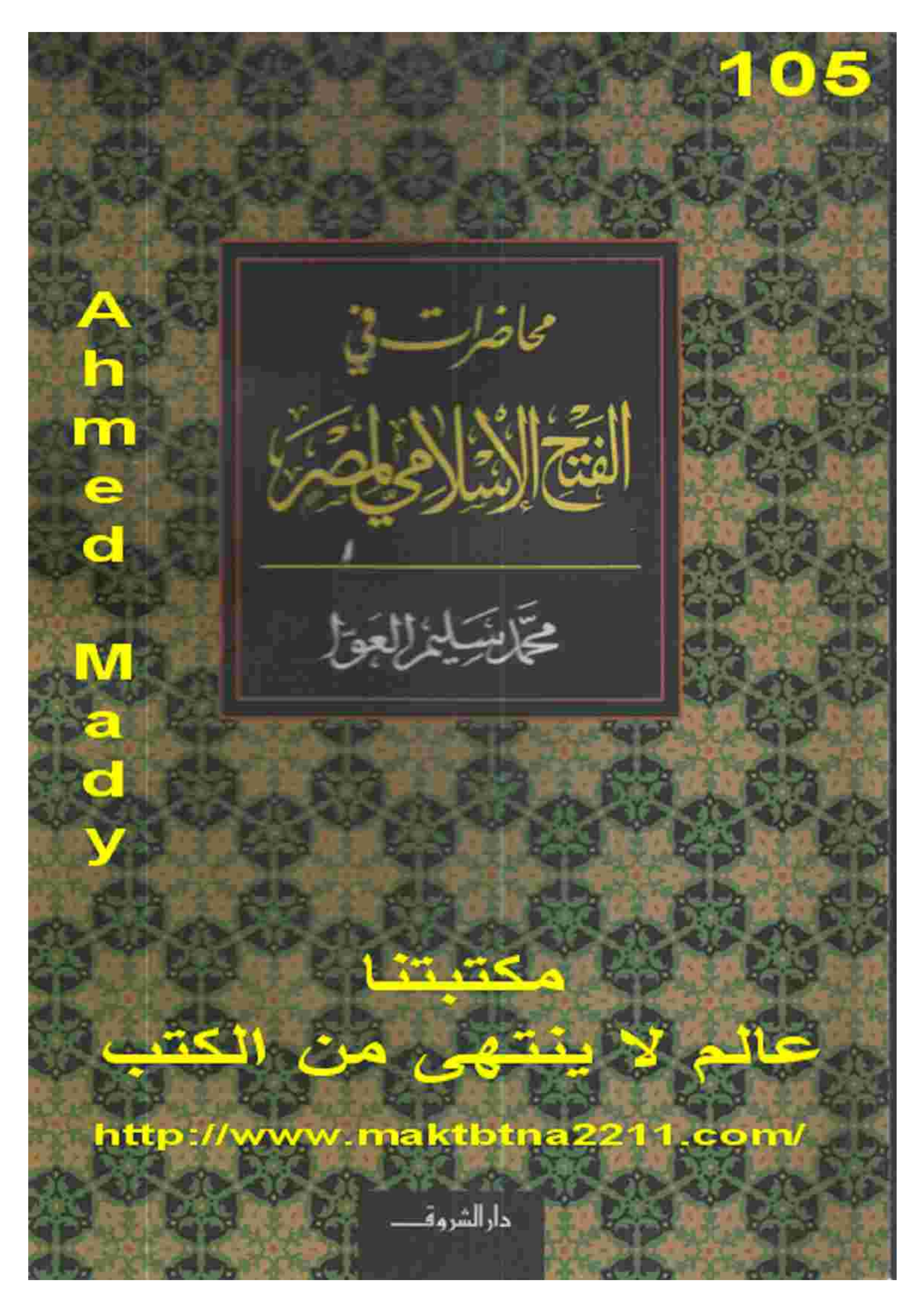

105
محاضرات في
الفتح الإسلامي لمصر
محمد سليم العوا
Ahmed Mady
مكتبتنا
عالم لا ينتهى من الكتب
http://www.maktbtna2211.com/
دار الشروق

محمد سليم العوّا

محاضرات في

الفتح الإسلامي لمصر

دار الشروق



هذا الكتاب هو مجموعة محاضرات
ألقاها الدكتور محمد سليم العوّا على رواد جمعية مصر للثقافة والحوار، في الموسم الثقافي الثاني عشر للجمعية.

وقد كان السبب في إعداد هذه المحاضرات العشر وإلقائها ما أطلق عليه إعلاميًا أزمة «العوّا - بيشوي» وهي أزمة صنعها الأنبا بيشوي بحوار له مع إحدى الصحف المصرية ذكر فيه أن المسلمين المصريين ضيوف على أهل البلد من الأقباط، مما أثار ردود فعل كثير من المفكرين والمثقفين المسلمين، كان على رأسهم الدكتور محمد سليم العوّا.

وقد كان الغرض من هذه المحاضرات أن تؤكد بالأدلة العلمية والتاريخية أن اختلاط عرب الجزيرة مع المصريين حادث من قبل دخول الإسلام بل من قبل الميلاد بل من قبل التاريخ!!

ودار الشروق تقدم هذا النص توثيقًا للتاريخ الذي يجهله الكثيرون.

دار الشروق
www.shorouk.com



Sunday
3 juli 2011
Riyadh

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إهـــداء

إلى صناع المستقبل..

بالعلم...

نواجه صناع الفتن..

محمد العوَّا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾

[سورة الحج: ٤٠]

المحتويات

تقديم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على محمد الذي لا نبي بعده، وعلى سائر إخوانه من المرسلين والنبيين، الذين بلغوا عن الله رسالاته والتزموا خشيته، ولم يخشوا أحدًا سواه، وبعد،

فهذه فصول موجزة عن الفتح الإسلامي لمصر، كتبتها بعد أن ألقيت عشر محاضرات في هذا الموضوع على جمهور جمعية مصر للثقافة والحوار في مدينة القاهرة، حفظها اللهُ وأهلَهَا من كل سوء، ما بين شهر ذي القعدة ١٤٣١هـ وشهر المحرم ١٤٣٢هـ = أكتوبر ـ ديسمبر ٢٠١٠م.

وهذه الفصول لا تحتاج إلى تقديم، فهي كلها تقديم لعلاقة مصر بالإسلام، وعلاقة الإسلام بها وبأهلها. وهي علاقة تكتب في مجلدات، وتستحق أن تنفق في تحصيل العلم بها الأعمار، ولا يجوز لمصري، مسلمًا كان أم غير مسلم، أن يجهل من هذه العلاقة أصولها وآثارها في شخصية المصريين وهويتهم الثقافية والسياسية.

وكان الداعي إلى دَرْسِ هذا الموضوع، في هذا الوقت، هو ما قاله بعض المعدودين في قمة الهرم الكنسي الأرثوذكسي في مصر، من أن المصريين المسلمين العرب ليسوا إلا ضيوفًا على القبط أهل البلاد... ثم ما ثار حول هذا القول من ردود أفعال من الجانبين، المسلم والمسيحي، يجد القارئ حاصلها في الملحق الثاني من ملاحق هذا الكتاب.

ولم يكن في نيتي وقت انشغالي بتلك المسألة أن أتوفر على دراسة الفتح الإسلامي

لمصر، وعلاقة العرب بالمصريين، قبل الإسلام وبعده، ولكن الأخ العزيز الأستاذ أيمن جاب الله، مدير قناة (الجزيرة مباشر) الفضائية، اقترح عليَّ أن أفعل ذلك، وذكرني أن الرد العلمي الموثق على هذه المقولة، وأمثالها، يملأ فراغًا في حياتنا الثقافية مهمّا، وأن توثيق المعرفة بحقائق هذا الموضوع يقدم خدمة ثقافية مطلوبةً لأجيال الشباب من أبناء الوطن، بل من أبناء العروبة والإسلام وقد صدَّقتُ ذلك كُلَّهُ، وظهر لي معه أن شباب الأقباط في مصر، والمسيحيين العرب بوجه عام، في حاجة حقيقية إلى تجلية غوامض العلاقات العربية الإسلامية في البلدان التي دخلتها المسيحية قبل الإسلام، تجليةً تحَولُ بينهم وبين الوقوع في براثن دعوات التعصب والكراهية التي يطلقها بعض ذوي الأهواء، ويروج لها كثيرون من العملاء في أوساط الأمة العربية، مسلميها ومسيحييها على السواء.

* * *

وقد حرصت في إعداد نص هذه الفصول على توثيق كل قول من المصادر المسيحية، عربية وأجنبية، ومن المصادر الإسلامية المعتمدة التي تروي تاريخنا مسندًا إلى مصادره الأولى، بحيث يجد القارئ بين يديه نصًا يستطيع تتبع مفرداته، والاستيثاق من صحة معلوماته، كلما بدا له ذلك. وقدمت في كل موضع ما صح من الرواية وأهملت سواه، فقديمًا قيل: «وما آفة الأخبار إلا رواتها»!

وألحقت بهذا الكتاب ثلاثة ملاحق، أولها مأخوذ من النص الرائع للراحل الكريم الدكتور جمال حمدان (شخصية مصر) يتحدث فيه عن وحدة الأصل، والتداخل السكاني، والتماسك السياسي بين أهل مصر جميعًا، حديثًا يؤكد ما أدَّانا إليه البحث في مسألة الفتح الإسلامي لمصر ويثبت صحته. والملحق الثاني هو نص دراسة عنوانها (الكنيسة والوطن) نشرتها على جزئين في مناسبة الرد على مقولات كبار رجال الكنيسة القبطية الأرثوذكسية التي فتحت أبواب شر نرجو أن يعجل الله ـ تعالى جَدُّه ـ بقفلها وكفاية الناس مخاطرها وآثارها. والملحق الثالث تضمن مناقشة شبهتين أثيرتا حول الصحابيين الجليلين عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

* * *

ولا شك أن في تاريخ الدنيا كلها مناطق فراغ يتعامل معها الباحثون بأحد طريقين: إما بملئها بمعلومات لا دليل على صحتها، وإما بمحاولة استنطاق الوقائع الثابتة، أو الاستنتاج منها للوقوف على ما لا دليل عليه. وقد آثرت طريقًا ثالثًا هو أن أقول ما بين يدينا دليل على صحته، وأن أترك الفراغ كما هو لأنه لا يضيرنا بقاء بعض الوقائع غائبة، بل الذي يضيرنا حقًا أن نصطنع معلومات من عند أنفسنا، أو نستنتجها، فنتكلم بلسان التاريخ كلامًا لا يصدقه من التاريخ شيء.

وكثير ممن يتناولون وقائع تاريخنا العربي الإسلامي يخلطون بين ما صح وما لم يصح من روايات أهل التاريخ وحكاياتهم. وهذا منهج يوقع السامع أو القارئ في اضطراب عظيم، لأنه يشك في الأمر كله، ولا يستطيع التمييز بين صحيحه وسقيمه، فيُكذِّبه برمته. وقد كان منهج العلماء المسلمين المؤرخين منذ قديم مستعارًا من منهج المحدِّثين، بحيث ينقلون الرواية بأسانيدها، ويتركون لعلماء الرجال والجرح والتعديل النظر في حال الرواة بقبول ما يصح روايةً ورد ما عداه. وقد أخلَّ بهذا المنهج في العصور المتأخرة كثيرون ممن تعرضوا لوقائع التاريخ، وأغرت كثيرين منهم طلاوة الكلام المخترع، فاستحسنوا إيراده فيما يكتبون، واختلط بذلك خبيث كثير بطيب قليل يترك طالب العلم حيران ليس له صاحب يدعوه إلى الهدى.

* * *

إن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في هذا الوطن كانت منذ بدأت، ولا تزال، وستظل إن شاء الله، علاقة أخوية سلمية يظللها الوفاء، ويكسوها الاحترام، ويديم لحمتها العيش الواحد الذي تمتع به المصريون، مسلمين وأقباطًا، كما لم يتمتع به أحد من شعوب المنطقة. وعلى المعنيين بأمر هذه العلاقة أن ينظروا في الفتن التي وقعت في العقود الأربعة الأخيرة، بمعدل فتنة كل عشر سنين تقريبًا، ثم بمعدل أكبر كثيرًا في العقد الأخير. إن هذه الفتن ـ عندي ـ بغير شك صناعة أجنبية يقع في شَرَكِها بعض البسطاء الذين يستهويهم التعصب لقلة علمهم، ويستفزهم وجود سواهم لضيق أفقهم. والظن بذوي العقول، وأهل المعرفة والفطنة من المسلمين والمسيحيين، أن يكونوا جسور مودة بين أبناء

الدينين، وأن يأخذوا على أيدي المفسدين منهم مهما كان شأنهم، لأن الفتنة تحرق الوطن وأهله ولا تقف عند صانعيها والمؤيدين لها وحدهم.

ومن أهم العوامل التي تمنع وقوع الفتن أن تحفظ لكل أهل دين كرامتهم، وألا يسمح لأحد بالنَّيْـلِ من مقدساتهم، وأن يردَّ، بالعلم وحده، وباللغة المناسبة، على من يقع في النَّيْلِ من شيء من ذلك بمجرد وقوعه فيه، لأن السكوت على مثل هذا المسلك هو الذي يوقد نيران الفتن ويضاعف مشاعر التعصب، وينشئ كراهية حادة للمعتدين في قلوب أبناء الدين المعتدى عليه، والذين يزعمون أن المنتصر لدينه محرِّضٌ على الفتنة مخطئون خطأً عظيمًا، لأن الانتصار للدين يمنع وقوع الفتن إذ يشعر أهله، ولاسيما شبابهم، أن هناك من دافع عن عقيدتهم فكفاهم أن يأخذوا حقهم بأيديهم. وأي قول بخلاف ذلك هو في حد ذاته مشروع فتنة، يوقف في وجهه ويحاصر، حتى إذا أحرق أحرق ذاته، ولم يمتد منه لهب ولا وميض إلى الآمنين المطمئنين من أبناء مصر المسالمين.

* * *

وقد كان من حظ هذه المحاضرات أن استضافت جمهورها جمعيةُ رابعةَ العدوية، في إحدى القاعات الكبيرة الملحقة بمسجد رابعة بمدينة نصر، وقد يسرت هذه الاستضافة حضور أضعاف العدد الذي كان يتسع لحضوره مقر جمعية مصر للثقافة والحوار، ومن ثم فإن الشكر مستحق لجمعية رابعة العدوية، ومجلس إدارتها الموقر على هذه الاستضافة الكريمة التي ليست أول أفضالهم، على العمل الثقافي الإسلامي، ولن تكون آخرها بإذن الله.

وأنا مدين بشكر خاص لأخي الأستاذ أيمن جاب الله الذي اقترح عليَّ هذا الموضوع، ووفر له انتشارًا هائلا بعرضه على شاشة الجزيرة مباشر عدة مرات كل أسبوع، فأتاح لي بذلك فوائد هائلة من ملاحظات المشاهدين وأسئلتهم وتعليقاتهم، وقد كانت هذه الفائدة أعظم ما تكون في الحلقة الخاصة من برنامج (مباشر مع) التي قدمها الإعلامي اللامع الأستاذ محمود مراد، والتقيت في أثنائها بعدد كبير من المشاهدين الكرام ناقشوني في بعض ما قلت مناقشة بناءة فاعلة.

ومهما يكن من أمر قدرتي على الاعتراف بالجميل، فإنني لا أوفي الابنة الغالية أمل العشماوي، مساعدتي العلمية، حقها من الاعتراف بجميلها على هذا العمل، فجزاها الله عني وعنه خير ما يجزي عاملًا عن عمله.

ولولا همة دار الشروق، ورئيسها الأخ المهندس إبراهيم المعلم، ما وجد القارئ بين يديه هذا النص في هذا الوقت، فلهم مني شكرٌ مستحقٌّ وعرفانٌ واجبٌ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القاهرة في: نهار الجمعة الموافق

١٠ من صفر الخير ١٤٣٢هـ

١٤/١/٢٠١١

محمد سليم العوَّا

(١)

خزائن الأرض

إن المقولة الشهيرة (حب الوطن من الإيمان) مقولة صحيحة. الوطن هو الذي يصنع هوية الإنسان، ويمنحه نعمة الانتماء، ويصنع له علاقة بالآخرين ثابتة فيه يرسخها تاريخ الآباء والأجداد وتمتد في الأبناء والأحفاد. وحب الوطن، على هذه الصورة، شعور عاقل ينتج من التأمل الطويل المتكرر لمعاني المواطنة، وصور المشاركة فيها، وهو شعور مستمر لا ينقطع، دائم لا يتحول، لا يزيده الزمان إلا رسوخًا واستقرارًا؛ حتى إنه ليصح أن نقول إن الوطن خزانة المشاعر: الفردية منها والجماعية.

وحُبُّ الزمان والمكان لا يصح ولا يصدق إلا بحب الإنسان.

والحب، بين البشر، منه عاطفة تتكون بلا سبب فإذا دَهَتْ محلها الدواهي، أو أتت نفسَ الإنسان منها المتاعب، أخلت المحبة مكانها للنقمة، وغادر الإعزاز مكانه من القلب مخليًا إياه للنفور والبغضاء. ومن الحب عاطفة عاقلة، كحب الزمان والمكان، يغذوها العلمُ بمزايا المحبوب، ويثبت أركانها تكرار التأمل فيما يقدمه للمحب من العطايا المعنوية قبل المادية! ومن هذا النوع حب المصريين لمصر.

* * *

لقد أهدى الإنسان المصري إلى البشرية أعظم ابتكار في تاريخ الدنيا: اختراع الكتابة. فالناس منذ آدم كانوا يتكلمون ولا يكتبون، فلما اخترع المصري الكتابة دونت اللغات والتواريخ والجغرافيا والكيمياء والفيزياء والطب والهندسة والفلك والرياضة

والموسيقى والفنون والآداب والصناعة وكل مكونات الحضارة. ولولا هذا التدوين، الذي مكَّن له اختراع الكتابة والقراءة، لكانت ذاكرة الإنسان قد ناءت بما يعلم ويتعلم، وتفلت منها ـ وهي محدودة ـ أكثره، ولم يبق له إلا أقله!!

فحُقَّ للإنسان المصري أن يحب هذا الوطن الذي منح البشرية أول خطوة في سبيل استبقاء العلوم، وصناعة الحضارة، وتدوين مظاهرها، وسهَّل للناس كافة، أن يستفيد الجديد من القديم، واللاحق من السابق![1]

وحب الأوطان يقتضي حمايتها من الشرور والذودَ عنها عند المحن، وتقويةَ الحق فيها وردَّ الباطل عند الفتن. والأوطان تستحق التضحية في سبيلها بما يملك أبناؤها من غالٍ ورخيص، فلا يستكثر الوطني الحق حياته إذا دعاه داعي الوطن لتقديمها فداء له، ولا يبخل بمالٍ مهما عَظُمَ إذا احتاج الوطن إليه.

ولا يستطيع أحد أن يصنع بعض ذلك ـ فضلا عن كله ـ إلا إذا عرف تاريخ بلاده، وتمثل مراحل القوة فيه والضعف، وميَّز فيه بين الصحيح والمنحول، والنقي والمدخول. ذلك أن التاريخ ليس قصة تحكى فحسب، وإنما هو عِبَرٌ تُؤدَّى من جيل إلى جيل، فإذا قَصَّرنا في أداء هذه العبر فإنما في حق الوطن كان تقصيرنا؛ وإذا حافظنا عليها وقدمناها إلى الأبناء والأحفاد فإننا نكون قد أدينا قدرًا مهمًا من حق هذا الوطن علينا. فإن المرء إذا صحت معرفته صح قوله وعمله، وإذا اضطربت فسدا، ولم يعد بمقدوره أن يقدم لوطنه ما ينفع، أو يذود عنه ما يسيء إليه أو يَضُرُّه!!

وإذا كان الدافع إلى هذه الدراسة مشكلة فكرية وتاريخية، أثارها أحد رؤوس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بكلام لا يصح، نشره على الناس في تحدٍ للإسلام والمسلمين غير مسبوق، فإن فهم حقيقة العلاقة بين الأقباط والمسلمين في مصر لا يتم إلا إذا وقفنا على معالم الفتح الإسلامي لمصر، ثم مررنا على حقيقة الحياة الواحدة التي عاشها المصريون، بأديانهم كافة، لا بالمسيحية والإسلام وحدهما، وعرفنا إلى متى استمرت هذه الحياة الواحدة ومتى بدأت تنال منها الفتن، عندئذ يمكننا التعرف على عوامل الوحدة وتقويتها، وعلى أسباب الفرقة ومحاربتها، وعلى مثيري الفتن والمحرضين

---

(١) قَرِّب: أحمد عادل كمال، حجر رشيد والهيروغليفية، الزهراء للإعلام العربي.

عليها وتعريتهم أمام الأمة المصرية لتعرف حقائق مسعاهم وتأخذ على أيديهم حماية لسفينة الوطن من الغرق: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها. فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مرّوا على من فوقهم؛ قالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَّوْا جميعًا»[1].

وهؤلاء الذين يصنعون الفتن، أو يتكسبون منها، يخرِّبون هذا البلد: إما على سبيل الخطأ الذي يبلغ مرتبة الخطأ الجسيم فلا يغتفر، وإما على سبيل العمد وسوء القصد الذي هو من أشنع مراتب الجريمة فينبغي أن يحاسب فاعلها عليها أشد حساب. والتستر على صناع الفتن والمتكسبين منها جريمة لا تقل خطورة عن جريمتهم نفسها، ولذلك فإن كشفهم واجب، وتعريف الناس بحقائق أفعالهم واجب ولو قصرت الجهات ذات الشأن في محاسبتهم على ما يفعلون ومؤاخذتهم بما يقترفون. ولا نجاة للوطن إلا بالتمييز بين الخبيث والطيب، وبتمحيص المرابطين عليه وبيان حقيقة الساعين في هدمه وتخريبه.

* * *

ومصر التي نتحدث عنها تمتد من الغرب إلى الشرق من خط طول ٢٥ إلى خط طول ٣٥ شرق جرينتش، ومن الشمال إلى الجنوب من خط عرض ٣١ إلى خط عرض ٢٢ شمال خط الاستواء.

ومساحتها ٠٠٠ , ٢٥٠ , ١ كم٢. والمأهول منها ٠٠٠ , ٤٥كم٢ بنسبة ٦ , ٣٪ هي التي يعيش المصريون عليها زراعة وصناعة وسكنى[2]!

وقد أتاحت خصوبة أرضها، وماء النيل الذي كان يحمل إليها الطمي (الغِرْيَن)[3]،

---

(١) رواه البخاري عن النعمان بن بشير ح (٢٤٩٣).

(٢) يذكر أحمد عادل كمال في كتابه (الفتح الإسلامي لمصر) أن مساحة مصر ٠٠٠ ,٣٨٦ ميلا مربعًا (=٠٠٠ , ٠٠١ , ١كم٢)، وفي موسوعة المورد هي ٩٠٠، ٣٨٦ ميلاً مربعًا (= ٠٠٠ , ٠٠٢ , ١كم٢)، وهي في الموسوعة العربية (٤٤٩ , ٠٠١ , ١كم٢) والله أعلم بالصواب(!)

(٣) الغِرْين على وزن فِعْيَل، والغَرِينُ على وزن فَعِيل، هو الطين يحمله الماء فيبقى على وجه الأرض. انظر الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة غرين. واقتصر ابن منظور في لسان العرب على لفظ (الغِرْيَنْ) راجع: مادة (غرن)

على مر العصور، لشعبها أن يكون من أولى الشعوب التي صنعت الحضارة البشرية، شأنه في ذلك شأن شعوب ما بين النهرين، دجلة والفرات، وشعوب وادي السند في شبه القارة الهندية. ومع ذلك فإن هاتين الحضارتين ظهرتا في زمن متأخر عن الزمن الذي ظهرت فيه الحضارة المصرية وصنعت فيه مبتكراتها العلمية والعمرانية.

وقد اختلف الأقدمون والمحدثون في سبب تسميتها باسمها: مصر. فقيل لأن أول من سكنها وعمَّرها هو مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام(١)، وقال الجاحظ: «سميت كذلك لمصير الناس إليها واجتماعهم بها... وجمع المِصر من البلدان أمصار، وليس لهذه جمع لأنها واحدة»(٢).

وقال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية: «... وهي عندنا مشتقة من مصرتَ الشاة، إذا أَخذتَ من ضرعها اللبن. فسميت مصر لكثرة ما فيها من الخير مما ليس في غيرها، فلا يخلو ساكنها من خير يُدَرُّ عليه منها، كالشاة التي يُنتفَعُ بلبنها وصوفها وولادتها»(٣).

وقال ابن الأعرابي المِصْرُ الوعاء.... وكذلك هي خزائن الأرض... ألا ترى إلى قول يوسف ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]»(٤).

ويقول أهل اللغة: مِصر، المدينة المعروفة، تذكّر وتؤنث وتصرف وتمنع من الصرف(!)(٥).

* * *

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن ٢٠٠٢، ج١ ص ٥٣؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، الهيئة العامة لقصور الثقافة (مصورة عن ط دار الكتب الخديوية)، القاهرة ٢٠٠٤، ج٣ ص ٣١٨؛ وابن عبد الحكم، فتوح مصر تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد ١٩٩٥، ص٢٧ وما يليها؛ وياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠، ج٥ ص ١٦٠ برقم (١١٣٠٤).

(٢) نقله عنه من كتاب مدح مصر، المقريزي، السابق ص ٥٥.

(٣) نقله المقريزي، السابق، ص ٥٨. ويؤكد صحة كلام عمر بن دحية أن مصر لم تزل، منذ كانت، تنتج ما يُتْخَمُ به الناهبون لثروتها فضلا عما يشبع أهلها ويكفيهم!!

(٤) المقريزي، الموضع نفسه.

(٥) القاموس المحيط، مادة مصر.

وقد عرف العرب مصر منذ أقدم عصور التاريخ، ثم حكموها في عهد الهكسوس، الذين مهما اختلف في أصلهم[١] فإن الاتفاق قائم على أن أسماءَهم كنعانية[٢]. وعند جرجي زيدان أن الهكسوس من الأمم العربية التي تمدنت قديمًا ومنهم العمالقة... ومنهم الملوك الرعاة الذين فتحوا مصر وحكموها عدة قرون[٣].

والكنعانيون قوم من العرب سكنوا فلسطين منذ سنة ٤٥٠٠ - ٤٠٠٠ ق.م. وبنوا فيها مدينة القدس حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م. وهم قد غزوا مصر وحكموها ما بين سنتي ١٦٥٠ و١٥٤٢ قبل الميلاد ولم يُهزَموا إلا في عهد الملك أحمس الذي ردهم إلى ديارهم في فلسطين، فهناك تنتهي حدود مصر وتبدأ حدود بلاد الشام بمعناها الواسع الذي يشمل فلسطين ولبنان وسوريا وما يعرف بالأردن. ولا مراء في عروبة الكنعانيين فلا تقف عند ما يبدو في كتابات بعض المؤرخين من التردد في كون الهكسوس من العرب[٤]. وقد بدأ الفتح الإسلامي لمصر في سنة ١٨هـ = ٦٣٩م، وكان سكان مصر يومئذ هم الرومان واليونان، والقبط، واليهود، وقبائل عربية عديدة كانت قد استوطنت مصر من خلال الهجرات من جزيرة العرب إليها، أو من خلال التجارة[٥]، إذ كان المعتاد أن يبقى بعض التجار حيث يألفون من البلاد، ويتخذونها مواطن لهم، ويتزوجون من أهلها حتى يحسبوا منها[٦]. ويؤكد الصلات التجارية القديمة بين العرب ومصر ما ينقله من ذلك، بتفصيلات غير قليلة، المؤرخ الفرنسي الشهير (جوستاف لوبون) في كتابه: حضارة العرب[٧].

---

(١) أحمد عادل كمال، الفتح الإسلامي لمصر، القاهرة ٢٠٠٣، مطبعة الشركة الدولية للطباعة، ص ١٤.

(٢) زكي شنودة، تاريخ الأقباط، ط مطبعة التقدم، القاهرة ١٩٩٦، ج٣ ص ٧١.

(٣) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دار الهلال د.ت، ج١ ص ٢١؛ وراجع له أيضًا: تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة الهلال، القاهرة، د. ت، ص ٥٢ وما بعدها.

(٤) قال فيهم أخونا الجليل أحمد عادل كمال بعد أن ذكر اختلاف المؤرخين في أصلهم «ربهم أعلم بهم»، المصدر السابق، ص ١٤.

(٥) سيدة إسماعيل الكاشف، مصر في فجر الإسلام، مكتبة الأسرة، القاهر ١٩٩٩، ص ٩.

(٦) مصطفى كمال عبد العليم، اليهود في مصر، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٨، ص ٤؛ وهويدا عبد العظيم رمضان، اليهود في مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الأيوبي، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٣١ وما يليها؛ حامد سليمان، من القبطية إلى الإسلام، المكتب العربي للمعارف، القاهرة ١٩٨٨، ص ١٢ وما يليها؛ قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، دار الفكر للدراسات، القاهرة ١٩٨٧، ص ١١ وما يليها.

(٧) مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠، ترجمة عادل زعيتر، ص ٥٥٤.

لقد كانت مصر ـ ولا تزال ـ محط أنظار العالم، وثروتها الهائلة، وموقعها الجغرافي الفريد، وحضارتها القديمة الراسخة الجذور في الأرض، وبحارها الشاسعة... كل ذلك جعلها مطمع الطامعين حتى غزاها أعداؤها ـ قبل الفتح الإسلامي ثلاث عشرة مرة (!) ثم كان الفتح الإسلامي الذي لم يكن على أي نسق سابق، ولم يلحقه في طبيعته أي غزو لاحق (غزيت مصر بعد الفتح الإسلامي ست عشرة غزوة!!) وسوف يتبين لنا ذلك إن شاء الله[١]. لقد كانت جميع الغزوات السابقة واللاحقة للفتح العربي استعمارية معادية لمصر وللمصريين. وقاوم المصريون جميع هؤلاء الغزاة حتى أجلوْهم عن البلاد أو أذابوهم في أهلها، فلم يعودوا يُمَيَّزون عنهم(!) لكن الفتح الإسلامي كان تحريرًا لمصر من المستعمر الروماني، واستقر فيها الإسلام، وتعرّب اللسان والثقافة فأصبحت مصر عربية إسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وعندما بدأت بشائر الفتح العربي لمصر، وكان حكامها يومئذ من الرومان (الدولة الرومانية الشرقية التي كانت عاصمتها القسطنطينية، التي يقال لها الدولة البيزنطية). كان بطريرك القبط هو الأنبا بنيامين، وكان مختفيًا في الصحراء بسبب مطاردة الرومان له، فلما بلغه قدوم عمرو إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، وأمرهم بتلقي عمرو؛ فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما[٢] كانوا يومئذ عونًا لعمرو بن العاص[٣].

وقد كان للفتح الإسلامي[٤] لمصر مقدمات من أهمها العلاقة التي قامت بين رسول الله ﷺ وبين المقوقس عظيم القبط[٥].

---

(١) راجع: أحمد عادل كمال، السابق، ص ١٤ـ ٦٩.

(٢) مدينة دَرَست كانت تقع شرق بورسعيد، ولم يبق منها إلا تل الفرما على بعد ٣ كم عن ساحل البحر المتوسط ونحو ٢٤كم شرق محطة الطينة على سكة حديد بورسعيد/ الإسماعيلية التي تربط بين مصر والعريش.

(٣) ابن عبد الحكم، السابق، ص ٨٠.

(٤) استعملت وصفي (العربي) و(الإسلامي) لفتح مصر دون تفرقة بينهما، لأنه كان فتحًا عربيًا إسلاميًا في حقيقته وواقعه، ولست ممن يقررون ـ تعصبًا ـ أن أحد الوصفين نقيض للآخر أو ضد له(!)

(٥) المقوقس اسم وظيفة، معناه: حاكم مصر من قبل الرومان. وليس اسم شخص بعينه، ولا نسبة إلى بلد معين.

(٢)

رسائل وبشارات

بعد اتفاق النبي ﷺ مع مشركي مكة على الهدنة في الحديبية، كاتَبَ رسولُ الله ﷺ جيران جزيرة العرب من الملوك ونحوهم. ويروي أصحاب السير نحو مائة رسالة أملاها النبي ﷺ وأرسلها إلى ذوي الجاه والسلطان داخل جزيرة العرب وخارجها، أكثرها كُتب لمن لم يكونوا قد أسلموا بعد، وأقلها كتب لقوم أسلموا يُعَلِّمهم فيه بعض شعائر الإسلام وأحكامه[1].

فكان ممن كاتبهم المقوقس حاكم مصر من قبل إمبراطور الروم (هرقل). والمقوقس كلمة يونانية معناها حاكم، أو معناها الأجلُّ أو المبجل، ولقبه النبي ﷺ على عادة العرب يومذاك بـ: (عظيم القبط). أما اسمه فكان جورج بن مينا[2]. وقال الرواة المسلمون إن اسمه كان جريج (=جورج) بن قرقب الرومي، ويقولون عنه «صاحب الإسكندرية» إذ كانت عاصمة مصر آنئذ.[3] والمقوقس لم يكن من القبط وإنما كان من اليونان أو

(١) انظر على سبيل المثال الكتب التي ذكرها ابن سعد في الجزء الأول من الطبقات في صفحات متعددة، محمد بن سعد، كتاب الطبقات الكبير، ط مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢، تحقيق دكتور علي محمد عمر. ومعظم هذه الرسائل النبوية مجموعة في كتاب الأستاذ محمد حميد الله الحيدر آبادي، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الإرشاد، بيروت ١٩٦٩.

(٢) يعقوب نخلة روفيلة، تاريخ الأمة القبطية، تقديم جودت جبرة، ط٢، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٣٩؛ وراجع في بعث حاطب إليه: تاريخ الطبري، ط بيت الأفكار الدولية، بعناية أبي صهيب الكرمي، عمّان (د.ت) ص ٤١٥ و٤١٦.

(٣) أحمد عادل كمال، السابق، ص ٨٣؛ وابن عبد الحكم، السابق، ص ٦٦.

الرومان يعينه إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية حاكمًا على مصر، وتلقيبه بـ: (عظيم القبط) لأنه كان حاكمهم في ظل الاستعمار الروماني.

أرسل النبي ﷺ كتابه إلى المقوقس مع الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة، وهو من نوابغ أصحاب النبي ﷺ، ومن أكثرهم تمرسًا بالدبلوماسية العربية قبل الإسلام، ومن قبيلته (لخم) بطون سكنت مصر من أقدم العصور فكان له معرفة بها، وجماعة يستطيع أن يأوي إليها، وذلك كله من الأسباب التي اختاره النبي ﷺ من أجلها ليحمل كتابه إلى مصر.

وكان نص الكتاب، فيما روته المصادر الإسلامية بغير خلاف يذكر، هو:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط،

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد،

فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط. و﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]»(١).

ودعاية **الإسلام** أي دعوته؛ و**أسلم تسلم** أي من عذاب الآخرة؛ **ويؤتك الله أجرك مرتين** أي أجر الإيمان بنبي قبل محمد ﷺ ثم أجر الإيمان بمحمد ﷺ. وليس من معاني **أسلم تسلم** ما يذهب إليه بعض من لا علم له من أن معناها تسلم من القتل أو تسلم من الحرب، فهذا تَقَوُّل على النص لا يحتمله سياقه. وفي الكتاب درسٌ للدعاة المسلمين يؤخذ من نص آية آل عمران التي ختم بها النبي ﷺ كتابه ففيها {فقولوا اشهدوا بأنا

(١) ونص الكتاب في: ابن عبد الحكم، السابق، ص ٦٦؛ وفي أحمد عادل كمال، السابق، ص ٢٢٣؛ وفي مصادر تاريخية أخرى كثيرة.

مسلمون} لم يقل القرآن اشهدوا بكفركم، ولا اشهدوا بأنكم كاذبون، ولا نحو ذلك من الأقوال التي هي صادقة في حالِ توليه عن دعوة الإسلام ولكنها لا تناسب مقام الدعوة، لأن فيها ذمًا للمدعوين واستثارة لحفائظهم فناسب ذلك المقام أن يشهدوا هم بأننا مسلمون كما نشهد نحن بإسلامنا، وكأن النص القرآني يقيم بهذا الاستشهاد الحجة عليهم بأننا قد بلغناهم رسالة الإسلام وكلمته.

فلما بلغ حاطبٌ الإسكندرية، وجد المقوقس في مجلس مشرف على البحر[1]. فركب حاطب البحر فلما حاذى مجلس المقوقس أشار إليه بالكتاب، فأمر به المقوقس فأوصل إليه، وأمر بالكتاب فقبض (تُسُلِّم) منه، فلما قرئ له أخذه وجعله في حُقٍّ[2] من عاج وختم عليه. وصورة الكتاب منشورة في مؤلف أحمد عادل كمال (الفتح الإسلامي لمصر)[3]. وهو مستقيم السطر جميل الخط، لابد أن المقوقس قد تذوق أسلوبه ومضمونه. وكان حاطب في منطقه ومظهره وحضور بديهته جديرًا بالسفارة عن رسول الله ﷺ[4].

وقد بقي هذا الكتاب النبوي محفوظًا في مصر إلى أن عثر عليه في إحدى كنائس الصعيد في عهد السلطان عبد المجيد الذي نقله إلى الآستانة وأمر أن يصنع له صندوق ذهبي يحفظ فيه، وهو لا يزال معروضًا في ذلك الصندوق في أحد متاحف استانبول.

وقد دار بين المقوقس وحاطب حوار روته المصادر الإسلامية على النحو الآتي:

بعد أن قرأ المقوقس الكتاب، قال:

ـ ما منع محمدًا إن كان نبيًا أن يدعو عليَّ فيسلَّطَ عليّ؟

---

(١) يحقق أحمد عادل كمال، في الموضع السابق، أنه قصر داخل الماء في لسان السلسلة بمحطة الرمل، المواجه لموقع مكتبة الإسكندرية الآن.

(٢) الحق علبة صغيرة من خشب أو عاج، راجع ابن منظور، لسان العرب: مادة حق؛ والفيروز آبادي، القاموس المحيط، المادة نفسها؛ وأحمد تيمور، معجم تيمور الكبير، ج٣ ص ١١٨ مادة حق، وج٤ ص٤٢٨ مادة عُلبة.

(٣) أحمد عادل كمال، المرجع السابق، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٤) السابق، ص ٢٢٤.

ـ فقال حاطب: ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى أن يُفْعَل به ويُفْعَل؟

فَوَجَم المقوقس ساعةً، ثم أعاد الجملة نفسها على حاطب، ورد حاطب رده نفسه، فَسَكَتَ[1].

ـ قال حاطب: إنه كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى (فرعون إذ قال: أنا ربكم الأعلى) فانتقم الله به ثم انتقم منه، فاعتبرْ بغيرك، ولا يُعْتبرُ بك، وإن لك دينًا لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافي الله به فَقْدَ ما سواه؛ وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به[2].

هذه هي سلسلة الأنبياء، وذريتهم المتواصلة من آمن بواحد ثم جاء الذي بعده يجب عليه أن يؤمن به. موسى وعيسى ومحمد ثلاثة أحدهم بعد الآخر في سلسلة أولي العزم من الرسل فإذا كان أتباع عيسى يَدْعون أتباع موسى إلى الإيمان بنبيهم فإن الطبيعي، والمعقول، أن يدعوا أتباع محمد أتباع النبيين السابقين إلى الإيمان به. ولذلك قال حاطب للمقوقس «ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به» وهو قول مأخوذ من قول القرآن الكريم في إيمان المسلمين: ﴿...لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ...﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فكأن أمر حاطب للمقوقس بدين المسيح يأتي في إطار الإيمان الشامل بالإسلام الذي لا يتم إيمان المرء به إلا بإيمانه برسل الله وأنبيائه كافة.

استبقى المقوقس حاطبًا أيامًا حتى يرد على الكتاب، وذات ليلة أرسل المقوقس إلى حاطب فأتاه، فإذا هو وحده ليس معه إلا تَرجمانٌ له، فقال:

ـ ألا تخبرني عن أمور أسألك عنها، فإني أعلم أن صاحبك قد تخيّرك حين بعثك.

ـ قال حاطب: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك.

---

(١) يرد صديقنا الدكتور يوسف زيدان هذا الحوار بدلالة أن المقوقس لا يؤمن بنبوة عيسى بل بأنه إله أو ابن الإله. والواقع أن هذا الرد غير صحيح فليس في كلام حاطب أنه قال للمقوقس إن عيسى ـ عليه السلام ـ نبي.

(٢) ابن عبد الحكم، السابق، ص ٦٦؛ والمقريزي، السابق، ج١ ص ٧٧؛ وأحمد عادل كمال، السابق، ص ٢٢٤-٢٢٥. والعمدة هو ما رواه ابن عبد الحكم وعنه أخذ الآخرون.

ـ قال: إلام يدعو محمد؟

ـ قال: إلى أن تعبد الله لا تشرك به شيئًا وتخلع ما سواه، ويأمر بالصلاة.

وقد أدرج حاطب الأمر بالصلاة مع الأمر بتوحيد الله لأن الصلاة عماد الدين من أقامها أقام الدين ومن هدمها هدم الدين، ولأن الأمر الذي بين المسلمين وبين غيرهم هو الصلاة من تركها فقد كفر، يعني من تركها جحودًا بها وإنكارًا لها، وكأن أصحاب النبي ﷺ عند تبليغ الدعوة إلى غير المسلمين كانوا ينصون على أساسيات الإسلام لئلا يقع في وهم المبلَّغ أنه ليس عليه إلا النطق بالشهادتين.

ـ قال المقوقس: فكم تصلون؟

ـ قال حاطب: خمس صلوات في اليوم والليلة؛ وصيام شهر رمضان (أي إن النبي ﷺ يأمر به) وحج البيت والوفاء بالعهد وينهى عن أكل الميْتة والدم.

المسيحيون يصلون ويصومون بطريقتهم، ويحجون إلى بيت المقدس على طريقتهم، والوفاء بالعهد أمر مشترك بين الأديان السماوية كافة، والنهي عن أكل الميتة والدم من أمور العادات التي يتعبد بتركها أو يعصى الله بفعلها، فكان ذكر هذا كله مما يناسب دعوة رجل مسيحي إلى الإسلام.

ـ قال: من أتباعه؟

ـ قال: الفتيان من قومه ومن غيرهم.

ـ قال: فهل يقاتل قومَه؟

أي يقاتلهم بسبب معارضتهم له ومقاومتهم لدعوته إلى الدين الذي بعث به. وسؤال المقوقس في محله تمامًا إذ سبقه قول حاطب إن أتباع محمد هم الفتيان أي الشباب فكان طبيعيًا أن يسأل المقوقس عن بقية الناس هل يسكتون على هذه الدعوة أم يقاتلون صاحبها؟؟

ـ قال: نعم.

قال المقوقس: صفه لي، فوصفه حاطب ببعض صفته ﷺ؛ قال المقوقس قد بقيت أشياء لم أرَكَ ذكرتها، وذكر المقوقس بعض صفة النبي ﷺ فقال حاطب: هذه صفته(!)[1].

قال المقوقس: قد كنت أعلم أن نبيًا قد بقي، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام، وهناك كانت تخرج الأنبياء قبله، فأراه قد خرج في العرب، في أرض جَهْدٍ وبؤسٍ.

ثم دعا المقوقس كاتبًا يكتب بالعربية فكتب: «لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام أما بعد، فقد قرأتُ كتابَك، وفهمتُ ما ذكرتَ، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمتُ رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وبغلة لتركبها والسلام»[2].

> ويلاحظ في خطاب المقوقس أنه يبدأه باسم المرسل إليه، وهذا من العادات الحسنة في المكاتبة بين الناس أن يبدأ بأعلاهما شأنًا، وأكرمهما منزلة. كتب إليه رسول الله ﷺ: من محمد بن عبد الله....، وكتب هو لمحمد بن عبد الله من المقوقس.....، ولا ريب أن هذا من حسن أدب المقوقس ومعرفته بأصول المخاطبات السياسية بين الزعماء والملوك.

ودفع المقوقس الكتاب إلى حاطب، وأمر له بمائة دينار، وخمسة أثواب، وقال له: «ارجع إلى صاحبك، ولا تسمع منك القبط حرفًا واحدًا، فإن القبط لا يطاوعوني في اتباعه[3]، وأنا أضن بملكي أن أفارقه، وسيظهر صاحبك على البلاد، وينزل بساحتنا هذه أصحابه من بعده فارحل من عندي»!

وكلام المقوقس صحيح، فالقبط لا يمكن أن يطاوعوه بسهولة على ترك دينهم

---

(١) وهذا مصداق لقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ...﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦ والأنعام:٢٠]. وفي هذه الآيات ردٌّ على الذين أنكروا صحة هذا الحوار بزعم أن المقوقس ما كان يمكن أن يعرف وصف محمد ﷺ وهو لم يره!

(٢) ابن عبد الحكم، الموضع نفسه؛ والمقريزي، الموضع نفسه؛ وأحمد عادل كمال، الموضع نفسه؛ والنص من نصب الراية للزيلعي، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٣هـ ج٤ ص ٤٢٢.

(٣) وإذا كان القبط لا يطاوعونه، فإن الروم، من باب أولى، لا يطاوعونه كذلك. وقد ذكر القبط لأنهم أهل البلاد المعنيون بالأمر فيها، ولم يكن للروم إلا سلطان المحتل وقوة جنده(!)

واتباع هذا الدين الجديد الذي هو الإسلام. وهو ملكانيٌّ من أتباع مذهب الطبيعتين، وهم يعقوبيون من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، فإذا لم يطيعوه في الخلاف داخل المسيحية فكيف يطيعونه في الخروج منها جملة؟!

ونهيه حاطبًا أن يخبر القبط بالمحاورة بينهما في محله لأنه يكره أن يشاع عنه أنه علم بصحة نبوة محمد فيكون هذا سببًا لغضب هرقل عليه.

قال حاطب: «فرحلت من عنده.... فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت له ما قال لي فقال: «ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه»[1]! قال حاطب: «كان لي مكرمًا في الضيافة وقلة اللبث ببابه، وما أقمت عنده إلا خمسة أيام»[2].

وفي الروايات زيادات في وصف الهدايا، وعدد من بعثهن المقوقس إلى النبي، وأشياء أخرى، ولعل الأصح ما نقلناه.

والجاريتان هما مارية أم ولد رسول الله ﷺ إبراهيم، رضيَ الله عنه؛ وأختها: سيرين، أو حنة أو قيصر، وقد اختلف فيمن أهداها له النبي ﷺ من أصحابه فقيل لجهم بن قيس العبدري، وقيل لمحمد بن مسلمة الأنصاري، وقيل لخليفة الكلبي، وقيل لحسان بن ثابت، والله أعلم أي ذلك كان. المهم أن نعرف أن النبي ﷺ لم يجمع بين الأختين في ملك يمينه، فذلك غير جائز كما أن الجمع بينهما في الزواج غير جائز. وقد كان من حديثهما أن النبي ﷺ لما نظر إليهما رأى في وجهيهما الطيبة والصلاح فقال: «اللهم اختر لنبيك» وسألهما «أتسلمان؟» فقال مارية: نعم! أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وتأخرت شقيقتها بعض الوقت فقال النبي ﷺ «لقد اختار الله لي» واستبقى لنفسه مارية التي أسلمت فور سؤاله لهما عن الإسلام، وجعل الثانية هدية لواحد من أصحابه، والذين يترجمون للصحابة يثبتون أنهما كانتا مسلمتين صالحتين لم يؤثر عنهما إلا الخير.

---

(١) نصب الراية، السابق، الموضع نفسه.

(٢) روى هذا الخبر ابن سعد في الطبقات بسنده إلى ابن عباس والعلاء بن الحضرمي وعمرو بن أمية الضمري وغيرهم، ابن سعد، الطبقات، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢، ج١ ص ٢٢٢-٢٢٤؛ وهو في نهاية الأرب لشهاب الدين النويري، ط دار الكتب، القاهرة ١٩٥٥، ج ١٨ ص ١٦٤؛ وفي نصب الراية، السابق، الموضع نفسه.

ولم يكن ذلك التواصل، بين النبي ﷺ والمقوقس، هو التواصل الوحيد، بين الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وبين قبط مصر.

فقد أرسل النبي ﷺ إلى مصر شرحبيل بن حَسَنَة الكندي من تبوك؛ وأرسل أبو بكر حاطبًا نفسه ـ مرة أخرى ـ إلى المقوقس، وأرسل عمر بن الخطاب كعب بن عدي التنوخي سنة ١٥هـ، وكان أبو بكر قد أرسله كذلك سنة ١٣هـ إلى المقوقس[1].

وقد قبل رسول الله ﷺ هدية المقوقس، وكان لا يردها من أحدٍ من الناس، وكان فيها مع الثياب والجاريتين والبغلة عسلا من عسل بنها، فأعجب النبي ﷺ ودعا فيه بالبركة(!) ولم يكن المقوقس الذي قبل النبي ﷺ هديته مسلمًا. والثابت عن رسول الله ﷺ أنه قبل هدايا أهل الكتاب وهدايا المشركين مادامت لا شبهة فيها، فالذين يضيقون على الناس ـ في هذا الزمان ـ ويُحَرِّمون الهدية إلى غير المسلم، أو قبول الهدية منه، مخطئون، وليس لهذا التحريم أساس من الكتاب أو السنة، بل التضييق كله ليس جائزًا إذ النبي ﷺ مبعوث بالحنيفية السمحة. وكما أن التشديد على العباد بغير سند محرم أو مكروه فإن التساهل والتفريط في أمر الدين، أو في أمر الكرامة الإنسانية، محرم كذلك أو مكروه. والواجب على الناس أن يكونوا كما قال رب العالمين ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣].

* * *

والمقوقس الذي كاتبه رسول الله ﷺ ليس هو المقوقس الذي راسله أبو بكر وعمر ثم لقيه عمرو بن العاص، فالأول هو (جورج أو جريج بن مينا أو ابن قرقب) الذي عُزل سنة ٦٣١م، وتولى بعده مقوقس ثانٍ اسمه (سيروس أو قيرس) وهو الذي اضطهد القبط أعظم الاضطهاد وأقساه[2]. والأول ـ الذي كاتبه النبي ﷺ ـ كان حاكمًا

(١) تراجم هؤلاء الصحابة، وذكر سفاراتهم إلى مصر، في أسد الغابة، والإصابة والاستيعاب، وَذَكَرَ بعثة شرحبيل أحمد عادل كمال ص ٢٤٥ ولم يَذْكرَ لها مصدرًا.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، مصر القديمة من فجر التاريخ إلى الفتح العربي، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ص ٢٥٣؛ وأحمد عادل كمال، السابق، ص ٨٣.

على مصر فحسب، ولم تكن له صفة دينية، والثاني كان حاكمًا وبطريركًا ملكانيًا[١] في الإسكندرية، باعتبارها العاصمة[٢].

وكان المعتاد أن ترسل القسطنطينية حاكمًا للإسكندرية (رجل دولة) وأن ترسل أسقفًا (رجل كنيسة) تكون له الزعامة الدينية دون السياسية، ولكن هذا البطريرك (قيرس) جمع بين الرئاستين الدينية والسياسية، على خلاف سلفه الذي كان رئيسًا سياسيًا فحسب.

ولم تكن هذه الصلات، التي أورثت معرفة لا ريب فيها بمصر وثرواتها وحضارتها، هي الدافع الوحيد لتوجه الفتح الإسلامي إليها، بل كان مع ذلك، وربما قبله البشارات النبوية بفتح مصر: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا» أو قال «ذمة وصهرًا»[٣] وقال ﷺ: «إذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض» فقال له أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ قال «لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة»[٤].

كان الصحابة يؤمنون بصدق هذه البشارات النبوية إيمانًا تامًا، فقد عاينوا الوحي، وشاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوا صدقه. وإذا كنا نحن اليوم نؤمن بأن رومية (روما) ستفتح للإسلام كما فتحت القسطنطينية، ونؤمن أن هذا الدين سيبلغ ما طلعت عليه الشمس حتى لا يبقى بيت وبر ولا مدر إلا دخله الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل، ونؤمن بأن الأرض ستعود أمنًا وسلامًا حتى تخرج الظعينة من صنعاء إلى مكة لا تخشى إلا الله، ويخرج الراعي لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه؛ نؤمن بذلك تمامًا ونعتقد أنه واقع لا محالة، فإن إيمان الصحابة كان كذلك، بل هم كانوا أقوى يقينًا بغير شك. ولذلك

(١) أي على دين الملك، هرقل، من الإيمان بالطبيعتين والمشيئتين للسيد المسيح عليه السلام.
(٢) لا يزال البطرك في الكنيسة الأرثوذكسية المصرية يسمى بطريرك الإسكندرية.
(٣) رواه مسلم عن أبي ذر، ح (٢٥٤٣). والقيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم كان أهل مصر يستعملونه (قاله النووي، ج ١٦ ص ٩٧)، وهو أيضًا جزء من ٢٤ جزءًا من الفدان، أو من العقار بوجه عام.
(٤) كنز العمال، ح (٣٨٢٦٢) عن عمر بن الخطاب.

خرجوا لفتح مصر مزودين بإيمانهم بهذه البشارات، وبالمعلومات التي عرفوها عن مصر على مدى السنين، وبالصلات القديمة بين قبائل العرب وفروعها التي استقرت في أنحاء من مصر كما سنرى فيما بعد.

وتصديقًا لهذه البشارات وعلمًا بحقائق الأحوال في مصر، من الرسل المتتابعين إليها، كان التحرك الإسلامي للفتح.

* * * * *

(٣)
القائد الفاتح

قائد الفتح الإسلامي لمصر هو عمرو بن العاص بن وائل السَّهْمي، يقول عنه الإمام الذهبي: «داهية قريش، ورجل العالم، ومن يضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم»[(١)].

والتعرف على عمرو بن العاص ضروري لمن أراد التعرف على حقيقة مسلكه في فتح مصر. وقد نَذكرُ أن معركة فكرية/ تاريخية شغلت الناس في مصر منذ سنوات قليلة عندما كتب بعض أهل الأدب والفن كلامًا غير صحيح، وغير حسن، عن عمرو بن العاص، ورد على ذلك عدد من المثقفين والمفكرين، ثم نُسيَ الأمر كله. وليس من همنا استرجاع هذا الخلاف الفكري الأدبي، لكن الذي يعنينا هنا هو الوقوف على طَرَفٍ من أخبار عمرو دالٍ على شخصيته، منبئ عن كفاءاته وقدراته التي أهلته للقيادة منذ أسلم إلى أن لقي ربه. وسوف نقف بهذه الأخبار إلى فتح مصر لأن لعمرو حياة حافلة بعد ذلك، لا سيما منذ صحب معاوية بن أبي سفيان وقاتل معه عليًا ـ رضيَ الله عنه ـ وكان الحَكَمَ الذي فوَّضه معاوية في التحكيم بينه وبين علي رضي الله عنهم أجمعين. ولكن موضع ذلك سيأتي عند درس الحضارة الإسلامية ومسيرتها، إن شاء الله[(٢)].

---

(١) الحافظ الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، دمشق ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م، ج٣ ص ٥٥.

(٢) أعني عند إكمال سلسلة محاضراتنا المعنونة:
(النهضة الإسلامية.. حضارة تتجدد) التي بدأتها في جمعية مصر للثقافة والحوار قبل هذه المحاضرات عن الفتح الإسلامي لمصر.

كان بيت عمرو بن العاص في قريش من البيوتات العريقة، وأبوه العاص بن وائل كان من سادات قريش، وهذا الأب هو سبب عقد حلف الفضول الذي شهده رسول الله ﷺ قبل البعثة، وقال عنه: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا، ما أحب أن لي به من حُمْر النَّعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»[1]؛ وذلك أن رجلا من زَبيد قدم ببضاعته من بلاده (اليمن) فاشتراها منه العاص بن وائل ثم لم يدفع ثمنها، فاستعان الرجل عليه برجال من بني عبد الدار، ومخزوم، وجمح، وسهم (قبيلة العاص) وعديٍّ بن كعب، فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل لقَدْرِه في مكة وشرفه فيها. فصَعِد الرجل على جبل أبي قُبَيْسٍ عند طلوع الشمس، وقال شعرًا ـ كعادة العرب كلما حَزَبَ أحدهم أمر ـ عرَّف فيه بظلمه:

يا آلَ فهرٍ لمظلومٍ بضاعَتَهُ
ببطن مكةَ نائي الدارِ والنَفَرِ

إن الحرام لمن تَمَّتْ كرامتُه
ولا حرام لثوبِ الفاجرِ الغُدَرِ[2]!

فقام الزبير بن عبد المطلب، من نادي قومه حول الكعبة، وقال: «ما لهذا مَتْرَكٌ»[3].
واجتمعت هاشم وزُهرة وتَيْمُ بن مرة في دار عبد الله بن جُدْعان وعقدوا حلف الفضول، تعاقدوا فيه على ألا يبيت بمكة مظلوم من أهلها أو غيرهم، وأنصفوا الزبيديَ من العاص بن وائل.

وفي السيرة النبوية أن أصحاب النبي ﷺ لم ينكروا على الحسين بن علي ـ رضيَ الله عنه ـ عندما دعا بحلف الفضول. تقول الرواية: إن رجلا ظلم الحسين بعض حقه في أمر كان بينهما، فقال له الحسين: «لتنصفني أو لأقومنَّ في مسجد رسول الله ﷺ،

(١) ابن هشام، السيرة وبهامشها الروض الأنف للسهيلي، القاهرة ١٩١٤، ج١ ص٩٠؛ وأبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، بيروت ١٩٨١، ص١٢٧.
(٢) الغدر هو الذي لا يفي بوعده، والغدْرُ ضد الوفاء؛ انظر الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة (غدر).
(٣) أي لا يجوز لنا تركه وهو على هذه الحال.

ثم لأدعونَّ بحلف الفضول. فقال جمع من الصحابة والتابعين: «لنقومن معه فلننصفنَّه ـ أو حتى ينصف ـ أو نموت جميعًا»[1].

* * *

وعندما ظهرت دعوة الإسلام ببعثة النبي ﷺ كان العاص بن وائل، ممن ناصبوها العداء، وكان ممن خاطبوا أبا طالب ـ عم النبي ﷺ ـ في أن يخلِّيَ بينهم وبين ابن أخيه، وكان ممن عرضوا على النبي ﷺ أن يسوّدوه، أو يملكوه، عليهم على أن يرجع عن الإسلام والدعوة إليه فأبى ﷺ. والعاص بن وائل أحد الذين قالوا إن النبي ﷺ أبتر عندما مات له ولد ذكر، فنزل فيهم قوله تعالى ﴿...إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣][2]. وهو أحد المستهزئين الخمسة الذين نزل فيهم قول الله تعالى ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٥] والمستهزئون الخمسة هم: الأَسْوَدُ بن المطلب أبو زمعة؛ والأسود بن عبد يغوث بن وهب؛ والوليد بن المغيرة؛ والعاص بن وائل؛ والحارث بن الطلاطلة بن الحارث بن ملْكان[3].

وقد كُفي رسول الله ﷺ أذى العاص بن وائل بطريقة عجيبة: كان العاص قد ضجر مما يجري في مكة من انتشار الدعوة الإسلامية، وضاق صدره بعجز المشركين عن الحيلولة بين المستضعفين وبين الدخول في الإسلام، وعجزهم عن منع محمد ﷺ من الدعوة إليه، فخرج من مكة إلى الطائف يريد أرضًا له هناك، فبرك به حماره عند شجرة في الطريق، ونزل العاص لمثل ما ينزل له الراكب، فأصابته شوكة في مقدم قدمه فمات منها.

هذا هو أبو عمرو بن العاص مكانةً في قريش وعداوةً للإسلام. فكيف كان الابن مَنْ هُوَ بلاءً في الإسلام ونصرًا للدين؟!

* * *

(١) سيرة ابن هشام، الموضع السابق.

(٢) تفسير ابن كثير، ص ١٨٨٠، ط بيت الأفكار الدولية.

(٣) ابن كثير، التفسير، السابق، ص ٩٥٧.

حدَّث عمرو عن نفسه قال: «كنت للإسلام مجانبًا معاندًا، حضرت بدرًا مع المشركين فنجوت، ثم حضرت أُحدًا فنجوت، ثم حضرت الخندق فنجوت، فقلت في نفسي كم أوضِع؟ (أي كم أتأخر وأتمهل في أمر نفسي فتزيد خسارتي؟) والله ليظْهرنَّ محمد على قريش، فلحقت بمالي بالوهط[1] وأقللت من الناس (أي من لقائهم) فلم أحضر الحديبية ولا صلحها. وانصرف رسول الله ﷺ ورجعت قريش إلى مكة، فجعلت أقول: يدخل محمد قابلا[2] مكة بأصحابه، ما مكة لنا بمنزل ولا الطائف، وما شيء خير من الخروج، وأنا بعد ناءٍ عن الإسلام أرى أن لو أسلمَتْ قريشٌ كلُّها لم أُسْلِمْ... فقدمت مكة فقلت لرجال من قومي كانوا يرون رأييْ ويسمعون مني ويقدمونني فيما نابهم، فقلت لهم... أرى أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن يظهر محمد كنا عند النجاشي، فنكون تحت يده أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن تظهر قريش فنحن من عرفوا. قالوا: هذا الرأي(!)

فلما كانوا عند النجاشي قال لعمرو ـ بعد محاورة بينهما ـ إن رسول الله ﷺ يأتيه الناموس[3] الأكبر الذي كان يأتي موسى ويأتي عيسى بن مريم.

قال عمرو: وغيَّر الله قلبي عما كنت عليه، وقلت في نفسي: عرفَ هذا الحقَّ العربُ والعجمُ وتخالف أنت؟!

فقال للنجاشي: وتشهد بهذا أيها الملك؟ قال: نعم أشهد به عند الله يا عمرو، فأطعني واتبعه، والله إنه لعلى الحق وليظهرنَّ على كل من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قال عمرو للنجاشي: فتبايعني له على الإسلام؟

---

(١) قرية بالطائف كانت له.

(٢) أي السنة القادمة

(٣) أي جبريل ملك الوحي، وهو أحد معنيي الناموس في لغة المسيحيين، ففي الكلام المنسوب عندهم إلى عيسى عليه السلام: «ما جئت لأنقض الناموس ولكن جئت لأتمم» والناموس هنا تعني الشريعة القديمة أو السابقة. فللكلمة معنيان.

قال النجاشي نعم؛ فبسط يده فبايعته على الإسلام[١]...

فلما خرج عمرو من عند النجاشي أدرك أصحابه ما أصابه من تغير عرفوه في وجهه. ذلك أن نور الإسلام لا يخفى، كان الرجل يدخل على رسول الله ﷺ بوجه ـ وهو مشرك ـ ويخرج من عنده ـ بعد إسلامه ـ بوجه آخر، يعرف الناس فيه شيئًا جديدًا لم يألفوه قبل إسلامه. وقول العرب عرفت في وجهه ما لم أعرف كقولهم عهدت منه ما لم أعهد، كل منهما يدل على تغير: الأول معنوي والثاني مادي. فلما أدرك أصحاب عمرو، الذين اتبعوه من مكة إلى الحبشة، أن التغير الذي أصاب وجهه معنوي ناتج من تقليب الله تعالى قلبه من الكفر إلى الإسلام، ضربوه وغمّوه بقطيفة ألقوها على رأسه، وسلبوا متاعه وثيابه، فرده إليه النجاشي، ولقي عند خروجه من مجلس النجاشي عمرو بن أمية الضَّمْري، كان النبي بعثه برسالة إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام وبرسالة أخرى أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فأخبره عمرو بإسلامه فسُرَّ لذلك، ولقي ـ في رواية أخرى ـ جعفر بن أبي طالب فأخبره بذلك فدعا له[٢].

وهكذا الإيمان يلقيه الله في قلب عبده في الوقت الذي قدَّره له، لا يتقدم ولا يتأخر(!)

* * *

ثم إن عَمْرًا خرج من عند النجاشي فسافر عازمًا على أن يأتي النبي في المدينة فيعلن عنده إسلامه. فلما وصل إلى أرض الحجاز اشترى بعيرًا، وتوجه نحو المدينة، فلما كان ببعض الطريق وجد رجلين يسبقانه غير بعيد كأنهما يريدان مكانًا ينزلان فيه، فإذا أحدهما خالد بن الوليد والثاني عثمان بن طلحة؛ فقال عمرو لخالد: أبا سليمان: أين تريد؟ قال: محمدًا، دخل الناس في الإسلام، إن الرجل لنبيٌّ ما أشك فيه. فقال

---

(١) قال الشيخ محمود البيلاوي بعد ذكر هذه القصة: «ومما تقدم يُعْلَمُ أن صحابيًا أسلم على يد تابعي وفضل الله يؤتيه من يشاء». ومراده إثبات أن النجاشي أسلم على يد الصحابة ولم يَرَ النبي ﷺ فهو تابعي، وعمرو أسلم على يد النجاشي ورأى النبي ﷺ، وعاش معه فهو صحابي(!) راجع كتابه: (تاريخ الهجرة النبوية وبدء الإسلام) مطبعة الاعتماد، القاهرة ١٩٢٧ ص ٨٩.

(٢) طبقات ابن سعد، ج ٥ ص ٤٧ وما يليها؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣ ص ٤٥ ومايليها.

عمرو: وأنا والله(!)[١] وفي رواية أن خالدًا قال لعمرو: «لم يبق أحد فيه مطمع إلا دخل في دين الله، والله إن محمدًا لرسول الله، وأنا أشهد بذلك» قال عمرو «على رسلك وأنا أيضًا أشهد بذلك»؛ كأنما هو يقول لخالد إنني لست حديث عهد بالإسلام، لقد أسلمت قبلك، أسلمت عند النجاشي. وكان خالد، وعثمان بن طلحة، وهو أحد كبراء مكة وزعمائها الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ ويعاندون الإسلام، قد قررا بعد الحديبية وما رأياه فيها من الآيات صدق محمد ﷺ في نبوته، فأسلما سرًا وخرجا من مكة يريدان أن يأتيا رسول الله ﷺ في المدينة، وفي طريقهما إليه لقيهما عمرو بن العاص قادمًا من الحبشة.

قدم عمرو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة على رسول الله ﷺ فبايع خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة على الإسلام بلا تردد، لكن عَمْرًا اشترط، فقال للنبي ﷺ «على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي» (قال ونسيت ما تأخر) فقال له النبي ﷺ «بايع يا عمرو، إن الإسلام يجبُّ ـ أو قال يحتُّ ـ ما كان قبله» وفي روايات صحيحة «أما علمت يا عمرو أن الإسلام يجبُّ ما كان قبله»[٢]؟ وكان إسلامهم ـ لدى النبي ـ عام خيبر في صفر سنة ثمانٍ من الهجرة.

يقول عمرو: «ما عَدَل بي رسول الله ﷺ وبخالدٍ منذ أسلمنا أحدًا من أصحابه في أمر حربه»[٣].

* * *

وأمَّرَهُ النبي ﷺ على غزوة ذات السلاسل[٤] وفي الجيش أبو بكر وعمر، فنهى عمرو الناس عن أن يوقدوا في الليل نارًا، وكان الليل شديد البرد، فقال عمر لأبي

(١) طبقات ابن سعد، السابق، ص ٤٩؛ والذهبي، السابق، ص ٦٠.
(٢) طبقات ابن سعد، الموضع نفسه، والذهبي؛ السابق، الموضع نفسه؛ والحديث في مسند أحمد رقم ١٧٩٦٦ و١٧٨١٣؛ وفي صحيح مسلم برقم ١٢١ بلفظ «...أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله...».
(٣) الذهبي، السابق، ص ٦٦.
(٤) عين بأرض جُذام تسمى السلاسل بها سميت الوقعة.

بكر: ألا ترى إلى هذا ما صنع بالناس يمنعهم منافعهم؟ فقال أبو بكر: دَعْهُ، فإنما ولاه رسول الله ﷺ علينا لعلمه بالحرب.

فلما قدم الصحابة على النبي ﷺ شكوا له ذلك، فقال عمرو: يا نبي الله كان بأصحابي قلة، فخشيت إن أوقدوا النار أن يرى العدُو قلتهم، ونهيتهم أن يتّبعوا العدوَّ وراء الجبل مخافة أن يكون لهم من وراء الجبل كمين، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ[1].

وفي هذه الغزوة أصاب عَمْرًا ـ في ليلة شديدة البرد ـ ما يوجب الغسل، فتوضأ وصلى بالناس الصبح دون أن يغتسل، فقال الصحابة لرسول الله ﷺ عن عمرٍو خيرًا، ثم أخبروه ذلك الخبر، فسأله عما كان فقال: كان البرد شديدًا فخشيت أن أهلِكَ وذكرت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩] ولو اغتسلت مِتُّ. فضحك رسول الله ﷺ[2].

وقد أمر النبي ﷺ عَمْرًا أن يقضي بين خصمين، فقال يا رسول الله، أقضي وأنت حاضر؟ قال: «نعم، إن الحاكم إذا حكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر»[3].

وقال له رسول الله ﷺ لما دعاه إلى غزوة وبشره بالسلامة والغنيمة، فأجاب: ما أسلمتُ من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، ولأن أكون مع رسول الله ﷺ. قال يا عمرو: «نعمّا بالمال الصالح للرجل الصالح»[4].

وكان رسول الله ﷺ في سرية فنعس، ثم استيقظ من نعاسه ثم قال: «رحم الله عمرًا»، قالها ثلاثًا، فقيل من عمرو هذا؟ قال «عمرو بن العاص». قيل وما شأنه يا رسول الله؟

---

(١) راجع: المصدرين السابقين.

(٢) حديث صحيح من رواية عمرو نفسه، علقه البخاري، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقوَّاه الحافظ ابن حجر، وحسَّنه المنذري، ورواه ابن قيم الجوزية في زاد المعاد. راجع: الذهبي، السابق، ص ٧٦ هـ ٣، (والهامش من كلام الشيخ شعيب الأرناؤوط).

(٣) البخاري ح(٧٣٥٢)، ومسلم ح(١٧١٦) والقصة في طبقات ابن سعد ص ٥٧.

(٤) رواه أحمد عن عمرٍو نفسه ح(١٧٩٥٥ و١٧٩١٥) والبخاري في الأدب المفرد عنه برقم (٢٩٩) وهو حديث صحيح.

قال: «كنت إذا ندبت الناس إلى الصدقة، جاء فأجزل منها، فأقول: يا عمرو! أنى لك هذا؟ فقال: من عند الله، قال: وصدق عمرو؛ إن له عند الله خيرًا كثيرًا».[1]

* * *

يقول الحافظ الذهبي في عمرو: «كان من رجال قريش رأيًا، ودهاءً، وحزمًا، وكفاءةً، وبصرًا بالحروب، ومن أشراف ملوك العرب، ومن أعيان المهاجرين، والله يغفر له ويعفو عنه، ولولا حبه للدنيا ودخوله في أمور لصلح للخلافة، فإن له سابقةً ليست لمعاوية، وقد تأمَّر على مثل أبي بكر وعمر لبصره بالأمور ودهائه»[2].

وقد كان عمرو من أحسن الناس بيانًا وأسرعهم بديهة، حتى كان عمر بن الخطاب إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه قال: «خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد»[3].

روى عن النبي ﷺ نحو أربعين حديثًا بما في ذلك المكرر منها، وكان يقول عن نفسه «لا أملُّ ثوبي ما وسعني، ولا أملُّ زوجتي ما أحسنت عشرتي، ولا أملُّ دابتي ما حملتني، إن الملال من سيء الأخلاق»[4].

وبعثه رسول الله ﷺ إلى جيفر وعبد ابني الجُلُنْدى، وهما من الأزد الذين كانوا يحكمون عُمان، وكان جيفر هو ملك عمان وعبد هو أخوه المقرب منه، وكتب رسول الله ﷺ مع عمرو بن العاص كتابًا يدعوهما فيه إلى الإسلام، أملاه النبي ﷺ على أبي بن كعب فكتبه وختمه رسول الله ﷺ بخاتمه. فلما قدم عمرو إلى عُمان ذهب إلى عبد بن الجُلُنْدى، يقول عمرو: وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقًا، فقال: إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك. فقال له عبد: إن أخي هو المقدم عليَّ بالسن والملك وأنا أوصلك إليه. يقول عمرو: وهذا ما كنت أريد، أي إنه كان يريد صلة بينه وبين الملك تيسر له الدخول عليه، وتهيىء الملك لسماعه وقبول كلامه، وهذا من حسن كياسة عمرو ودهائه.

(١) أخرجه الذهبي بسنده عن علقمة بن رمثة ـ رضيَ الله عنه، سير أعلام النبلاء، السابق، ج٣ ص ٦٥.
(٢) الذهبي، السير، السابق، ص ٥٩.
(٣) السابق، ص ٥٧.
(٤) السابق، ص ٥٧.

فلما دخل عمرو على جيفر دفع إليه الكتاب ففضه جيفر وقرأه إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه وقال لعمرو: **يا عمرو وأنت ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة؟**

قال عمرو: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام.

قال جيفر: فمتى تبعته؟

قال عمرو: قريبًا

قال جيفر: فأين كان إسلامك؟

قال عمرو: عند النجاشي وقد أسلم.

قال جيفر: فكيف صنع قومه بملكه؟

قال عمرو: أقروه واتبعوه.

قال جيفر: والأساقفة والرهبان تبعوه؟

قال عمرو: نعم.

فأبى جيفر أن يسلم وأقام عمرو أيامًا في عُمان ثم بعث إليه أنه خارجٌ غدًا، فلما تيقن جيفر من ذلك أرسل إلى عمرو وأجاب هو وأخوه دعوة النبي ﷺ فأسلما جميعًا، وصدقا بالنبي ﷺ وتركا عمرًا يبلغ الناس رسالة الإسلام ويجمع ممن أسلم الصدقة فأخذها من أغنيائهم وردها على فقرائهم، ولم يزل مقيمًا بعمان حتى بلغه نبأ وفاة رسول الله ﷺ.

وكان رجل من يهود عمان قد جاء إلى عمرو بن العاص وسأله عن رسول ﷺ، وأخبره بوفاته عليه الصلاة والسلام في ذلك اليوم، فجمع عمرو أصحابه وأخبرهم بذلك وكتب اليوم الذي قال له فيه اليهودي ما قال. وخرج يريد المدينة، ومعه خفراء من الأزد ومن عبد القيس، فلما بلغ أرض بني حنيفة سمع به مسيلمة فخرج في رجال من قومه يريد أن ينال منه فهرب منه عمرو ومن معه إلا رجلين قتل مسيلمة أحدهما وحبس الآخر حتى فرَّ ولحق بخالد بن الوليد وهو يقاتل أهل الردة[1].

---

(١) الرجلان هما: حبيب بن زيد بن عاصم، وعبد الله بن وهب الأسلمي، كانا في آخر الركب فأصابهما مسيلمة، وقال لهما أتشهدان أني رسول الله؟ فقال حبيب بن زيد لا أسمع فقال أتشهد أن محمدًا رسول

وكان عمرو كلما مرَّ على قوم أخذ منهم خفراء، وتعرف على أحوالهم وما هم عليه، وكانت أكثر قبائل هذا الطريق قد ارتدت عن الإسلام. فلما وصل عمرو إلى المدينة كان أول ما فعله هو التحقق من يوم وفاة رسول الله ﷺ فوجده كما قال اليهودي(!) ثم أتى أبا بكر وقص عليه ما علم من أخبار المرتدين، وحدَّثه بما قاله ذوو البأس منهم ممن لقيهم في طريقه إلى المدينة، وكان قرة بن هبيرة القشيري قد قال لعمرو كلامًا كرهه منه وعلم أنه ليس في قلبه للإسلام خير، فلما بعث أبو بكر خالد بن الوليد إلى المرتدين جاءه عمرو وجعل يقول له: يا أبا سليمان لا يفلتن منك قرة بن هبيرة.

وهكذا كان عمرو جنديًا للإسلام وعينًا للمسلمين في أثناء إقامته بعمان وفي طريق عودته إلى المدينة، ولولا ما أخبر به أبا بكر ـ رضيَ الله عنه ـ مما عرفه عن قبائل المرتدين ما كان للمسلمين سبيل للعلم بذلك وهم على وشك الخروج لقتال أهل الردة[1].

وقد ولى أبو بكر ـ رضيَ الله عنه ـ عمرو بن العاص أول جيوش الشام إلى فلسطين (وكان قائداه الآخران شرحبيل بن حَسَنة ويزيد بن أبي سفيان). وقال قَبيصة بن جابر: «... وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أَبْيَنَ منه ولا أكرم جليسًا، ولا أشبه سريرة بعلانية منه...»[2].

وسَبَّهُ المغيرة بن شعبة فقال ياهُصَيْص[3]، أيسبني ابن شعبة! فقال له ابنه عبد الله: إنا لله[4]، دعوتَ بدعوى القبائل، وقد نُهيَ عنها. فأعتَقَ عمرو ثلاثين رقبة تكفيرًا عن هذه الكلمة(!) وهذا دليل على قوة إيمان عمرو، وخشيته من المعصية، لأن مثل هذه

الله؟ فقال نعم، فأمر به فقتل حرقًا بالنار. وأما عبد الله بن وهب فأقر له بما يريد: أنه رسولٌ وأن رسول الله ﷺ رسول فحبسه في الحديد حتى لحق بخالد. راجع ابن سعد، الطبقات، السابق، جـ ٥ ص ٥٩.

(١) ابن سعد، الطبقات، السابق، ج٥ ص ٥٧؛ وفي استعمال رسول الله ﷺ لعمرو على عُمان وبقائه بها إلى أن توفي رسول الله ﷺ، انظر: ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، بتحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرين، ط كتاب الشعب، القاهرة (د.ت)، ج٤ ص ٢٤٥؛ والذهبي، السير، السابق، ج ٣ ص٦٩.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٣، ج٢ ص٤٢٩.

(٣) هذا استنصار بقومه على المغيرة بن شعبة، فإن عمرو هو ابن العاص بن وائل بن هاشم بن سُعَيد من بني سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤيّ بن غالب.

(٤) هذا اختصار معهود لعبارة «إنا لله وإنا إليه راجعون».

الكلمة ليس لها كفارة مقدرة، وإنما يكفرها الاستغفار منها، لكن عمرًا أبى إلا أن يكفر بعتق هذه الرقاب طمعًا في ألا يؤاخذ يوم القيامة لأنه دعا بدعوى الجاهلية.

* * *

ولما حَضَرتْ عمرًا الوفاة بكى طويلاً، وحول وجهه إلى الجدار. فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نُعِدُّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، إني كنت على أطباق ثلاث، لقد رأيتني وما أحدٌ أشد بغضًا لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إليَّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار. فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعْك، فبسط يمينه، فقبضت يدي. قال: «مالك يا عمرو» قلت: أردت أن أشترط. قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يُغفر لي. قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟»، وما كان أحدٌ أحب إلي من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة. ثم وَلِينا أشياء ما أدري ما حالي فيها. فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شنًا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجعُ به رسلَ ربي[١].

أعتق عمرو كل مملوك له قبل وفاته[٢]، وكانت وفاته ـ رضيَ الله عنه ـ قبل صلاة الفجر من يوم عيد الفطر، فلم يبق أحدٌ صلى العيد إلا صلى عليه، ودفنه ولده عبد الله في قبره المعروف في المقطم. هذا الصحابي الجليل هو الذي فتح بلادنا، ومكَّن للإسلام أن يدخل بيوتنا، ولا مراء أنه له في رقبة كل مسلم مصري، بل ومسلم إفريقي، منة ينبغي أن تشكر بالدعاء له، لأنه ليس بعد الإسلام نعمة تساويه أو تدانيه.

* * *

(١) أخرجه مسلم ح(١٢١) من حديث عبد الرحمن بن شماسة المَهري، والجزور الواحد من الإبل يطلق على الذكر والأنثى.

(٢) طبقات ابن سعد، السابق، ص ٨٢.

(٤)
المسير إلى الفتح

في سنة ١٨ هـ كان عمر بن الخطاب في الجابية ـ من أرض الشام[١] ـ فاجتمع به عمرو بن العاص في خلوة وقال له: يا أمير المؤمنين ائذن لي أن أسير إلى مصر، وحرضَّه عليها، وقال له إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً، وأضعفها عن القتال والحرب.

فأما أنها أكثر الأرض أموالا فقد كان عمرو يعرف مصر وأحوالها من زمن الجاهلية، وأما ضعفها عن القتال والحرب فبسبب الصراع الدامي فيها بين المحتل الروماني وأهل البلاد، وهو صراع دام عقودًا ممتدة من السنين وأضعف البلاد عن الدفاع عن نفسها بغير جدال؛ وبسبب التمزق والضعف الذي كان قد أصاب الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) من جراء الخلاف بين قادتها، وصراعهم على المُلك، لاسيما بعد هزيمة المسلمين لجيوشها في بلاد الشام، وتحريرها من الاحتلال الروماني.

فلم تكن مصر آنئذ مستعدة للتضحية برجالها وشبابها في سبيل نصرة المحتل الروماني في مواجهته مع جيش المسلمين. فلهذا قال عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب: إنها أضعف البلاد عن القتال. وهو قول لم يصدر ـ كما يفهم بعض

(١) قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان. وكان ذلك في الزيارة الثانية لعمر ـ رضيَ الله عنه ـ للشام؛ فقد زارها أول مرة، وهو خليفة، عند فتح بيت المقدس سنة ١٧هـ إذ أبى بطريرك بيت المقدس وأهلها أن يسلموا مفتاحها أو يعقدوا عقدًا، إلا مع الخليفة نفسه(!) وهكذا كان، والعقد بينه وبينهم هو المعروف بعهد عمر إلى أهل إيلياء، وهي بيت المقدس. ثم كانت الزيارة الثانية سنة ١٨هـ.

المتعجِّلين - على سبيل الذم لمصر وأهلها، بل صدر من واقع خبرة عمرو بحال مصر، وحال الدولة الرومانية، من خلال رحلاته التجارية قبل الإسلام، ومن خلال خبرته العربية بالمنطقة كلها، وتأسيسًا على تقدير عسكري للواقع الروماني والمصري، أثبتت الأيام صوابه ودقته.

* * *

تخوف عمر بن الخطاب على المسلمين من مواجهة الرومان في مصر، وكره ذلك.

يقول ابن عبد الحكم - وهو ينقل بسنده في رواية الفتح - «فلم يزل عمرو يعظِّم أمرها عند عمر بن الخطاب، ويخبره بحالها، ويهوِّن عليه فتحها حتى ركنَ إلى ذلك عُمرُ[1]، فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من قبيلة علّ، وقيل بل كانوا ثلاثة آلاف وخمسمائة» وقيل كان ثلثهم من غافق، وغافق بطن من علّ.

وقال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص: «سِرْ وأنا مستخير الله في مسيرك، وسيأتيك كتابي سريعًا إن شاء الله، فإن أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها، أو شيئًا من أرضها، فانصرف. وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامضِ لوجهك، واستعن بالله واستنصره»[2].

في ذلك الوقت (سنة ١٨هـ) كان فتح الشام قد تم، وكذلك فتح العراق، وسقطت مدائن كسرى في أيدي المسلمين، وراحت جيوشهم هناك تتجه شرقًا لفتح أقاليم فارس. ولم يكن متصورًا أن يفكر عمر بن الخطاب، أو يوافق، على فتح جبهة جديدة في مصر إلا بعد أن تستقر له أحوال الشام والعراق، ويطمئن على مسيرة جيوشه في فارس؛ ولم يكن معقولا أن يترك عمرو بن العاص الجيش الذي كان يتأمر عليه في فتح الشام ليفكر في مصر، لذلك فإن اجتماع عمرو ابن العاص

(١) ركن إلى الشيء أي مال إليه. وفي القرآن الكريم: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤] أي تميل؛ وفيه كذلك ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣] أي لا تطمئنوا إلى الظالمين، هذا الوعيد على مجرد الاطمئنان إليهم، فما بالك بنصرتهم وخدمتهم والعمل لهم؟!

(٢) ابن عبد الحكم، السابق، ص ٧٧.

بعمر بن الخطاب في الجابية، في السنة (١٨هـ)، هو أولى التواريخ بالقبول لهذه الواقعة. إن الرواية التي تقول إن ذلك الاجتماع بين الرجلين كان سنة (١٦هـ) لا تثبت من حيث السند، ورواية أن ذلك كان سنة (٢٠هـ) تبعد كثيرًا عن التاريخ المستمر لسائر أحداث الفتح[١].

وقبيلة عَكٍّ مختلفٌ في نسبها، والراجح أنهم بنو عك بن عُدثان بن عبد الله بن الأزد، من العرب القحطانية. مواطنهم أصلا في زَبِيد ونواحيها من أرض اليمن. وقد كانت القبائل القحطانية تمثل غالب جند فتوح العراق وفارس. فعمر بن الخطاب اختار فريقًا متجانسًا من جنود فتح الشام وأمَّر عليهم عمرو بن العاص ليكونوا طليعة جيش الفتح الإسلامي لمصر. والتجانس في الجيش أمر مهم. والانتماء القَبَلي يجعل الولاءَ فطرةً أو غريزةً فلا يخاف القائد غدرًا أو خيانة. والوشائج النَسَبية بين القبائل أعون على الثبات عند القتال، وأدعى إلى عدم الفرار عند اشتداد البأس، فقد كان الفرار من المعركة منقصةً تسير بذكرها الركبان، وتتوقاها القبائل حرصًا على سمعتها في العرب، وهذا شعور قديم مستصحبٌ منذ ما قبل الإسلام، وقد استثمره عمر ـ رضيَ الله عنه ـ فجعل جيوشه دائمًا متجانسة[٢].

والروايات عن اللقاء بين عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب، في الجابية، تجمع كلها على أن عَمرًا خلا بعمر بن الخطاب. وتفسير هذه الخلوة في سبب من اثنين: فإما أن عمرو بن العاص أراد أن ينال موافقة عمر بن الخطاب ـ رضيَ الله عنه ـ على أمرين معًا: فتح مصر، وأن يقود هو جيش الفتح، فقد كان ـ رضيَ الله عنه ـ محبًا للرئاسة ساعيًا إليها، كيف لا وقد وصفه عمر بن الخطاب نفسه، وقد رآه يمشي في الناس، فقال: «ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرًا»[٣]!!

وإما أن عَمرًا خشي لو كان مع عمر، وهو يحدثه، سائر قواد الجيوش، وكلهم من

(١) أحمد عادل كمال، السابق، ص ٢٤٩-٢٥٢.

(٢) تنبه إلى هذا المعنى، ووفاه حقه من التدقيق والتحقيق، صديقنا العلامة الأستاذ أحمد عادل كمال في دراسته للفتوح الإسلامية وترتيب القبائل في كل جيش، راجع كتبه: فتوح الشام، وفتح المدائن، وسقوط المدائن، والقادسية، وفتح مصر.

(٣) الذهبي، السير، السابق، ج٣ ص ٧٠؛ وله أيضا: تاريخ الإسلام، السابق، ج٢ ص ٤٢٧.

كبار الصحابة أن لا يكون رأيهم مثل رأي عمرو في شأن مصر فيميل إليهم عمر بن الخطاب ولا يجيب عَمْرًا إلى طلبه.

على أي الأحوال، سار عمرو بجيشه (٣٥٠٠ مقاتل) متجهًا من الشام إلى مصر على طريق العريش، وعند منطقة تسمى (جبل الحلال) انضم إليه نحو خمسمائة رجل من قبائل راشدة ولخم[١] الذين كانوا يقيمون في تلك المنطقة ـ وهي من أرض مصر بلا ريب ـ وبذلك أصبح جنده يبلغون أربعة آلاف رجل (٣٥٠٠) من عك وغافق (وغافق من عَكٍّ) وخمسمائة من راشدة ولخم و(وراشدة من لخم).

وكان عمرو قد سار ليلا بجنوده، ولم يشعر به من كانوا حوله من جيوش فتح الشام، واستخار عمر بن الخطاب ـ بعد مسير عمرو بن العاص ـ في أمر فتح مصر، فكأنه تخوّف، فكتب إلى عمرو بن العاص كتابًا فيه: «... أما بعد، فإن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك (أي إلى أرض الشام)[٢] وإن كنت دخلت مصر فامض إلى وجهك». ووصل هذا الكتاب إلى عمرو وهو برفح، فتخوف أن يأخذه من الرسول الذي جاء به فيجد فيه أمرًا بالعودة من حيث جاء، فأخذ يماطله في تسلمه، ويدافعه، وهو يسير بالجيش حتى نزل قرية بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل إنها من مصر، فدعا الرسول وتسلم منه الكتاب وقرأه على المسلمين، وقال لهم: «ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟». فقالوا: «بلى». قال: «فإن أمير المؤمنين عهد إليَّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع؛ ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا، وامضوا على بركة الله»[٣].

وفي رواية أن عثمان بن عفان ـ رضيَ الله عنه ـ دخل على عمر بن الخطاب بعد أن سار عمرو إلى مصر، فقال عثمان لعمر: «يا أمير المؤمنين إن عَمْرًا لمُجرًّأ، وفيه

(١) راشدة بطن من لخم.

(٢) كان عمرو قائد جيش المسلمين المرابط في قيسارية وهي من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ٣ أيام، وكانت مدينة مزدهرة، وهي الآن أشبه بالقرى؛ يقول عنها ياقوت الحموي: «واسعة الرقعة طيبة البقعة كثيرة الأهل والخير وأما الآن فليست كذلك وهي بالقرى أشبه منها بالمدن» ياقوت، معجم البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت د.ت، رقم ١٠٠٢٧، ج٤ ص٤٧٨.

(٣) ابن عبد الحكم، السابق، ص٧٧؛ وأحمد عادل كمال، السابق، ص ٢٥٣.

إقدام وحب للإمارة، فأخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة، فيعرِّض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري أتكون أم لا». فأشفق عمر من كلام عثمان وكتب إلى عمرو كتابه الذي ذكرناه[1].

وفي أمر عمر بن الخطاب عمرو بن العاص إذا أدركه كتابه وقد دخل مصر أو شيئًا من أرضها أن يستمر في مسيرته، وإن وصله كتابه قبل أن يدخلها أن يرجع، وفي إرسال الخطاب بعد الاستخارة مسائل:

أولاها، اتباع عمر للسنة في الاستخارة، فقد كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن[2]. وكانت نتيجة تلك الاستخارة هي ما كتبه إلى عمرو بن العاص.

ثانيتها، أن رجوع الجيش إذا كان لم يدخل مصر لا يؤثر على السمعة العسكرية للدولة في شيء، لأنه إن لم يدخل مصر يكون في أرض الشام فكأن الجيش قد سار من مكان إلى مكان في البلاد نفسها وهي كلها، يومئذ، في حكم المسلمين.

ثالثتها، أن الجيش الذي يقوده عمرو إذا كان قد دخل مصر لم يكن رجوعه إلى الشام جائزًا، لأن هذا الرجوع يعني الخوف من الروم، أو عدم الإقبال على القتال، أو عدم إحكام التخطيط قبل إرسال الجيش، وهذا كله يعني ارتباك الدولة وهو أمر لم يكن عمر بن الخطاب ـ ولا غيره ـ يقبل أن يشيع عن الدولة الإسلامية في ذلك الوقت. إن أعظم ما يفت في عضد المحاربين أو المرابطين هو انسحاب جيش من مواقعه أو من الأماكن التي وصل إليها في مسيرته، فأبى عمر أن يصيب جيوشه في الشام والعراق بهذا الشعور الذي يؤدي إلى الوهن والتضعضع والفرقة.

وقد قال عمر في سياق كلامه لعمرو عندما أذن له بالخروج «واعلم أني ممدك» أي إذا احتجت إلى زيادة في عدد جيشك فأنا مرسلها إليك.

* * *

---

(١) ابن عبد الحكم، السابق، ص ٧٨.

(٢) رواه البخاري عن جابر بن عبد الله ـ رضيَ الله عنه ـ ح (٦٣٨٢ و٧٣٩٠).

ولا عجب أن يتجه نظر عمرو بن العاص إلى فتح مصر، وأن يوافقه عمر بن الخطاب على ذلك فإنه ليس من حسن التدبير أن يحكم المسلمون الشام والعراق ثم تترك مصر - جنوب الشام - في أيدي الروم البيزنطيين، لأن ذلك يكون خطرًا كبيرًا على بلاد الشام إذا أراد الروم التحرك لاستردادها من أيدي المسلمين؛ ولم يكن ذلك ليغيب عن العقلية العسكرية لعمرو بن العاص، الذي يقول عنه نفسه: «لم أكن في شيء أتْجرَ مني في الحرب»[(١)]؛ ولا عن حكمة الفاروق عمر الذي جعل الله الحق على لسانه وقلبه.

* * *

وفي أثناء مسير عمرو بجيشه من الشام إلى مصر هلك جمل لرجل ممن خرجوا معه من الشام، فجاء إلى عمرو يطلب منه بعيرًا يركبه، فقال عمرو: «تحمَّلْ مع أصحابك (أي اجعلهم يحملونك على ما معهم من خيل أو إبل) حتى نبلغ أوائل العامر[(٢)]» فلما بلغوا العريش أتاه الرجل، فأمر له عمرو بجملين، وقال له: «لن تزالوا بخير ما رحمتكم أئمتكم، فإن لم يرحموكم هلكتم وهلكوا»[(٣)].

* * *

وبلغ دخول عمرو وجيشه أرض مصر رجلين، كان لكل منهما موقفٌ مناقضٌ لموقف الآخر. فأما الرجل الأول فهو الأنبا بنيامين أسقف القبط بالإسكندرية[(٤)] الذي كان مُضطهدًا، هو وقبط مصر، على يد سيروس (قيرس) المقوقس المعين من قبل هرقل بطريركا للإسكندرية وحاكمًا على مصر (عُين ٦٣١م) حتى إن بنيامين كان يفر من دير إلى دير في الصحراء مختبئًا عن أعين الرومان؛ أقول: لما بلغ خبرُ مجيء عمرو بن العاص الأنبا بنيامين كتب إلى القبط يُنَبِّئُهم أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع؛ ويأمرهم بتلقي عمرو بن العاص (أي حسن استقباله).

(١) ابن عبد الحكم، السابق، ص ٢٠٧ عن الليث بن سعد إمام أهل مصر.
(٢) أصحابه أي قومه. وقد كانوا آنئذ يقطعون الصحراء، لذلك قال عمرو: حتى نبلغ أوائل العامر.
(٣) ابن عبد الحكم، السابق، ص ٧٩.
(٤) أي رأس الكنيسة المرقسية الأرثوذكسية = ما يطلقون عليه، بعد ذلك، البطرك أو البطريرك. أو البابا بعد أن تولى رئاستها الأنبا شنودة الثالث.

وأما الرجل الثاني فهو المقوقس، قيرس أو سيروس، الذي أرسل جيشًا من الروم لمواجهة تقدم عمرو بن العاص فالتقى الجمعان عند الفرما[1].

ويزعم بتلر في كتابه (فتح العرب لمصر) أن المقوقس لو أرسل عشرة آلاف جندي من الروم لهزموا عَمْرًا والفئة القليلة الذين كانوا معه بين العريش والفرما، أو تحت حصن الفرما. ويخلص من ذلك إلى أن سيروس كان خائنًا لدولته وأنه بدأ هذه الخيانة بالتواطؤ مع العرب الفاتحين، قال: «ولا نجد غير هذا الرأي ما نفسر به مسلكه...»[2].

وهذا الكلام لا أصل له في أي مصدر عربي، ولو كان صحيحًا لوجدت، ولو إشارة إليه، في المصادر العربية. وليس عجيبًا أن يقول بتلر مثل هذا الكلام لأنه لا يعرف أن المسلمين يستمدون فيضًا هائلا من القوة من مثل قول الله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]، ومن مثل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٥-١٢٦]؛ بل هو يظن أن العنصر البشري، من حيث عدده ومن حيث عدته، هو وحده الذي يحسم المعركة الحربية، وتاريخ حروب المسلمين يقطع بخطأ ذلك الظن.

على كل حال، مضى عمرو بجيشه حتى بلغ الفرما، وقوتل هناك قتالاً شديدًا نحوًا من شهر[3]. وينبغي كي نعرف صمود المسلمين وثباتهم أن نتصور كيف كان القتال: كان الرومان داخل القلعة أو وراء جُدر قرية الفرما، كما وصف سبحانه اليهود

---

(١) مدينة كانت قائمة غرب العريش على نحو ١٥٠كم منها، وكانت من أقدم مواضع الرباط المصرية على حدودها الشرقية، وهي حصن مصر الشرقي في مواجهة المغيرين عليها. وقد اندثرت الآن، وبقيت آثارها فيما يعرف بتل الفرما، بينه وبين ساحل البحر الأبيض المتوسط ثلاثة كم؛ وهي بين الإسماعيلية وبورسعيد على بعد نحو ٢٤ كم شرقي محطة الطينة، على السكك الحديدية بين مصر والعريش.

(٢) ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، تحقيق محمد فريد أبو حديد، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩، ص ١٨٨.

(٣) قال اليعقوبي ثلاثة أشهر والأول أصح.

بقوله: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤]، وكان المسلمون في الصحراء لا تظلهم إلا السماء إما فوق ظهور الخيل والإبل، وإما مشاة على الأرض في ظل ظروف جوية قاسية، في شهر يونيو أي في شدة حر الصحراء، ومع ذلك استطاع المسلمون أن يهزموا الرومان بعد هذا الشهر من القتال المستمر لحامية كانت مستعدة استعدادًا جيدًا للقتال. وما إن تحرر أهل الفرما من وجود عسكر الرومان فيها حتى أصبح القبط، أعوانًا لعمرو وجيشه، كما يقول ابن عبد الحكم[١]. لقد استجاب الأقباط لوصية زعيمهم الديني المضطهد الأنبا بنيامين، فلم يكن عونهم لعمرو بعد هزيمة الرومان في الفرما خوفًا منه أو من جيشه، فهو لم يقاتل القبط أصلا، ولا جاء لقتالهم، إنما كانت معونتهم له من تأثير رسالة أسقفهم الفار بدينه في الصحراء إلى أتباعه في مصر كلها. إن هذا الرجل وأمثاله من زعماء الصدق إذا تكلموا استمع الناس إليهم، وإذا أشاروا أو نصحوا أخذ الناس قولهم مأخذ الأمر الواجب تنفيذه؛ أما الزعماء المرفهون الذين يستحلون لأنفسهم طيب العيش ورغده، ويتركون مواطنيهم يعانون شدته وشظفه، فإن الناس يتخلون عنهم عند أول فرصة، ويتركونهم لمصائرهم عندما تلوح بوادر الهزيمة. الأولون يلتحمون برعيتهم فيكون وفاء الرعية لهم صادقًا، والآخرون ينفصلون عن الرعية فيكون ما يظهره بعضها من الولاء والوفاء نفاقًا وتقية.

وسار عمرو حتى بلغ قرية يقال لها القواصر[٢] فقوتل عندها (عند بلبيس) نحوًا من شهر حتى فتح الله عليه، فسار حتى أتى أم دنين[٣]، وهناك وجد عمرو قتالا من الروم أشد مما لقيه في الفرما وبلبيس، وأبطأ عليه الفتح فكتب إلى عمر بن الخطاب يستمده، فأمده بأربعة آلاف، فأصبح عدد جيشه ثمانية آلاف مقاتل هم الذين استكمل بهم فتح مصر.

---

(١) المصدر السابق، ص ٨٠.

(٢) من أعمال مركز فاقوس قبل بلبيس، ويسميها عبد العزيز جمال الدين (الصالحية=القصاصين)، تاريخ مصر من القرن الأول حتى نهاية القرن العشرين، المطبوع على هامش: تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠٠٦، ج١ ص ٥٧٥.

(٣) وهي اليوم من أجزاء مدينة القاهرة.

لقد كان هدف عمرو في مصر هو مدينة الإسكندرية، عاصمة الروم بها، وهو قد زارها في الجاهلية وحضر فيها عيدًا من أعياد القبط[1].

ولذلك لم يكن خافيًا على عمرو، ولا غائبًا عنه، أن حكم الرومان لا يزول تمامًا عن مصر إلا إذا خرجوا من الإسكندرية، وأمنت البلاد عودتهم إليها من طريق البحر.

وكان أمام عمرٍو خياران: أن يخترق الدلتا بزروعها وأرضها الخصبة، التي يغطيها الفيضان أحيانًا، أو أن يدور من حولها، من جنوبها إلى غربها ويمضي في الصحراء حتى يصل إلى الإسكندرية.

وكان الخيار الثاني هو الأنسب للجندي العربي ولدواب الجيش، فالجند ودوابهم يعرفون الصحراء ويألفون السير فيها، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن هناك حصونًا للروم لابد من فتحها والسيطرة عليها قبل الوصول إلى الموقعة الفاصلة التي لابد أن تكون في الإسكندرية.

ولذلك كان أول أهداف عمرو بن العاص هو حصن بابليون الحصين الذي كان يقع فيما يعرف الآن باسم (مصر القديمة).

* * *

(١) ابن عبد الحكم، السابق، ص ٧٤؛ وراجع: أحمد عادل كمال، السابق، ص١٧٦.

(٥)

واحدٌ بألف

في كتاب تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع، أسقف الأشمونين[١] أن عمرو بن العاص «كان محبًا للبرية فأخذوا الخيل للجبل حتى وصلوا إلى قصر مبني بالحجارة بين الصعيد والريف يسمّى بابليون فضربوا خيامهم هناك حتى ترتبوا لمقاتلة الروم ومحاربتهم»[٢].

عندما وصل عمرو بن العاص إلى حصن بابليون، الذي كان يقع فيما يعرف اليوم بمصر القديمة، وجده غاصًا بأعظم أبطال الروم وأجنادهم، فنزل أمامه بعسكره وحاصره وضيَّق على من فيه، واستمر الحصار سبعة أشهر[٣]. كان الحصن إذن مستعدًا لقتال جيش المسلمين بقواد الروم الكبار، وجنودهم المدربين، وليس كما يقول بعض من يريدون التهوين من فتح المسلمين له إنه كان خاليًا إلا من بعض الأقباط الهاربين من الريف. ولو كان هذا القول صحيحًا ما كان الحصن يقتضي من عمرو وجيشه حصار سبعة أشهر، وما كان جنود عمرو يعجزون عن فتحه حتى يأتيهم المدد من المدينة.

---

(١) أصبح اسمها أسيوط منذ سنة ١٨٢٦. وكتابه مطبوع بعناية عبد العزيز جمال الدين باعتباره متنًا لكتاب ساويرس بن المقفع السابقة الإشارة إليه، وكل إحالة ترد إلى ساويرس بن المقفع، أو تاريخ البطاركة، فهي إلى هذا النص.

(٢) ساويرس بن المقفع، تاريخ البطاركة، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠٠٦، ج١ ص ٥٧٨. وفي بعض نسخه يأتي ذكر أن العرب كانت أمة محبة للبرية...، راجع: أحمد عادل كمال، السابق، ص٢٦٥.

(٣) يعقوب نخلة روفيلة، تاريخ الأمة القبطية، ط٢، مطبعة متروبول، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٤٠.

كان الحصن على مرتفع من الأرض، وكان يطل على نهر النيل. وكان الروم قد حفروا خندقًا حول الحصن وجعلوا فيه قطع الحديد، أو سكك الحديد، كما جعلوها أمام أبواب الحصن لتكون موانع أمام الخيل وأمام المشاة من الجند. كان القصد من وضع قطع الحديد في الخندق حول الحصن أنه إذا غامر فارس أو راجل فأراد عبور الخندق أو اقتحام باب من الأبواب جرحته، أو جرحت فرسه، هذه القطع الحديدية فمنعته من تحقيق هدفه.

وكان جيش عمرو قليل الجند (نحو أربعة آلاف) فكان يقسم أصحابه ليوهم الروم أن جنده أكثر عددًا مما هم عليه في الحقيقة، فلما بلغ الخندق ذات يوم نادى عليه الروم فقالوا: إنا قد رأينا ما صنعت، وإنما معك من أصحابك كذا وكذا، فلَم يخطئوا العدد الصحيح[1]. لم يرُدَّ عمرو بن العاص على هذا القول، وظل يكرر صنيعه نفسه كل يوم ليبدو للروم كما لو كان المسلمون على أهبة عبور الخندق في أية لحظة.

فأقام عمرو على ذلك زمنًا، يقاتل الروم قتالاً شديدًا، يغدو في السحر فيصفُّ طائفةً من أصحابه عليهم السلاح على أفواه الخندق ويقاتل بالآخرين الفصائل الرومية التي تخرج من الحصن للقتال. ولم يستطع الروم أن يردوا عَمْرًا وجيشه عن محاصرة الحصن، ولم يستطع عمرو وجنوده أن يحرزوا نصرًا حاسمًا على الروم فيقتحموا الحصن ويلحقوا بمن فيه هزيمة كاملة[2]. يقول أحمد عادل كمال: «وهذا يعني أن المسلمين كانوا يتفوقون في تلك الاشتباكات الجزئية وإلا لأزاحهم الروم عن حصنهم»[3].

كان عمرو بن العاص قد كتب في أثناء حصار أم دنين إلى الخليفة عمر بن الخطاب ـ كما أشرنا من قبل ـ يستعجل المدد الذي وعده عمر به عندما خرج من الشام إلى مصر، فأمده عمر بأربعة آلاف مقاتل جعل على كل ألف منهم قائدًا عيَّنَهُ بنفسه وكتب إلى عمرو: «إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألفٍ منهم رجلٌ بمقامِ الألف:

(١) ابن عبد الحكم، السابق، ص٨٣؛ وأحمد عادل كمال، السابق، ص ٢٧٦.
(٢) ابن عبد الحكم، الموضع نفسه.
(٣) أحمد عادل كمال، الموضع نفسه.

الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، عبادة بن الصامت، ومَسْلَمَةُ بن مُخَلَّد (وقيل بل خارجة بن حذافة العدوي)، فاعلم أن معك اثني عشر ألفًا ولا يغلب اثنا عشر ألفًا من قلة»(١).

ونحن في هذا الزمان نحتاج إلى الرجل بمائة، والرجل بعشرة، والرجل بخمسة، بل لعلنا نحتاج إلى الرجل تتمثل فيه معاني الرجولة الحقة، والشجاعة الفاعلة، والإقدام بلا تَهَيُّب، كما كان كل جندي من جنود المسلمين في ذلك الزمان. ولن نبلغ من ذلك شيئًا حتى نربي الأبناء والبنات على هذه المعاني السامية، فكلما نجحنا في غرسها فيهم كلما أدركنا ما نريد، وبقدر ما نخفق في ذلك بقدر بما نبتعد عن الوصف الذي نستحقه بقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ [آل عمران: ١١٠]. إن هذا الدرس المستفاد من كون رجل بألف مما ينبغي أن يذكر فلا ينسى، ويعمل من أجل الوصول إليه، في كل جيل من أجيال المسلمين، فلا يهمل.

قال الإمام الليث بن سعد، إمام أهل مصر: «بلغني عن كسرى أنه كان له رجال إذا بعث أحدهم في جيش وَضَعَ (أي أنقص) من عدة الجيش ألفًا مكانه، لإجزاء ذلك الرجل في الحرب، وإذا احتاج إلى أحدهم فكان في جيشٍ فحبسه (أي منعه من الخروج مع الجيش) لحاجته إليه، زادهم ألف رجل». قال الليث: «فأنزلت الذي صنع عمر بن الخطاب.... نحو ما كان يصنع كسرى»(٢).

فكان الجيش الذي فتح مصر ثمانية آلاف رجل معدودين على أنهم اثني عشر ألفًا، لمكان هؤلاء الأربعة: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومَسْلَمة بن مُخَلَّد (أو خارجة بن حذافة العدوي).

ولكن روايات أخرى تقول إن عمر بن الخطاب أرسل الزبير في اثني عشر ألفًا

---

(١) ابن عبد الحكم، الموضع السابق؛ أحمد عادل كمال، الموضع السابق، ص ٢٧٧. وعبارة «ولا يغلب اثنا عشر ألفًا من قلة» جزء من حديث مروي عن النبي ﷺ في مسند أحمد وغيره عن عبد الله بن عباس، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في رواية المسند: رجاله ثقات رجال الشيخين وقد اختلف في وصله وإرساله. مسند أحمد، ط مؤسسة الرسالة، تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط، ح (٢٦٨٢).

(٢) ابن عبد الحكم، الموضع السابق، أحمد عادل كمال، الموضع السابق.

وصلوا على دفعات، فشهد الزبير الفتح مع عمرو بن العاص. وتقول الروايات المسندة إن الزبير بن العوام كان يستعد للحاق بجيش المسلمين في أنطاكية، فقال له عمر بن الخطاب: «يا أبا عبد الله هل لك في ولاية مصر؟» قال الزبير: «لا حاجة لي فيها، ولكني أخرج مجاهدًا، وللمسلمين معاونًا، فإن وجدت عَمْرًا قد فتحها لم أعرض لعمله، وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به. وإن وجدته في جهاد كنت معه» فسار من المدينة على ذلك[1].

والزبير بن العوام كان يلقب بحواريِّ رسول الله ﷺ، وهو صحابي جليل، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان على ميمنة رسول الله ﷺ يوم بدر على فرس وله سبع عشرة سنة، وكان على الميسرة على فرس آخر المقداد بن الأسود[2].

ولما قدم الزبير بن العوام في المدد الذي بعثه عمر بن الخطاب إلى مصر، لم يلبث إلا يسيرًا حتى ركب وطاف بالخندق، ثم فرَّقَ الرجال حوله، فأصبح الروم فوجدوا الجنود حول الخندق أضعاف ما كانوا يعرفونه قبل أن يأتيَ المدد، ومع ذلك فقد بقي المسلمون أيامًا على خطة عمرو بن العاص الأصلية: يصفّون الرجال في السحر ويقاتلون في النهار من يخرج من الروم من الحصن، ولا مراء في أن عيون الروم قد شاهدوا معسكر المسلمين يعمل، كخلية النحل، بدأب ونظام: فهم يعدون نبالهم وحرابهم وسهامهم، ويحدُّون سيوفهم بعد الرحلة الطويلة في الصحراء، ويعالجون إبلهم وخيولهم ترقبًا ليوم اللقاء مع جند الروم. ومن الملاحظ في حوادث هذه المرحلة من مراحل الفتح أن عمرو بن العاص قد استجاب استجابة كاملة إلى مقترحات الزبير بن العوام العسكرية دون أن يجادله أو يشعر أن في شيء مما يعمله الزبير منافسة له أو منازعة في قيادته، إذ كان الأمر أمر مواجهة وشيكة مع العدو لا تحتمل إلا قبول أحسن الرأيين[3].

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، مؤسسة المعارف، بيروت ١٩٨٧، ص ٢٥٠.

(٢) ترجمة الزبير بن العوام في أسد الغابة رقم ١٧٣٢ ج ٢، وسير أعلام النبلاء رقم ٤١ ج١، وغيرهما من كتب تراجم الصحابة، وستأتي ترجمته بصورة أوفى فيما بعد، كما ستأتي ترجمة المقداد بن الأسود.

(٣) يقف قارئ التاريخ أمام هذا الموقف من عمرو في فتح مصر ليقارن بينه وبين موقفه في غزوة ذات السلاسل عندما أمده رسول الله ﷺ بمدد فيه أبو بكر وعمر ونفر من المهاجرين الأولين، ويقوده أبو عبيدة بن الجراح،

وجاء خارجة بن حذافة العدوي إلى عمرو بن العاص ذات يوم وقال له: «اندب معي خيلا حتى آتيهم من ورائهم عند القتال» فأخرج معه عمرو خمسمائة فارس فساروا من وراء الجبل قبيل الصبح، فلما خرج الروم ـ كما تعودوا كل يوم ـ ليقاتلوا الجنود المنتشرين حول الخندق، خرجت هذه الخيل، وعليها خارجة بن حذافة، ففاجأت الروم من ورائهم فانهزموا ورجعوا فارين إلى الحصن[1].

وكان جيش المسلمين قد أحاط بالحصن من جهتين هما: الشمال الشرقي والجنوب الشرقي، وكان الحصن من جهة الغرب يطل على النيل فكان الزبير بمن معه من الجند في شمال الحصن وشماله الشرقي، وكان عمرو بن العاص في جنوب الحصن وجنوبه الشرقي. فلما طالت أيام الحصار، والقتال غير الحاسم للموقف قال الزبير لعمرو: «إني أهب نفسي لله تعالى، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين» فصنع سلمًا ووضعه إلى جانب الحصن وصعِدَ عليه، وأمر المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا؛ ونصب شُرَحبيل بن حُجَيَّةَ المرادي سلمًا من الناحية الأخرى[2] (قطاع عمرو بن العاص) وارتقى الرجلان حتى كانا فوق الحصن معًا فكبَّر الزبير، وكبَّر المسلمون بتكبيره، وكان الزبير فدائيًا لا يهاب شيئًا، وهو ـ قطعًا ـ لم يكن يدري ما كان سيجده فوق الحصن، ولا خلف سوره العتيد. وقد فوجئ الروم بصعود الزبير وشُرَحبيل بن حُجَية إلى سطح الحصن، وتسارع المسلمون خلفهما حتى نهاهم عمرو مخافة أن يكسروا السلم (أو السُّلَّمين).

ونزل الرجلان ومن معهما من المسلمين الذين تبعوهما إلى داخل الحصن، وأصاب

فأبى عمرو إلا أن يكون أمير الجميع بمن فيهم أبو عبيدة نفسه الذي سلم له بذلك كراهة الاختلاف بينهما؛ أسد الغابة، السابق، ج٤ ص٢٤٥. إن ذات السلاسل لم يكن فيها قتال مع عدوٍ، ولا معاناة حصارٍ طويلٍ، فساغ هناك الحرص على الإمارة والانفراد بها؛ لكن حصن بابليون كان قتالا حقيقيا أعقب حصارا طويلًا لا بد أنه أرهق جيش المسلمين فكان التعاون كاملًا بين عمرو وبين قائد المدد الذي جاءَهُ من المدينة.

(١) أشار يوحنا النقيوسي إلى هذه الواقعة لكنه خلط في مكانها فجعلها في هليوبوليس، وقد علق على ذلك منتقدًا خلط يوحنا المترجم الفرنسي الذي ترجم كتابه من الحبشية إلى الفرنسية، تاريخ يوحنا النقيوسي، ط القمص بيشوي عبد المسيح، ص ٢٠٧؛ وط عمر صابر عبد الجليل، ص ١٩٣.

(٢) ليس فيما بين أيدينا من الروايات ما يذكر إن كان الرجلان قد اتفقا على ذلك، وهو ما نظنه، أم أن كل واحد منهما صنعه من تلقاء نفسه، وهو بعيد، لاتفاقهما في يوم الصعود على السلم، إلى ظَهْرِ الحصن، ووقْتِه؛ وراجع ابن عبد الحكم، السابق، ص ٨٥ ـ ٨٦.

الروم الرعب من هول المفاجأة، فهربوا من أمام المسلمين وعمد الزبير إلى باب من أبواب الحصن مغلقٍ من الداخل، ففتحه واقتحم المسلمون الحصن من الخارج، وسرعان ما أصبح حصن بابليون، وهو أحصن ما كان بيد الروم في قلب مصر، تحت سيطرة المسلمين. وأظهر سقوطُ الحصنِ بهذه الطريقة حرج الموقف العسكري للروم أمام جيش الفتح.

* * *

كان المقوقس ميالاً إلى مصالحة عمرو بن العاص، وقد جرت الرسل بينهما، وكان رسل عمرٍو يعرضون إحدى ثلاث خصال: الإسلام، أو الجزية، أو القتال حتى يفتح الله بين الفريقين.

وكان المقوقس يقول للروم: أما الإسلام فلا تتركوا دينكم، وأما القتال فإن هؤلاء القوم لا يقوم لهم شيء، ولكن اقبلوا تركهم ينتشرون في الأرض وأدوا إليهم الجزية. فأبى الروم ذلك. وكان فتح الحصن قاصمة الظهر بالنسبة إلى عسكر الروم، فهربوا من الحصن إلى جزيرة الروضة عبر النيل، وإلى أماكن أخرى، ولم يلبثوا طويل زمان حتى انهزموا في الإسكندرية وقبلوا صلح المنهزم (!)

فلما تم فتح حصن بابليون وهرب من كان فيه من الروم، كتب المقوقس إلى عمرو بن العاص يقول له: «إني لم أزل حريصًا على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت بها إلي، فأبى الروم ذلك، ولم يكن لي أن أفتات عليهم في أموالهم. وقد علموا الآن نصحي لهم، وحبي صلاحهم، ورجعوا إلى قولي، فأعطني أمانًا أجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابي ونفر من أصحابك فإن استقام الأمر بيننا تم ذلك لنا جميعًا، وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه»[1]. فاستشار عمرو أصحابه فقالوا له: «لا نجيبهم إلى شيء من الصلح أو الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الأرض كلها لنا فيئًا وغنيمة كما صار القصر وما فيه»!

فقال عمرو لأصحابه: «قد علمتم ما عهد إلي أمير المؤمنين في عهده، فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث أجبتُهم إليها وقبلتُ منهم»، فسلّم أصحاب عمرو

(١) ابن عبد الحكم، السابق، ص ٩٢؛ وأحمد عادل كمال، السابق، ص ٢٩٩.

لهذا القول طاعة لأمير المؤمنين واتباعًا لعهده إلى قائد الجيش. وكان هذا القول مما فتح الله به على عمرو من الحجة - بدلا من الدخول في جدال غير مجدٍ مع أصحابه - فحفظ به وحدة الجيش ومنع الخلاف في مسألة لو اختلفوا فيها لفت ذلك في عضدهم وفرق رأيهم الذي كان مجتمعًا على قتال الروم. ولا ريب أن هذا من حسن قيادة عمرو وبصره بأمور الحرب وما يجب فيها على القائد نحو حفظ وحدة جنده.

وكذلك كان؛ فقد اجتمع عمرو والمقوقس واصطلحا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران على كل نفس، ممن بلغ الحُلُم، شريفِهم ووضيعِهم، وأنه ليس على الشيخ كبير السن، ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحُلُم، ولا على النساء شيء، وأن للمسلمين على القبط حق الضيافة إذا نزلوا بلادهم وأقصى هذه الضيافة ثلاثة أيام، وأن للقبط أرضهم وأموالهم لا يعرض المسلمون لهم في شيء منها. قَبِل ذلك المقوقس ومن معه عن جميع القبط، وعلق قبول الروم له على موافقة الإمبراطور البيزنطي، فلم يقبله بالنسبة إلى الروم، وأرسل خطابًا ينتقد فيه ما صنعه المقوقس ويأمره، وقادة الروم العسكريين، بقتال المسلمين وأنه ممدهم بما لا يستطيع المسلمون مقاومته من العدد والعدة[1].

فأتى المقوقسُ عمروَ بن العاص وسأله أن يبرم معه اتفاقًا خاصًا يسري على المقوقس فقط دون سائر الروم في مصر. طلب المقوقس من عمرو بن العاص أن يعامله معاملة القبط لا معاملة الروم، فيأخذ منه الجزية على نحو ما يأخذها من القبط. وطلب منه أن يتركه يعيش في مصر إلى آخر عمره. وطلب أن يدفن عند موته في الإسكندرية بجوار قبر رجل يقال له أبو يوحنَّس. قال له عمرو: هذه أهونها عليَّ، أي وافقه عليها؛ أما الطلبان الأولان فشاور عمرو فيهما أصحابه ولباهما له، وعاش الرجل في مصر إلى أن مات ودفن في الإسكندرية حيث أراد.

وبعد أن استقر أمر القاهرة لعمرو بن العاص، كان عليه أن يستكمل الفتح الإسلامي لمصر بالمسير إلى الإسكندرية.

* * *

(١) ابن عبد الحكم، السابق، ص ٩٢-٩٣.

(٦)
الطريق إلى الإسكندرية

بعد أن دان حصن بابليون وما حوله لعمرو بن العاص عزم عمرو على المسير إلى الإسكندرية[١]، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره في ذلك فأمره به[٢]. في هذا الموضع طلب عمرو بن العاص أمرًا من عمر بن الخطاب بالمسير إلى الإسكندرية لكنه عندما كان يرغب في فتح مصر استأذن في ذلك عمر، ولم يزل به حتى أذن له. والفرق بين طلب الإذن وطلب الأمر أن المرء يستأذن في شيء يريد هو فعله فإذا أُذِن له فإن التبعة عليه إن أخفق، والمجد له إن نجح فيما يريد. أما طلب الأمر فيقدم عليه المرء في الأمور الجليلة الخطيرة، فإذا وُفِّق ونجح فهو ومن أَمَرَهُ شركاءُ في المجد، وإن كانت الأخرى فالوزر على الآمر لا على طالب الأمر. وقد كان من ذكاء عمرو، وهو يعلم ما الإسكندرية وكيفية تحصينها، ويقدر تقديرًا صحيحًا ما سيلقاه من الروم بها، أن يطلب من عمر أمرًا يصدره إليه بالمسير إلى الإسكندرية لا مجرد إذنٍ بذلك(!) إنه لولا فتح الإسكندرية لما تمتعت مصر كلها ـ آنئذٍ ـ بالحرية الدينية التي كفلها الإسلام للناس، ولما استطاع أصحاب محمد ﷺ، ومن كان معهم من التابعين، أن يدعوا الناس إلى الإسلام وهم مطمئنون من كيد الروم. وقد كان تحرير مصر من حكم الرومان هدفًا دائمًا لعمرو بن العاص منذ فكر في دخول مصر إلى أن استكمل فتحها كلها.

* * *

---

(١) الكندي، ولاة مصر، ط الذخائر، القاهرة ٢٠٠١، ص ٣٢.

(٢) البلاذري، المرجع السابق، ص ٣٠٩.

جَّهز عمرو من سيخرجون معه إلى الإسكندرية واستخلف على ما تحت يده من الأرض خارجة بن حذافة السَّهْمي(١). ونلاحظ في روايات الفتوح الإسلامية كلها أن المسلمين كانوا يُأمِّرون على الجيوش، ويولون على البلدان، عند الحاجة إلى ذلك، أصحاب النبي ﷺ. لأن إيمان المسلمين بفضيلة الصحابة وأوَّليتهم كان إيمانًا راسخًا لم تعبث به الأهواء أو الأفكار المستحدثة أو المستوردة، وكان التابعون يعرفون فضل هؤلاء الصحابة وينقادون لهم عن رضاء واقتناع. وهكذا صنع عمرو بن العاص.

أمر عمرو عندما تهيأ للمسير بنقض فسطاطه الذي كان يقيم فيه أمام حصن بابليون، فلما شرعوا في ذلك وجدوا عليه عش يمامة قد باضت فيه، فقال لهم عمرو «لقد تحرمت هذه اليمامة بجوارنا، أقروا الفسطاط حتى تَنْقُضَ (أي يفقس البيض) وتطير فراخها» وأمر باليمامة ألا تهاج في عشها، فتركوه على حاله، ومن هنا سميت الفسطاط فسطاطًا(٢).

ويقول بتلر: «إنا لنتبين في تلك الرواية صورة الحقيقة والصدق، فقد كان الجوار والاعتصام مقدسًا عند المسلمين ولو كان المستجير عدوًا»(٣).

وخرج عمرو بالمسلمين، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعوانًا على ما أرادوا من قتال الروم(٤).

---

(١) البلاذري، الموضع السابق نفسه.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ط. الذخائر، القاهرة ١٩٩٨، ج١ ص١٠٣؛ وأحمد عادل كمال السابق، ص ٣٠٧؛ وكلاهما ينقل عن ابن عبد الحكم ص ١١٥ مقرًا له؛ وكذلك ألفريد بتلر، السابق، ص ٢٤٥.

(٣) ينقل عن ياقوت في معجم البلدان والخبر فيه ج٤ ص ٢٩٩ ومنه نقلنا النص؛ ألفريد بتلر، الموضع السابق نفسه، هامش ٢، وهو بذلك يشير إلى قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة:٦].

(٤) عبارة: (أصلحوا لهم الطرق..... الأسواق)، تحتمل أن يكون المسلمون قد أصلحوا الطرق والجسور وأمّنوا الأسواق للقبط بما تحقق من أمان في المدة التي أقاموها في مصر بعد فتح الحصن، وتحتمل أن يكون القبط هم الذين صنعوا ذلك للمسلمين. ولم أجد في المصادر التي تحت يدي ما يرجح أحد الأمرين، وكنت في كتابي: أيام من رمضان (دار الشروق، ٢٠١٠، ص٤٣) قد ذهبت إلى الأول، وأنا اليوم إلى الثاني أميل! والله أعلم أيّ الأمرين أصح؛ وراجع: السيوطي، حسن المحاضرة، تحقيق علي محمد عمر، ط الخانجي، القاهرة ٢٠٠٧ ص١٠٧.

وسمعت الروم بمسير المسلمين، ومن معهم من القبط إلى الإسكندرية، فتهيأوا للقتال، وطلبوا المدد من القسطنطينية فقدمت عليهم سفن كثيرة تحمل الرجال والعتاد والسلاح[1].

وكان أول لقاء بين جيش المسلمين وجنود الروم عند مدينة يقال لها (ترنوط)[2]، وكان القتال عند ترنوط قتالا خفيفًا هزمت فيه الروم، واستمر المسلمون في مسيرتهم نحو الإسكندرية.

وكان اللقاء الثاني بين الروم والمسلمين عند كوم شَريك[3]، [وهناك] ألجأ الروم شَريك بن سُمَيّ الغطيفي ومن معه من طليعة جيش عمرو بن العاص إلى كوْم (مرتفع عن الأرض) وتكاثروا حوله فلما خشي ألا يصمد لهم بمن معه من الجند أرسل مالك بن ناعمة (أبا ناعمة) الصدفي إلى عمرو ليخبره، وكان لمالك فرس أشقر لا يجارى في سرعته فنزل من الكوم ملتفًا حول الروم، الذين حاولوا إدراكه فلم يستطيعوا، وأتى عَمْرًا فأخبره الخبر، فأقبل عمرو متوجهًا إلى الروم، فلما سمعوا بذلك انصرفوا فرارًا من المواجهة[4]. ومنذئذٍ سمي ذلك الكوم (كوم شَرِيك) ولا يزال يسمى كذلك.

ثم كانت الوقعة الثالثة، في الطريق إلى الإسكندرية، عند مدينة يقال لها (سُلْطَيْس)[5]. وكان القتال في سُلْطَيْس قتالا شديدًا انهزمت الروم في نهايته ولم يستطيعوا الوقوف في وجه جيش المسلمين الذين استمروا يسوقونهم أمامهم حتى بلغوا حصن كريون بعد مسيرة بضعة وعشرين ميلاً (٤٠كم) من سُلْطَيْس، وكان حصن كريون آخر سلسلة

---

(١) المقريزي، السابق، ج١ ص٤٢٢.

(٢) مدينة على الضفة الغربية لفرع رشيد من نهر النيل، في مواجهة مدينة نقيوس التي أصبحت تعرف باسم شبشير، وترنوط شمال غرب مدينة منوف الحالية، ونقيوس/ شبشير في شمالها الشرقي.

(٣) سميت باسم أحد قواد جيش المسلمين الذي كان على رأس القوة التي قاتلت هناك؛ وهي تقع شمال ترنوط.

(٤) المقريزي، السابق، ص ٤٤٣؛ وأحمد عادل كمال، السابق، ص٣٠٨؛ وألفريد بتلر، السابق، ص٢٥٠.

(٥) يسميها بتلر (سنطيس)، قال ياقوت في معجم البلدان، السابق، ج٣ص٢٦٧ رقم ٦٥٣١: من قرى مصر القديمة كان أهلها أعانوا على عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية فسباهم...ثم ردهم عمر بن الخطاب إلى القرية.

الحصون المنيعة بين حصن بابليون ومدينة الإسكندرية[1]. وكان جنود الروم أكثر عددًا من جنود عمرو بن العاص، وأتى إلى الروم المددُ من الإسكندرية ومن سائر المدن التي كانت بيد الروم، وكان على مقدمة جيش المسلمين الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان حامل الراية مولى لعمرو بن العاص اسمه وردان، كان ذا بأس شديد في القتال، فكأن عمرو ولى على أمر القتال في هذه الوقعة أقرب رجلين إليه، ابنه ومولاه(!)

أصيب عبد الله بن عمرو بجراحات كثيرة، فقال لوردان لو تأخرت قليلا نصيب الرَّوْحَ[2] (=نأخذ نَفَسًا) فقال له وردان: تريد الرَّوْحَ ؟ الرَّوْحُ أمامَكَ لا خَلْفَكَ(!) لم يمنع وردان كونه مولىً لأبيه عمرو بن العاص أن يزجره ناصحًا، ويقول له: إن السعة والاستراحة في الإقدام لا في الإحجام، وهذا دليل على شجاعة وردان نفسه. فتقدم عبد الله وقاتل قتال الأبطال الشجعان حتى انجلت المعركة ذلك اليوم وجسده مثخن بالجراح، وأرسل عمرو إليه رسولا يسأل عن حاله، فقال له عبد الله متمثلا بقول عمرو بن الإطنابة[3]:

أقول لها إذا جشأت وجاشت
رويدك تحمدي أو تستريحي

والبيت عند ابن عبد الحكم:

أقول إذا ما جاشت النفس اصبري
فعما قليل تحمدي أو تلامي[4]

فلما بلغ ذلك عَمْرًا قال: هو ابني حقًا(!)

(١) ألفريد بتلر، السابق، ص ٢٥١.
(٢) الرَّوْح الراحة ونسيم الهواء والسعة والاستراحة، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة روح.
(٣) المقريزي، السابق، ص٤٣٣، وابن الإطنابة هو: عمرو بن عامر بن زيد مناة بن عامر الأنصاري، والإطنابة أمه، وهي بنت شهاب بن زبّان من بني القين بن جسر.
(٤) راجع: ص ٩٧.

كان عبد الله بن عمرو بن العاص صحابيًا جليلاً، وكان النبي ﷺ قد أذِن له أن يكتب ما يقول، وعندما نهاه بعض الصحابة عن ذلك قائلين: «إنك تكتب كل ما يقول رسول الله ﷺ، وهو بشر يتكلم في الغضب والرضا، فانظر ماذا تكتب» فأخبر النبي ﷺ بذلك قال عبد الله بن عمرو: «فأومى إلى شفتيه فقال: والذي نفسي بيده ما يخرج مما بينهما إلا حقٌّ»(١). وكان عبد الله بن عمرو من كتبة الوحي، وكان من صناديد أصحاب النبي ﷺ، له بلاء حسن في فتوح الشام ومصر.

* * *

وعندما اشتد القتال عند حصن الكريون صلى عمرو بن العاص بالناس صلاة الخوف، صلى بكل جماعة ركعة وسجدتين. وصلاة الخوف ليست مجرد تخفيف عن المقاتلين بإنقاص ركعة من الصلاة، ولكنها تؤدي مهمتين جليلتين في أثناء القتال، المهمة الأولى: تتجه إلى المصلين أنفسهم فتشعرهم بأن الذي يواجهونه أمر جلل تختصر من أجله الصلاة، وأن أهميته ليست أقل من أهمية الصلاة نفسها، وكفى بذلك عاملاً أساسيًا في رفع الروح المعنوية للمجاهدين؛ المهمة الثانية: أن صلاة الخوف تشعر من يشاهد المسلمين من أعدائهم أنهم قد اتخذوا قرار خوض الحرب بأقصى ما يستطيعون من قوة، إذ ليس في دين الإسلام أمر أهم من الصلاة، فإذا رأى جيش عدوهم أن صلاتهم تُخففُ عليهم من أجل القتال علموا أنهم مستميتون في هذا القتال لا محالة، وليس أفعل من ذلك في إلقاء الرعب من المسلمين في نفوس جيش عدوهم(٢).

حمل المسلمون مرة بعد مرة على جموع الروم، في حصن كريون، ولكن الفتح

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ح (٣٦٠) وقال هذا حديث صحيح الإسناد أصل في نسخ الحديث عن رسول الله ﷺ، ووافقه الذهبي على صحته. الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت ٢٠٠٢، ج١ ص ٢٠٥.

(٢) كانت أول صلاة خوف صلاها المسلمون في الحديبية، وقد كان لهذه الصلاة أثر كبير في مشركي مكة، بل كان أداء النبي ﷺ لصلاة الخوف سبب إسلام خالد بن الوليد ـ رضيَ الله عنه. محمد سليم العوَّا، الحديبية، مكتبة وهبة، القاهرة ٢٠٠٧، ص ٦٠-٦١.

أبطأ عليهم بضعة عشر يومًا[1]. كانت أعداد الروم تفوق أعداد المسلمين بزيادة هائلة، ولكن صبر المسلمين واستماتتهم في القتال مكنتهم من فتح مدينة كريون وحصنها وأجلوا الروم عنها إلى الإسكندرية. وتقول رواية[2] إن من القبط أعدادًا كانت تقاتل مع الروم، ولكن الرواية نفسها تحمل دليل بطلانها، إذ تمضي قائلة: إلا أن القبط في ذلك كانوا يحبون الموادعة[3]. ويستنتج أحمد عادل كمال من هذا النص أن القبط كانوا قد حُشِدوا - إن صح وجودهم - على غير إرادتهم، أو أن من كان منهم مع الروم كانوا مخالفين لإرادة عامة القبط،[4] وهو استنتاج ظاهر الصحة.

* * *

أخذ المسلمون يطاردون الروم حتى وصلوا بهم إلى الإسكندرية، وعليها يومئذٍ حصون لا ترام[5].

يصف بتلر الإسكندرية فيقول: «لابد أن كثيرين ممن كانوا في جيش العرب عند ذلك رأوا أجمل المدائن في فلسطين والشام.... لكن ذلك كله لم يكن شيئًا إذا قيس بعظمة المدينة التي تبدت لهم عند ذاك... فقد كانت الإسكندرية حتى القرن السابع الميلادي أجمل مدائن العالم وأبهاها، فلم تبدع يد البنَّاء قبلها ولا بعدها شيئًا يعدلها اللهم إلا رومة وقرطاجنة[6] القديمتين... وقد بقيت بعد ذلك قرونًا وهي مثار إعجاب من رآها من أهل الأسفار...»[7]. وهذا يقطع بأن المسلمين عندما دخلوا الإسكندرية لم يدمروها، ولم يهدموا مبانيها، ولم يجلوا أهلها عنها، إنما تركوا كل شيء على ما كان عليه حتى بقيت المدينة قرونًا تثير إعجاب زائريها.

---

(١) عند مؤرخي المسلمين: ابن عبد الحكم والمقريزي وغيرهما، أو عشرة أيام عند بتلر وغيره من مؤرخي الفرنجة.

(٢) البلاذري، السابق، ٣٠٩؛ وألفريد بتلر، السابق، ص ٢٤٩.

(٣) البلاذري، الموضع السابق نفسه، ولم يذكر ذلك بتلر.

(٤) أحمد عادل كمال، السابق، ص ٣١٢.

(٥) لا يوصل إلى فتحها.

(٦) في إفريقية التي هي تونس الآن. ويقال إن مدينة تونس كلها بنيت من هدم أحجار قرطاجنة، وبقي من أحجارها ورخامها ما يبني مدينة أخرى أو أكثر.

(٧) ألفريد بتلر، المرجع السابق، ص ٢٥٤.

وكانت حامية المدينة نحوًا من خمسين ألف جندي، وكانت الأقوات وفيرة فيها، إذ هي على البحر، ولم يكن للمسلمين فيه ولا سفينة واحدة تُنْقِصُ من سلطان الروم عليه، وكانت الآلات الحربية بالإسكندرية قوية تحميها من عدوها، وأسوارها منيعة[١]. ولذلك استمر حصار المدينة نحو ثلاثة أشهر[٢]، وكان عمرو يعلم أن عتاد قواته لا يقوى على اقتحام المدينة، لكنه كان واثقًا أن الروم إذا خرجوا إلى أصحابه وناجزوهم القتال فإن أصحابه سيثبتون والروم سينهزمون[٣].

وتحكي كتب التاريخ حكايات لا تصح عما جرى بين المسلمين والروم في أثناء حصار الإسكندرية أعرضنا عن الإشارة إلى شيء منها لأنها وردت بأسانيد لا يُعول عليها. وعندنا أن ذكر ما لا يصح من الوقائع يضر بعلم التاريخ ولا ينفعه.

* * *

والمؤرخون متفقون على أن حصار الإسكندرية دام ثلاثة أشهر، وأن فتحها كان بعد فتح حصن بابليون بتسعة أشهر، فيكون وصول المسلمين إلى الإسكندرية في حدود ١٩ جمادى الآخرة سنة ٢١هـ = ٢٣ مايو ٦٤٢م. ويكون فتح الإسكندرية في نحو ١٩ رمضان سنة ٢١هـ = ١٩ أغسطس ٦٤٢م. وهذا هو الذي قاله خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ)[٤].

عندما طال الحصار على الإسكندرية أرسل حاكمها إلى عمرو بن العاص يسأله الصلح والمهادنة إلى مدة فأبى عمرو ذلك[٥]، وكان مع المسلمين رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة.

وكان عمرو بن العاص قد أقبل على الإسكندرية من جهة يقول لها المؤرخون (الحلوة)

---

(١) ألفريد بتلر، السابق، ص ٢٥٥.

(٢) أحمد عادل كمال، السابق، ص ٣١٣.

(٣) ألفريد بتلر، السابق، ص ٢٥٧.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط، ط المجمع العلمي العراقي بتحقيق أكرم ضياء العمري، النجف الأشرف ١٩٦٧، ج١ ص ١٢٣؛ وخليفة ابن خياط ممن روى لهم البخاري في صحيحه.

(٥) البلاذري، السابق، ص ٣٠٩.

الراجح أنها كانت بشرق الإسكندرية في الحيّ المسمى الآن سيدي جابر/ اسبورتنج[١]، ومن هناك بدأ عمرو حصاره لها لكنه كان حصارًا غير مجدٍ، وتبين لعمرو أن دخول المدينة من هذه الجهة غير ممكن، لذلك تحول إلى المكس بغرب الإسكندرية (=المقس)، وهناك خرجت عليهم خيل من خيل الروم وقاتلوهم فقتل يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلاً، وكانت سفن الروم تأتيهم بالمدد والمؤن والعتاد من قسطنطينية، وكان ملك الروم يقول: «لئن ظهرت العرب على الإسكندرية، إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم، لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية، وكان عيد الروم حين غلب المسلمون على الشام يقام بالإسكندرية، وقال الملك: لئن غلبونا على الإسكندرية هلكت الروم وانقطع ملكها. فأمر بتجهيز قوات يخرج هو على رأسها ليباشر القتال بنفسه، ولكنه مات في أثناء ذلك ورجعت جموع كثيرة، ممن كانوا قد توجهوا للإسكندرية من الروم، إلى القسطنطينية[٢].

* * *

وقد استبطأ عمر بن الخطاب ـ رضيَ الله عنه ـ فتح الإسكندرية فكتب إلى عمرو بن العاص كتابًا جاء فيه: «أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر (= الإسكندرية = استكمال الفتح).... وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوُّكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم بمقام ألف رجل على ما كنت أعرفُ إلا أن يكونوا غيَّرهُم ما غيَّر غيرهم. فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال من يوم الجمعة فإنها ساعة تَنَزُّل الرحمة ووقت الإجابة»[٣].

والرجال الأربعة هم: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومَسلمَة بن مُخَلَّد[٤]، كما ذكرنا من قبل.

---

(١) هذا هو ما يرجحه أحمد عادل كمال، السابق، ص ٣١٦.

(٢) المقريزي، السابق، ص ٤٤٤؛ وابن إياس، السابق، ص ٩٩؛ ويوحنا النقيوسي، ط بيشوي عبد المسيح، ص ٢٠٣.

(٣) ابن عبد الحكم، السابق، ص ١٠٢؛ المقريزي، السابق، ص ٤٤٦؛ أحمد عادل كمال، ص ٣٢٠.

(٤) ولا يصح أن يذكر هنا خارجة بن حذافة، كما أشرنا إلى ذلك سابقًا، لأن الثابت أن عمرو بن العاص ولاه على ما كان تحت يده من أرض مصر عند مسيره إلى الإسكندرية، فهو لم يشهد فتح الإسكندرية أصلا.

فجمع عمرو الناس وقرأ عليهم كتاب عمر، ودعا أولئك النفر الأربعة فقدمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ثم يرغبوا إلى الله ويسألوه النصر، ففعلوا، ففتح الله عليهم، وسقطت الإسكندرية في أيدي المسلمين.

قبل بدء القتال استشار عمرو مَسْلَمة بن مُخلَّد فيما يفعل، فدار بينهما الحوار التالي:

قال عمرو: إني رأيت أن هذا الأمر لا يُصْلِحُ آخره إلا من أَصْلَحَ أوله، قال مسلمة: تعني الأنصار؟ قال عمرو: نعم. قال مَسْلَمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ فتعقد له على الناس (أي تجعله قائدًا لهذه المعركة) فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك. قال له عمرو: ومن ذلك؟ قال مَسْلَمة: عبادة بن الصامت.

فدعاه عمرو، وعقد له اللواء وولاه قتال الروم، فتقدم وصافَّ الروم، وقاتلهم قتالا شديدا ففتح الله على المسلمين(١). ومن العجيب أن كتب التاريخ العربية والأجنبية لا تقص علينا شيئًا من تفاصيل المعركة التي قادها عبادة بن الصامت وانتهت بسقوط الإسكندرية، ولم يذكر أي كتاب مما رجعنا إليه كيف كانت (صدمة الرجل الواحد) التي لابد أن يكون قد نتج عنها شهداء، ولابد أن يكون قد قُتِل فيها بعض قواد الروم، كل ذلك لا نعرفه، كأن المؤرخين وقفوا عند الأمر المهم وهو استكمال فتح مصر بفتح الإسكندرية. اهتموا بالفتح نفسه ولم يهتموا بعنصريه: الفاتحين المنتصرين، والمحتلين المنهزمين(!!)

* * *

أراد عمرو بن العاص إرسال معاوية بن حُدَيْج إلى عمر بن الخطاب يبشره بفتح الإسكندرية، فقال له معاوية: ألا تكتب لي كتابًا لأمير المؤمنين؟ قال عمرو: وما حاجتك إلى الكتاب ألست امرؤًا عربيًا حضرت وشاهدت، وتعرف كيف تصف ما كان(٢)؟!

وصل معاوية إلى المدينة وقت الظهيرة، وفيه ينام الناس نومة القيلولة، فدخل

---

(١) ابن عبد الحكم، السابق، ص ١٠٣.

(٢) ابن عبد الحكم، السابق، ص ١٠٥

المسجد وقعد فيه، فرأته جارية فسألته من هو فأخبرها، فأتت عمر بن الخطاب، وأخبرته بقدوم رسول من عند عمرو بن العاص، فدعاه وعرف منه الخبر، فأمر أن يؤذن في الناس أن الصلاة جامعة، فاجتمع أهل المدينة في المسجد وأخذ عمر بيد معاوية بن حديج وقال: له أخبر المسلمين بما أخبرتني به. فقص عليهم معاوية ما كان قد قاله لعمر من قبل.

دعا عمر بن الخطاب معاوية بن حديج إلى الغداء معه. يقول معاوية: فقال لجاريته هاتِ الطعام، فجاءت بطبق فيه زيت وخل وطبق فيه كِسر خبز، قال معاوية: فأكلت على استحياء، فجعل عمر يقول له: كُل إن المسافر يحتاج إلى الأكل! فلو كنت آكلا لأكلت معك، قال معاوية: قلت له: الحمد لله، فنادى جاريته وقال لها: هل من تمر؟ فأتت بتمر في طبق، فقال عمر: كُل، قال معاوية: فأكلت على استحياء. ثم سأل عمر معاوية: ما قلت يا معاوية حين أتيتَ المسجد؟ قال: قلتُ أميرُ المؤمنين قائل (أي نائم). قال عمر: بئس ما ظننت (!) لئن نمتُ النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمتُ الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية[1]؟!

* * *

وأراد عمرو أن يتخذ الإسكندرية مقرًا له، إذ رأى مساكنها فأعجبته، وقال لأصحابه: هذه مساكن كفيناها! فكتب إلى عمر يستأذنه في ذلك، فسأل عمر رسول عمروٍ إليه هل يحول بيني وبينكم ماء؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل (المقصود وقت الفيضان في الغالب) فكتب عمر إلى عمرو «إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف» فتحول عمرو إلى الفسطاط[2].

ويقول أحمد عادل كمال: تلك كانت خطة عمر مع جميع عماله، كتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمدائن كسرى، وإلى عامله بالبصرة عُتْبَة بن غَزْوان

(١) ابن عبد الحكم، المرجع السابق، الموضع نفسه.
(٢) ابن عبد الحكم، السابق، ص ١١٥؛ وأحمد عادل كمال، السابق، ص ٣٣٠.

«لا تجعلوا بيني وبينكم ماء، متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى آتيكم فعلت»[1]. فتحول سعد من المدائن إلى الكوفة سنة ١٧هـ، وتحول عتبة من المكان الذي كان فيه فنزل البصرة. وهكذا فعل عمرو بن العاص فنزل الفسطاط(!)

* * *

(١) عُتبة بن غَزوان صحابي جليل من السابقين الأولين، ومن الرماة المعدودين، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان من قادة جيوش الفتوح الإسلامية، وهو الذي اختطَّ مدينة البصرة وأنشأها، توفي سنة ١٧هـ في طريقه من البصرة إلى المدينة، وقيل في طريقه من مكة إلى البصرة راجعًا إليها. راجع: الذهبي، السير، السابق، الترجمة رقم ٦١، ج١ ص٣٠٤؛ وابن الأثير، أسد الغابة، السابق، الترجمة رقم ٣٥٥٠، ج٣ ص ٥٦٥. وستأتي ترجمة سعد بن أبي وقاص.

(٧)

كانت وستظل...

كانت مصر من أقدم عصور التاريخ، بل من قبل التاريخ، عربية. وهي ستظل كذلك، أحبَّ من أحبَّ، وكره من كره، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يذكر المقريزي في كتابه: (البيان والإعراب عمَّن نزل مصر من الأعراب) أسماء أكثر من ثلاثين قبيلة عربية، من القبائل الكبيرة التي لها ذكر في تواريخ العرب، نزلت منها بطون وأفخاذ أرض مصر. ولا يسع هذا النص الموجز، الذي يحاول التأريخ للفتح الإسلامي لمصر، إيراد ما قاله المقريزي ولا تلخيصه. ولكننا نشير إلى قليل مما فيه، مع ضرورة التنبه إلى ما سوف يأتي من أن بعض هذه القبائل كان لها وجود في مصر، ثابت موثق، منذ ما قبل الإسلام بقرون عديدة.

فمما ذكره المقريزي أنه لما تملك مصر عز الدين أيبك التركماني، أول ملوك الترك بديار مصر، أَنِفَتْ عربان مصر من حكمه البلاد لأنه مملوك من جملة المماليك البحرية قد مسه الرق فلا يجوز أن يُوَلَّى الحكم عليهم وهم أحرار عرب يأنفون من الرق، ولا يقبلون أن يحكمهم من كان رقيقًا ولو بعد تحرره أو عتقه. فجمعوا رجالهم، وجعلوا عليهم رجلا من الأشراف ـ ذوي النسب المتصل إلى رسول الله ﷺ ـ وحاربوا الأتراك، فقاتلهم الأتراك وهزموهم، وتفرقت القبائل التي حاربت الترك ـ بعد تلك الواقعة ـ

في نواحي الغربية (أي محافظة الغربية) وهم من الجعافرة ومن طيّ[1]. بعد أن كانوا يقيمون في موضع واحد قطنوا في مناطق كثيرة، وبذلك أصبح العرب أكثر انتشارًا وأظهرَ وجودًا في البلاد مما كانوا عليه قبل هزيمتهم من الترك، وكان في هذا الظهور من الخير للعرب أضعاف ما كان في تجمعهم الأول وتحيزهم في مكان لا يشركهم فيه سواهم[2].

وكان بمصر فرقة من بني عديٍّ، رهطِ أميرِ المؤمنين عمر بن الخطاب، نزلوا بالبرلّس وكانوا هم والكنانيون (عرب كنانة) من ذوي الآثار المذكورة (=المعروفة) في وقعة دمياط[3].

والمقصود بوقعة دمياط المعركة التي خاضها المسلمون لفتحها، وفيها انحاز بعض العرب المتنصرة من أهل البرلس إلى الرومان في دمياط، لكنهم هزموا جميعًا، وفتحت دمياط بنصر حاسم للمسلمين على الرومان ومن والاهم، كما سيأتي.

ومن بطون جُذام العايذ، وهم منتشرون من القاهرة إلى عقبة أيلة[4]، ومن أيلة قدم على النبي ﷺ يوحنّةُ بن رؤبة، والنبيُّ ﷺ في تبوك، وكان يوحنة حاكم أيلة، وأتى النبي ﷺ مندوبًا عن أهلها من النصارى يطلب موادعة النبي ﷺ والمسلمين، فصالحه النبي ﷺ على الجزية دينارًا على كل حالمٍ من الرجال، فكان ذلك ثلاثمئة دينارٍ في السنة فكان عمر بن عبد العزيز لا يزيد عليهم فوق الثلاثمئة دينار شيئًا(!)[5] واستمر هذا مقدار جزيتهم طول العهد الأموي.

---

(١) المقريزي، البيان والإعراب عمن نزل مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، عالم الكتب، القاهرة ١٩٦١، ص ٩ و١٠.

(٢) كان صديقنا المجاهد، المصور السينمائي، محمود حسن خليل (سابو) يقول عندما اضطر الإخوان الأولون إلى الهجرة من بلدهم، والتفرق في البلدان، إن في هذا خيرًا كبيرًا لهم وللإسلام، لأن كل مجموعة، بل كل فرد، منهم سيكون بمثابة النور الجديد حيث يقيم، وبذلك تكسب الدعوة الإسلامية أنصارًا جدًا يقوونها ويحملون رسالتها (!)

(٣) المرجع السابق، ص ١٠.

(٤) العَقَبَةُ: الجبل الطويل يعرض للطريق فيضيقه، ياقوت، معجم البلدان، السابق، ج٤ ص ١٥١ رقم ٨٤٧٥؛ وأَيْلَة مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطئ بحر القلزم (=البحر الأحمر).

(٥) ياقوت، السابق، ج١ ص ٣٤٧ رقم ١١٩٦.

وممن كان بمصر من جذام بنو رداد بن بعجة بن زيد بن مية[1] ومن هؤلاء أهل برهمتوش[2]، ومنهم بطون كثيرة عدّها المقريزي فليرجع إليه[3].

وبالإسكندرية من جُذام ولَخْم جماعة ذوو عدد وشجاعة وإقدام ولهم أيام معلومة وأخبار معروفة ووقائع مشهورة[4]. وهذا مديح لهذه القبائل يتضمن أنها كانت ذات مكانة في المجتمع ظاهرة، ولم يكن أبناؤها مجرد آحاد لا يؤبه لهم.

وببلاد الصعيد عدة قبائل من العرب، ففي بلاد أسوان وما تحتها بنو هلال، وفي بلاد أخميم وما تحتها بَلِيٌّ (من قضاعة)، وفي بلاد منفلوط وأسيوط جهينة، وفي بلاد الأشمونين[5] قريش.

وفي معظم بلاد البهنسا لواتة ومنهم طوائف بالجيزة والمنوفية والبحيرة. وهذا التوزيع للقبائل العربية يؤكد فكرة الانتشار في البلدان التي ذكرتها آنفًا، وبهذا الانتشار كان من نزل منهم ببلد وجد له فيها أقارب يأوي إليهم ويتقوى بهم، وهي مسألة بالغة الأهمية عند العرب.

---

(١) المقريزي، المرجع السابق، ص ١٤.

(٢) برهمتوش قرية من أعمال مركز السنبلاوين جنوب شرق محافظة الدقهلية وهي تبعد عن (دماص)، التابعة لمركز ميت غمر، ٥,٧كم وعدد سكانها ١٣٥٧٦ نسمة سنة ٢٠٠٦، وفي تحقيق عبد المجيد عابدين أن برهمتوش قريتان إحداهما في الشرقية، ص٢١؛ ويذكر محمد رمزي أن برهمتوش التي في الشرقية غير التي في الغربية، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ج١ ص ١٥٧.

(٣) ذكرت عرب برهمتوش خاصة لأنها ينسب إليها أخونا الدكتور حسنين البرهمتوشي أستاذ علم الحاسبات بجامعتي الأزهر بالقاهرة، والملك عبد العزيز بجدة، وقد ساكنته وأسرته أكثر من عشرين سنة فلم نر منهم جميعًا إلا خيرًا.

(٤) المقريزي، السابق، ص ١٧.

(٥) هي أشمون وهي من أعمال مركز ملوي التابع لمحافظة المنيا، ياقوت ج١ ص ٢٣٨ رقم ٧٠٥، وهـ(١) ص٢٣٨. وقد ذكرت في الفصل الخامس أن الأشمونين هي في أسيوط وذلك صحيح إذ كانت أعمال مركز ملوي تابعة لها حتى سنة ١٨٢٦، الذي أنشئت فيه مديرية أسيوط وأصبحت مدينة الأشمونين قاعدة لها أي عاصمة، ثم تغير التقسيم الإداري وبقيت أسيوط محافظة مستقلة واستتبع مركز ملوي لمحافظة المنيا ولا يزال كذلك. محمد رمزي، السابق، ج٤ ص ٥٩-٦٠.

وكانت بَلِيٌّ وجهينة جيرانا بمصر كما هما بالحجاز[١]. وكان في أسيوط طائفة من أولاد إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يعرفون بأولاد الشريف قاسم؛ وكان بالصعيد من قريش بنو طلحة وبنو الزبير وبنو شيبة[٢] وبنو مخزوم وبنو أمية وبنو زهرة وبنو سهم[٣].

وقد مرت الدولة الفاطمية[٤] وبنو أمية بأماكنهم لم يروّع لهم سرب، ولم يكدر لهم شِرْب[٥]. وبالصعيد أيضًا طائفة من الأنصار[٦]، وجماعة من فزارة[٧]، وفي الصعيد بطون كثيرة من لخم[٨].وهكذا نتبين أنه لم تكن في مصر منطقة خالية من البطون والقبائل العربية، من أعلى الصعيد إلى أدنى الدلتا؛ فإن لم يكن هذا دليلا على عروبة مصر فماذا يكون؟!

وفي الفصل الذي كتبه الدكتور عبد المجيد عابدين بعنوان (القبائل العربية في إقليم مصر في العصر الجاهلي)[٩] ملحقًا بكتاب المقريزي: أنه «لا شك أن طريق سيناء كان قنطرة ثابتة ومفتوحة للهجرات العربية منذ القدم. وهذه القنطرة تصل بين بلاد العرب ووادي النيل الخصيب وأن التباين في الثروة والغنى.... منذ فجر التاريخ، كان عاملا مهما لاجتذاب البدو إلى مصر»[١٠]. ولم يستطع حكام مصر على مر التاريخ إغلاق هذه القنطرة، وهم لا يمكنهم إغلاقها حتى الآن، وما أمر الأنفاق بين غزة ومصر، ومحاولات القضاء عليها، عن أحد ببعيد.

وكانت الهجرات الأولى سلمية يؤخذ فيها رأي حاكم مصر، ولا تتم إلا بموافقته،

---

(١) المقريزي، السابق، ص ١٩.
(٢) بنو شيبة هم الأمناء على مفاتيح الكعبة المُشَرَّفة حتى الآن.
(٣) السابق، ص ٢٥.
(٤) أي مرت مدة حكمها مصر كاملة.
(٥) السابق، ص ٢٦.
(٦) السابق، ص ٢٩.
(٧) السابق، ص ٣٠.
(٨) السابق، ص ٣٦.
(٩) هو الباب الثاني من تحقيقه لكتاب البيان والإعراب للمقريزي، السابق.
(١٠) عبد المجيد عابدين، ملحق البيان والإعراب، السابق، ص ٧٧.

وقد كانت هذه الهجرات تحدث باستمرار. وفي مقابر بين حسن صورة تمثل عددًا من البدو يقدمون لفرعون مصر القرابين ليسمح لهم بالسكنى في وادي النيل[1]. وهذه الصور والنقوش على المقابر تقطع بصحة الوقائع التي تصورها.

وسكن مصر أيضًا قبائل من الأنباط، وهم عرب أقحاح، من أهل الجزيرة العربية، وكان منهم من يشارك قريشًا في عبادة آلهتها مثل اللات والعزى. هؤلاء أقاموا دولة مهمة من بلاد الشام إلى بلاد العرب ومن الفرات إلى البحر الأحمر، وكانت التجارة عملهم الأساسي، تليه الصناعة، ولم يكونوا يمارسون الزراعة أصلا لأنهم يرون أنها تفسد القدرة على القتال.

ومنطقة ارتحالهم تبدأ من شمال الحجاز وتمتد شمالا وغربًا إلى برزخ السويس. وقد كانوا سادة طريق التجارة بين الشام وسيناء، وطرق التجارة بين البتراء ودمشق، وبين العريش ودمشق. وامتد نفوذهم إلى معظم مناطق سيناء وأثبتت الكشوف الأثرية ذلك، وعَيَّنَتْ أماكن كثيرة في منطقة سيناء وفي الصحراء الشرقية كانت مراكز لهؤلاء الأنباط. ومن هذه الكشوف الأثرية نقوش وخربشات بلغ عددها (٨٣) تمتد مواضعها من سيناء شمالا وتتجه إلى الجنوب في الصحراء الشرقية حتى تبلغ صعيد مصر الأعلى. وبعض هذه النقوش دال دلالة واضحة على أن أصحابها كانوا صناعًا استقروا في بعض مناطق الصحراء الشرقية. وكان للتجار من عرب الأنباط منازل مستقرة (مستعمرات) ينزل بها القادمون من بلادهم للتجارة في مصر، وكان لهم معابد اكتشفت أطلال بعضها. وامتد نفوذهم إلى معظم مناطق سيناء وحكموا مدخل مصر منها وسيطروا على طرق الخروج من سيناء إلى بادية الشام. وكان القضاء على مملكة الأنباط سنة ١٠٦م على يد الرومان سببًا في توسيع نشاطهم في إفريقية بوجه عام وفي مصر بوجه خاص[2]. بدلاً من أن يكون سببًا في القضاء عليهم. وهذا يذكرنا بانتشار العرب في أرض مصر بعد هزيمتهم من الترك(!)

وقد سكن بعض الأنباط على ضفاف النيل، وفي الصحراء الغربية، وفي شمالي إفريقية.

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٧-٧٨؛ ومقابر بني حسن موجودة بتل العمارنة ٢٠كم جنوب المنيا.
(٢) عبد المجيد عابدين، المرجع السابق، ص ٨١-٨٣.

ووجود النقوش النبطية على الآثار المصرية يدل دلالة واضحة على أنهم لم يكونوا قومًا قليلي الشأن في البلاد، فلو كانوا كذلك ما سمح لهم الفراعنة أن يضعوا رسومهم وكتاباتهم على جدران تلك الآثار بجانب الرسوم الفرعونية نفسها. وقد كان من أسباب مكانة الأنباط في مصر أنهم كانوا هم الذين يجلبون مواد التحنيط ـ عبر المراكز التجارية اليمنية العربية مع الهند ـ إلى مصر، وكان هذا عملا مهمًا جدًا بالنسبة إلى المصريين القدماء، المغرمين بالتحنيط، الذي كانوا يعتبرونه من وسائل تحقيق عقيدتهم في البعث بعد الموت.

* * *

والموطن الذي وفدت منه الهجرات العربية منذ أقدم العصور إلى مصر هو (بادية الشام) التي تقع شمالي صحراء النفود. وقد وفد من هذه المنطقة إلى مصر قبائل من قضاعة وهم أصلا من أعقاب سبأ، من أهل اليمن، ثم انتقلوا إلى الحجاز، ثم إلى بادية الشام في حوالي القرن الأول للميلاد، وأقدم الروايات تفيد أن قضاعة ينتهي نسبها إلى حمير بن سبأ[1]. وهؤلاء القضاعيون سكنوا مصر قبل الفتح الإسلامي لها بنحو ستة قرون، واختلطوا بأهلها الأصليين حتى ذابوا فيهم، واندمجوا بهم، ولم يبق ما يميزهم عن سائر أهل مصر أو يميز هؤلاء عنهم.

والمؤرخان اليونانيّان: استرابو (٦٦ ق.م) وبلينيوس (٧٠ م) يذكران أن العرب تكاثروا في أيامهما على الناحية الغربية من البحر الأحمر حتى شغلوا ما بينه وبين النيل في أعالي الصعيد، وأصبح نصف سكان قفط منهم[2].

ومن أعقاب سبأ القبائل الكهلانية الذين منهم الأزد، والقبائل التي عرفت بالغساسنة[3]. وقد نزل بعض بطون خزاعة ولخم[4] وجذام في الجاهلية إلى مصر، وأقطعهم حاكم مصر

(١) عبد المجيد عابدين، المرجع السابق، ص ٨٥-٨٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٩. وقفط مدينة في محافظة قنا كانت عامرة بالعلماء، ووصف هذين المؤرخين لها بأنها «نصف عربية» موجود في معظم المصادر الأجنبية عن تاريخ مصر في تلك الحقبة.

(٣) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٤) يقول الإمام أبو محمد بن حزم، في جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، ط دار المعارف بمصر ١٩٩٩ ص ٤٢٤: إن دار لخم بين مصر والشام حوالي العريش.

الروماني ولاية تنيس (صان الحجر)[1]. وكانوا برئاسة أبي ثور من بني عامر بن صعصعة من العرب المتنصرة، وقد حاربوا في فتح دمياط ضد المسلمين مع الرومان وأسر أبو ثور هذا وانهزم أصحابه[2]. ومن الجماعات العربية التي استقرت في شرق الدلتا قبل الإسلام قوم يقال لهم (البشموريين) كانت لهم مواقع استطلاع وعيون في أماكن عدة على تخوم الصحراء بين البحيرات الشمالية وأودية جنوب مصر، وقد عاون هؤلاء الجيش الإسلامي في أثناء فتح مصر[3]؛ كانوا عيونًا لعمرو بن العاص مع أنهم لم يكونوا مسلمين، كانوا على وثنيتهم الأولى، لكن رابطة العروبة جعلتهم ينحازون إلى العرب/ المسلمين الفاتحين ضد الرومان المحتلين.

والوجود العربي في مصر يسبق دخول الإسكندر الأكبر (٣٣٢ق.م) إليها، فقد سكنتها آنئذٍ جموع عربية كبيرة من قبائل مَعِين اليمنية وحِمْير والأنباط ومدين[4]. وعثر في الجيزة، وإدفو، وقنا على كتابات معينية بالخط الحسن تشير إلى وجود جالية معينية كبيرة في مصر، وبعض هذه النصوص مؤرخ بسنة ٢٦١ ق.م، الأمر الذي يثبت وجود العرب الجنوبيين (عرب اليمن) في مصر قبل ذلك التاريخ، والبحث الأثري يثبت أيضًا وجود السبأيين في مصر (كما سلف ذكره)[5]، بل كانت هناك قوات من الجنود السبأيين تقوم بحراسة طرق القوافل إلى مصر وبلاد الشام[6]. وثمة خلاف بين المصادر التي رجعنا إليها حول الطريق الذي سلكته تلك القبائل: أهو الصحراء العربية ومنها إلى سيناء، أم هو الطريق البحري من موانئ اليمن على البحر الأحمر إلى موانئ مصر؟ وإلى هذا يميل بعض الباحثين استنادًا إلى أن الحضارة المصرية القديمة تبدأ في الصعيد[7].

وفي عام ٤٧ ق.م التمس يوليوس قيصر من مالك بن عبادة، ملك الأنباط، كتيبة

---

(١) المرجع السابق، ص ٩١.

(٢) المرجع السابق، الموضع نفسه؛ ومصطفى الشريف، عروبة مصر من قبائلها، المطبعة العالمية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٣.

(٣) مصطفى الشريف، المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٤) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، عروبة مصر قبل الإسلام، شركة دار الإشعاع للطباعة، القاهرة ١٩٩٣، ص ١٠٣.

(٥) الغنيمي، السابق، ص ١٠٤.

(٦) الغنيمي، السابق، ص ١٠٥.

(٧) نعوم شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث، دار الكتب بتحقيق دكتور صبري أحمد العدل، ٢٠٠٥، مصورة عن ط ١٩١٦، ص ٦٨٢.

من الفرسان الخيالة لفتح الإسكندرية، وردًا لجميل هذه الكتيبة العربية التي مكَّنَتْه من فتح الإسكندرية، التي كانت مستعصية عليه من قبل، عقدت روما معاهدة مع دولة الأنباط تعهد فيها الرومان بعدم الاعتداء على مملكة الأنباط، وتعهد الأنباط بالعمل لصد الهجوم العنيف من قبائل الصحراء (العربية) على الحدود المصرية[١].

والنقوش النبطية تؤكد وجود السلالات العربية الأصيلة داخل المجتمع المصري القديم منذ ستة قرون قبل الميلاد[٢]. وبالإضافة إلى النقوش التي ترجع إلى سنة ٢٦١ق.م هناك نقوش ترجع إلى عام ٢٦٦ م الأمر الذي يقطع بوجود حياة عربية مستمرة في مصر على مدى نحو خمسة قرون ونصف (!) قبل الميلاد وبعده. وقبل الفتح الإسلامي لمصر بنحو أربعة قرون (!)[٣]

وقد ذابت كثير من البطون النبطية (أو العربية) في المجتمعات التي عاشت فيها، كما حدث في مصر، ولا مراء في تأثير هذا الذوبان على أهل تلك المجتمعات ثقافيًا ولغويًا[٤] في العصر الفرعوني الذي دام ٢٩ قرنًا، فلم تنقطع الصلات العربية المصرية عبر شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية[٥] وقد اختلط الساميون العرب بالمصريين، وتزاوجوا وتصاهروا[٦]. وتعبير علماء التاريخ والاجتماع بـ(الذوبان) يشير إلى أن كلا من طرفيه يعطي الآخر بعض خصائصه فيَنْشَأُ خلق جديد من اختلاط أولئك بهؤلاء. وهذا الخلق الجديد هم سكان مصر في وقت الفتح الإسلامي لها: لا هم جنس غير عربي خالص ولا هم عرب خُلَّص وإنما مصريون تجري في عروقهم دماء مختلطة.

---

(١) الغنيمي، السابق، ص ١٠٩-١١٠. ومن الجدير بالذكر أن روما لم تحفظ للأنباط هذا العهد، ففي سنة ١٠٦م شنت روما الحرب على مملكة الأنباط وقضت عليها واحتلت أراضيها، أو معظمها. وليقل المتأمل: ما أشبه الليلة بالبارحة(!)

(٢) الغنيمي، السابق، ص ١١٢-١١٣.

(٣) راجع: الغنيمي، السابق، ص ١١٤.

(٤) الغنيمي، السابق، ص ١١٦ بتصرف يسير؛ وعبد المجيد عابدين، السابق، ص ٩ و١٠.

(٥) الغنيمي، السابق، ص ١٢٧.

(٦) الغنيمي، السابق، ص ١٢٨.

وفي سنة ٢٤ ق.م حاول الرومان غزو بلاد العرب، فجردوا حملة قوامها عشرة آلاف جندي منهم ألف من النبط، وكان دليل هذه الحملة قائدًا من الأنباط وصل بها إلى نجران فاحتلتها ثم أخذ الدليل النبطي يضلل الحملة حتى قُضِيَ عليها جوعًا وعطشًا في الصحراء دون أن تحقق مبتغاها من الدخول إلى بلاد الحجاز[١]. وكانت هذه المرة هي الأولى والأخيرة التي تحاول فيها الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) أن تغزو جزيرة العرب(!) وغزا جيش تدمر العربية مصر سنة ٢٦٨ وحكمتها ملكتها الزبّاء من سنة ٢٦٨م إلى سنة ٢٧١م[٢].

ويقرر نعوم بك شقير، في تاريخ سيناء، أن رهبانًا من البتراء سكنوا سيناء في صدر النصرانية وأن أبراشية فيران (في سيناء) كانت قبل بناء الدير (دير سانت كاترين) تابعة لأبراشية البتراء[٣]. وهو ينقل عن العلامة أحمد بك كمال[٤] أن اللغة المصرية القديمة واللغة العربية هما من أصل واحد، وأن كثيرًا من ألفاظهما ومبانيهما واحدة[٥].

والعرب البائدة هم سكان مصر وأثيوبيا الأولين سكنوا وادي النيل، قبل التاريخ،

---

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب، دار الكشاف، بيروت ٢٠٠٢، ج ١ ص٧٧. وهو ينقل عن مؤرخ الحملة، الجغرافي اليوناني، سترابو الذي كان صديقًا لقائدها جالوس.

(٢) الغنيمي، السابق، ١٣٥-١٣٦.

(٣) نعوم شقير، تاريخ سينا، السابق، ص ٤٢٦.

(٤) أحمد كمال باشا (بعد ذلك) بن حسن بن أحمد ١٢٦٧-١٣٤١هـ = ١٨٥١-١٩٢٣م، أثري من نوابغ مصر ولد ونشأ وتوفي بالقاهرة كان يجيد العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والتركية والهيروغليفية ويعرف قليلا من القبطية والحبشية(!) أمين متحف القاهرة (المتحف المصري) له كتاب اللالئ الدرية في قواعد اللغة الهيروغليفية، وبغية الطالبين في علوم قدماء المصريين. له ترجمة جيدة في الأعلام للزركلي (خير الدين) ج١ ص ١٩٩ تحت اسم أحمد كمال باشا ومنها استفدت ما تقدم؛ وللأخ الدكتور محمد بهجت قبيسي دراسة موجزة عنه قدمها إلى مكتبة الإسكندرية، مرقونة على الحاسوب وأهداني نسخة منها. وله ترجمة حسنة أيضًا في: على خشيم، آلهة مصر العربية، مجمع اللغة العربية الليبي، ومركز الحضارة العربية، القاهرة، ط الرابعة ٢٠١٠، ص٢١٦ وما يليها. وفي هذا الكتاب (الجزء الثالث) دراسة موسعة عن الصلة بين اللغتين العربية والمصرية القديمة، راجع ص ٦٤٩ ـ ٧٤٣.

(٥) نعوم شقير، السابق، ص ٤٧٥؛ وعبد المجيد عابدين، السابق، ص ٧.

مهاجرين من جزيرة العرب عن طريق سيناء أو بوغاز باب المندب أو كليهما[1]. وهؤلاء العرب البائدة هم أنفسهم الذين تسميهم الدراسات الحديثة الساميين[2].

يقول نعوم شقير: إن سكان مصر الأولين، أجداد القبط االحاليين، هم من أصل عربي قديم «**وهذا هو الفتح العربي الأول لمصر**» وسبب الخلاف في مكان دخولهم أن التمدن المصري القديم بدأ من الصعيد، وقيل من سيناء بسبب النقوش التي وجدت بها للنبط[3].

ثم كان مجيء الهكسوس هو «**الفتح العربي الثاني لمصر**» وقد حكموها نحو ١٥٠ سنة. والظاهر أنهم كانوا من جنس عرب سوريا لأنه في أيامهم عم السلام بين مصر وسوريا ونزح كثير من السوريين إلى مصر[4].

ثم كان الفتح الثالث على يد زنوبيا ملكة تدمر التي ذكرناها آنفًا ٢٦٨-٢٧١م[5].

ثم كان الفتح الرابع، الإسلامي، على يد عمرو بن العاص، وهو موضوع هذه المحاضرات كلها[6].

أما شبه جزيرة سيناء فسكانها الأصليون ساميون، كسكان سوريا، وعرفوا في التوراة بالعمالقة، وفي وثائق دير سانت كاترين أن سكان سيناء في أوائل القرن السادس الميلادي كانوا هم «الأعراب الإسماعيليون»[7]!

ولذلك عندما نقرأ أن: جيش عمرو بن العاص ضم البدو من صحراء سيناء، والصحراء الشرقية، والغساسنة، والأنباط، الذين كانوا في طريقه إلى حصن بابليون[8]؛ وعندما نقرأ عن حصار هليوبوليس أن: «عيون البدو القاطنين بصحراء المنطقة أسرعت

(١) نعوم شقير،السابق، ص ٦٢١.
(٢) عبد المجيد عابدين، السابق، ص ٧.
(٣) نعوم شقير، السابق، ص ٦٨٢.
(٤) المرجع السابق، ص ٦٨٦.
(٥) السابق، ص ٧٢٣.
(٦) المرجع السابق، الموضع نفسه.
(٧) المرجع السابق، ص ١٠٦.
(٨) عبد العزيز جمال الدين، تحقيق تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع، ج١، ص ٥٧٥.

فحملت إلى عمرو ما عزم عليه الروم، فاستطاع أن يوجه جنوده إلى مواضعهم ويعبئهم للقتال»[1]؛ وعندما نقرأ أن جيش المسلمين ضم طائفة من أكبر فرسان العرب، «هذا غير الأعداد الوفيرة من البدو الذين انضموا للجيش العربي منذ دخوله مصر...»[2].

عندما نقرأ هذا وأمثاله، في كتب التاريخ التي كتبها غير مسلمين، أو في كتب التاريخ التي كتبها أشخاص أسماؤهم كأسماء الأفراد المسلمين ولكن روح كتابتهم أشبه شيء بروح كتابة غير المسلمين... فنحن عندئذٍ لا نقرأ عن بدو أو أعراب أو عرب جاءوا من المريخ إنما نقرأ عن عرب وبدو وأعراب من القبائل الكثيرة التي أشرنا إلى بعضها ولم نذكرها كلها... عاشوا في مصر، واستوطنوها، وأصبحوا من أهلها بمرِّ القرون، لا بمجرد مر السنين، واختاروا البادية حول مدنها لأنهم لها أكثر أُلْفَةً، وبأسرارها أعظم دراية، منهم بالحواضر والأراضي المزروعة.. وهذه هي بداوتهم، اختيارية لا فطرية ولا جبلية، ومنها وصفوا بالعربان لا من كونهم من (الأعراب) المذكورين في القرآن الكريم. على أن الأعراب أنفسهم إذا كان منهم من يصدق فيه قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة:٩٨]؛ فإن منهم من يُظِلُّه قول ربنا في الآية التي بعدها مباشرة ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:٩٩] ومنهم من يدخل في قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٢ ـ ١٠٣].

* * *

(١) المرجع نفسه، ص ٥٨٥.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥٨٤.

(٨)

ظلم المحتل.. وعدل الفاتح(٤)

عندما استعصت عقيدة المسيحيين المصريين على محاولات الأباطرة الرومان الذين حاولوا ـ واحدًا بعد آخر ـ فرض العقيدة القائلة بالطبيعتين للسيد المسيح، على المسيحيين المصريين، عيَّنَ هرقل سنة ٦٣١م أسقفًا على الإسكندرية وحاكمًا على مصر يدعى قيرس أو سيروس.

كان المعتاد من قبل أن ترسل الدولة الرومانية الشرقية حاكمًا سياسيًا أو عسكريًا يحكم مصر، وترسل أسقفًا للملكانيين، الذي يتبعون مذهبها في العقيدة المسيحية لتكون له الرئاسة الدينية عليهم. لكن هرقل جمع السلطتين الدينية والسياسية لرجل واحد هو قيرس أو سيروس، وقد مر ذكره معنا من قبل.

ويبدو ـ من قراءة أحداث مرحلة توليه حكم مصر ـ أن هذا الرجل كان ضيق الصدر، فلما وجد أن استمالة الأقباط إلى المذهب الديني الذي تؤيده الإمبراطورية الرومانية الشرقية غير ممكنة، أخذ يضطهدهم اضطهادًا رهيبًا، فنفر منه المسيحيون المصريون الذين أرسل لاسترضائهم، ونفَّر الاضطهاد الذي مارسه على المصريين هؤلاءِ من الولاء للدولة الرومانية[١].

«لقد أزال سيروس بتصرفاته كل ولاء للقسطنطينية، فقد أخذ يتعقب ويطارد أساقفة

(١) هـ. آيدرس بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة وإضافة عبد اللطيف علي، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٣، ص ١٩٤.

الأقباط، والقوميين من الأقباط كان عليهم إما أن يقبلوا معتقده أو يفقدوا حياتهم»[1].

«ولعظم البلاء والضيق والعذاب الذي أنزله المقوقس بالأرثوذكسيين لكي يدخلوا في الأمانة (المذهب) الخلقيدونية، ضل جماعة منهم لا يحصى عددها. قوم بالعذاب، وقوم بالهدايا والتشريف، وقوم بالسؤال والخداع، حتى أن كيروس أسقف نيقوس، وبقطر أسقف الفيوم، وكثيرين منهم خالفوا الأمانة الأرثوذكسية، لأنهم لم يسمعوا وصية الأب المغبوط بنيامين ولم يختفوا كغيرهم، فصادهم بصنارة ضلالته فَضَلُّوا بالمجمع الخلقيدوني»[2].

وقد سبق هذا الاضطهاد، الذي مارسه المقوقس، ولم يستنقذ المصريين منه إلا الفتح الإسلامي سنة ٦٤١/ ٦٢٤هـ، اضطهاد أقسى عانى المصريون منه أشد المعاناة؛ ذلك هو الذي بدأه الإمبراطور الروماني الوثني (دقلديانوس). كانت مصر ولاية رومانية منذ سنة ٣٠ ق.م، وجعل الرومان لليونان واليهود المقيمين في مصر محاكم خاصة بهم تقضي بينهم بقوانين تسري عليهم وحدهم، ولا تطبق قوانين الدولة الرومانية، فكان لليونان ولليهود في مصر تحت الاحتلال الروماني وضع ذوي الامتيازات الأجنبية في مصر تحت الاحتلال البريطاني. أما المصريون، أهل البلد المحتل، فقد طبقت عليهم القوانين الرومانية التي لا يعرفونها ولا يطمئنون إليها. وكانت القوانين الرومانية تسري على المصريين دون سواهم، وكانت محاكماتهم تجري أمام المحاكم الرومانية التي لا تضم أي عنصر مصري في تشكيلها. فأثار هذا التمييز، غير المسوَّغ، بينهم وبين غير المصريين، من اليونان واليهود، غضب المصريين ونقمتهم، لاسيما أن الحاكم الروماني كان مطلق اليد في شأنهم[3]. وكان هذا النوع من التمييز المجحف بالمصريين مستمرًا منذ بدء الاحتلال الروماني سنة ٣٠ ق.م. واقترن به في فترات مختلفة اضطهاد مادي تمثل في الحبس والتعذيب والنفي بسبب الاختلاف العقدي.

لكن الاضطهاد الأكبر للمسيحيين المصريين كان في عهد دقلديانوس الذي حكم

(١) عبد العزيز جمال الدين، تاريخ مصر، السابق، ج١ ص ٣٢٣.
(٢) ساويرس بن المقفع، تاريخ البطاركة، المرجع السابق، ج١ ص ٥٧٢.
(٣) يعقوب نخلة روفيلة، المرجع السابق، ص ٢٣-٢٤؛ عبد العزيز جمال الدين، السابق، ج١ ص٣٢٢.

الإمبراطورية الرومانية منذ سنة ٢٨٤م إلى سنة ٣٠٥م[١]. ولا يتفق المؤرخون المسيحيون المصريون على الواقعة التي أدت إلى هذا الاضطهاد. فعند يوحنا النقيوسي أن الإسكندرية ومصر رفضتا الاعتراف بدقلديانوس امبراطورًا والخضوع لسلطانه[٢]. وعند يعقوب نخلة روفيلة أن الحاكم الروماني لمصر (أخيلاوس) أراد الاستقلال بها، وأن الأقباط انحازوا إليه نظرًا لسوء معاملة الرومان لهم واضطهادهم إياهم[٣]، وعند ساويرس بن المقفع أن دقلديانوس «في السنة التاسعة عشرة من حكمه (=٣٠٣) وصلت كتبه إلى الإسكندرية ومصر [بعبادة الأصنام]...»[٤] فلما أبى القبط أن يتحولوا عن دينهم السماوي إلى عبادة الأوثان كان ذلك سبب بدء الاضطهاد الذي أمر به دقلديانوس.

وأيًا ما كان السبب الذي حرّك دقلديانوس ضد المسيحيين المصريين، فإن إجماع مؤرخي المسيحية المصرية منعقد على أنه أنزل بالمصريين أشد صنوف العذاب وأبشع صوره، حتى إن الكنيسة المصرية جعلت مبدأ تأريخها هو سنة ٢٨٤م (السنة الأولى لولاية دقلديانوس)، وأسمت تأريخها بتأريخ الشهداء، في إشارة إلى الذين ضحوا بحياتهم من أجل إيمانهم في أول المسيحية.

نقرأ في تاريخ ساويرس بن المقفع، المسمى بتاريخ البطاركة، أن دقلديانوس «أنزل البلايا على النصارى، وأخرب كنايس الله، وقتل خلقًا كثيرا بالسيف، وهَرَبَ المؤمنون بالمسيح للبراري والكهوف والمغاير[٥]، فحينئذٍ أقام دقلديانوس حراسًا وحفظةً في كل مكان، من كورة مصر[٦] والصعيد الأعلى، وأمرهم بقتل كل من يجدون من النصارى»[٧].

---

(١) يوحنا النقيوسي، ط عمر صابر عبد الجليل، ص ٩١، وهو يبين المدد التي حكم فيها منفردًا وبالاشتراك مع مكسيمان والقنصلين اللذين يختلف اسماهما في طبعته عن اسميهما في طبعة القمص بيشوي عبد المسيح؛ راجع ص ٦٣ من هذه الطبعة.

(٢) يوحنا النقيوسي، ط القمص بيشوي، ص ٦٣.

(٣) يعقوب نخلة روفيلة، السابق، ص ٢٥.

(٤) ساويرس بن المقفع، السابق، ص ٣٢١.

(٥) أي المغارات، جمع مغارة.

(٦) يقصد المدن، فالكورة هي المدينة.

(٧) ساويرس بن المقفع، السابق، ج١ ص ٣٢١-٣٢٢.

واعتُقِلَ بطرك الإسكندرية الأنبا بطرس وسُجِنَ مقيدًا، وأمر دقلديانوس بقتله، وكان ذلك في قصة طويلة مؤثرة تدل على صبر الأنبا بطرس وشجاعته وإيمانه بدينه[1].

ويكتب يعقوب نخلة روفيلة أن دقلديانوس «حاصر الإسكندرية، وبعد ثمانية أشهر فتحها عَنْوةً واستولى عليها، وحرق المدينة وفتك بأهلها فتكًا ذريعًا، واقتفى أثر أخيلاوس العاصي الذي هرب إلى داخل البلاد فكان دقلديانوس أينما حل يوقع بالنصارى ويقتلهم ويهدم كنائسهم ويخرب معابدهم ويعذب رؤساءهم ويسبي نساءهم وأولادهم»[2].

ولما هاجم دقلديانوس مدينة الإسكندرية وحاصرها فاستعصت عليه بنى قصرًا شرقي المدينة ومكث به زمنًا طويلاً لأنه لم يستطع الاستيلاء على المدينة ... وبعد مرور هذا الزمن خرج بعض أهل المدينة ـ عندما طال حصارها ـ وأروه مدخلا ليدخل منه إليها، «وبتعب كثير ومشقة فتح المدينة، وكان معه جيوش كثيرة لا تحصى... فألقى النار في المدينة وأحرق كل شيء، وتسلَّط عليها. وكان عابد وثنٍ، ومُقرِّبَ القرابين للأرواح النجسة، واضطهد المسيحيين، وكان كالحيوانات المفترسة، وكره كل شيء حسن، وعارض الرب... وقتل القسس والكهنة والرهبان، رجالا ونساءً وأطفالا صغارًا، وأراق الدم بكثرة لا تحصى دون شفقة ورحمة... وكان اضطهاد كل المسيحيين على مدى تسعة عشر عامًا منذ تغلب وحاز النصر على أرض مصر»[3].
وتذكر بعض المصادر أن عدد الذين قتلوا في أثناء اضطهاد دقلديانوس للأقباط بلغ ٨٠٠٠٠٠ نسمة[4].

وبسبب «ما رآه الأقباط من آيات الظلم وقساوة الاضطهادات التي كان يتفنن فيها

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٢٢-٣٦١.
(٢) يعقوب نخلة ورفيلة، السابق، ص ٢٥-٢٦.
(٣) تاريخ يوحنا النقيوسي، ط عمر صابر عبد الجليل ص ٩٢؛ وط القمص بيشوي عبد المسيح، ص ٦٣-٦٤.
(٤) حسين كفافي، المسيحية والإسلام في مصر، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩، ص ٥٢، وهو ينقل عن إبراهيم صبري معوض، تاريخ حياة القديس أثناسيوس، دائرة المعارف القبطية، ص ٩٨. ومهما يكن في الرقم من مبالغة فهو يدل على اضطهاد عظيم.

المضُطهدون أرَّخوا بأول مُلْكِ هذا الإمبراطور العاتي ليكون تذكارًا لأولادهم يعرفون منه أنهم لم يشتروا حريتهم الدينية إلا بدم زكيٍّ ثمين»[١].

وهكذا تصنع الأمة، أو الجماعة التي لا تريد أن يُنسى تاريخها. إن كثيرًا من العرب والمسلمين لا يعرفون التاريخ العربي أو الإسلامي، ولا يذكرون أسماء الشخصيات البارزة ممن صنعوه(!) نعم قد تسمى الشوارع بأسمائهم دون أن يعرف الساكنون في الشارع من هو صاحب هذا الاسم[٢] ومن واجبنا أن نستعيد ذاكرة تاريخنا ونستحضرها، وأن نعلم الأبناء والبنات أهم المواقف فيه، فهذا جزء مهم من العمل في سبيل النهضة العربية الإسلامية المرتقبة.

* * *

لم يتوقف اضطهاد المسيحيين المصريين بعد دقلديانوس، ولا بعد دخول الإمبراطورية الرومانية في المسيحية، ذلك أنه بدأ اضطهاد آخر للمصريين بسبب جديد، هو عقيدتهم المخالفة لعقيدة مسيحيي القسطنطينية في شأن طبيعة المسيح، وبلغ هذا الاضطهاد حدًا وصفه معه المؤرخ القبطي يعقوب نخلة روفيلة بأنه أدى بالأقباط إلى «الدمار والاضمحلال» ونقل روايات وصفها بالمبالغة والمغالاة ـ تقول إن قتلى الأقباط بلغوا في يوم واحد بالإسكندرية «مائتي ألف نفس»[٣].

ولا نبالغ قط إذا قلنا إن الاضطهاد الروماني للمصريين المسيحيين استمر منذ تلك الفترة المبكرة في التاريخ الميلادي حتى القرن السابع الميلادي عندما قدمت طلائع

---

(١) يعقوب نخلة ورفيلة، السابق، ص ٢٥-٢٦.

(٢) بل إن من المفارقات أن في حيّ مدينة نصر بالقاهرة شارع اسمه (شارع أبو داود الظاهري) وليس في التاريخ شخص يحمل هذا الاسم(!) عندنا (أبو داود) المحدث، وعندنا علماء آخرون يحملون هذه الكنية، وعندنا (داود بن علي الظاهري) مؤسس مذهب الظاهرية، فجمع الذي سمى الشارع بينهما واخترع شخصًا لا وجود له(!)

(٣) يعقوب نخلة روفيلة، المصدر السابق، ص ٢٨. وقد صنع الدكتور جودت جبر (مقدِّم الكتاب) حاشية نفى فيها وصف ذلك الاضطهاد بالدمار والاضمحلال مستدلا باستمرار الوجود القبطي حتى الآن. لكن هذا النفي لا يقدح في صدق شعور المؤرخ بالآثار الخطيرة لهذا الاضطهاد.

الفتح الإسلامي لمصر بقيادة عمرو بن العاص. ولم يكن الاضطهاد كله على ضرب واحد من التعذيب والقتل وما إليهما، بل إنه تنوع إلى ضروب عدة لكنه بقي اضطهادًا على كل حال[١].

* * *

وإذ كان هذا هو حال المصريين تحت حكم الرومان، عدَّة قرون قبل الفتح الإسلامي لمصر، فإنه ليس غريبًا، ولا يجوز أن يزعم زاعمٌ أنه أمر مستنكر - كما يزعم بتلر - أن يكون القبط عونًا للمسلمين على فتح مصر، منذ بداية مسيرة ذلك الفتح، عملا بكتاب بنيامين إلى قبط مصر الذي أخبرهم فيه بانقطاع مُلْك الروم، وأمرهم بتلقي عمرو بن العاص فامتثلوا لرأيه، حتى لقد نقل لنا التاريخ عبارات مثل: «فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذٍ لعمرو أعوانًا»[٢]. و«وخرج عمرو بن العاص... وخرج معه جماعة من رؤساء القبط... وصارت لهم القبط أعوانًا على ما أرادوا من قتال الروم»[٣]. ولما تحصن الروم بالإسكندرية وحاصرهم جيش المسلمين كان «معهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة»[٤].

وفي أثناء الفتح «أخذ الناس يساعدون المسلمين»[٥]. و«وكان هناك انشقاق كبير

(١) يعقوب نخلة روفيلة، السابق، ص ٣٦ حيث يشير إلى طرد القبط من جميع الوظائف الحكومية قصدًا إلى إذلالهم. وهكذا يصنع الظالمون أبدًا: يجعلون مفاتح الأرزاق بأيديهم ليخضعوا الرعية لهم(!)

(٢) ابن عبد الحكم، السابق، ص ٨٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٦، والرواية هنا عن مسير عمرو لفتح الإسكندرية.

(٤) المرجع السابق، ص ٩٧؛ والعلوفة طعام الخيل والإبل ونحوهما.

(٥) عبد العزيز جمال الدين، السابق، ص ٥٩١؛ وهو يحيل إلى ديوان حنا النقيوسي، وينقل العبارة نفسها، عن المصدر نفسه، أحمد عادل كمال، ص١٤٨ لكن الموضع الذي يشيران إليه من كتاب يوحنا النقيوسي لا يشير إلى (الناس) بهذا العموم، ولكنه يشير إلى الحكام، ويبدو أنهم حكام القرى والمدن الصغيرة التي كانت بين بابليون والإسكندرية، كما في ترجمة القمص بيشوي عبد المسيح ص ٢٠٩. وفي ص ٢١٠ يقول إن فيلق الشرطة كلها رفضت محاربة المسلمين. وفي طبعة عمر صابر عبد الجليل يذكر أن جميع الميلشيات المسلحة أبت محاربة المسلمين، ص ١٩٧.

يسود الوجه البحري وكانوا منقسمين إلى فريقين: أحدهما مع ثيودور (قائد الرومان) والآخر يريد الانضمام إلى المسلمين وفي الحال نهض قسم على آخر، ونهبوا أموالهم وأحرقوا بلادهم بالنار، وكان المسلمون يخشونهم»[١].

ويؤكد هذه الحقيقة ما حدث من مساعدة القبط للمسلمين عند الفتح الثاني للإسكندرية (سنة ٢٥هـ) بعد أن نقض الروم عهدهم وأعادوا احتلال المدينة بقيادة منويل (الذي تصفه المصادر العربية بالخصي) إذ لا شك أن البطريرك بنيامين، الذي أعاده عمرو بن العاص إلى الإسكندرية، بعد أن ظل هاربًا عشر سنين[٢] من الاضطهاد الروماني، «وقف مع قومه من القبط يشدون أزر العرب ويساعدونهم ويظهرون لهم الود، حافظين بذلك عهدهم الذي تعاهدوا عليه في صلح الإسكندرية»[٣]. وكان العرب وهم يتتبعون فلول الروم بعد هزيمة جيش منويل يلقون «مساعدة من قرى القبط حيث ساروا، فكانوا يأتون إليهم بمن يقيم لهم الجسور، ويقدمون لهم ما كان في استطاعتهم تقديمه»[٤]. وكان «القبط يمالؤون العرب راغبين وهم على عهد معهم (أي صلح بابليون أو صلح الإسكندرية)»[٥]. «إذن ما كان أعظم ابتهاج القبط بخلاصهم مما كانوا فيه، فقد خرجوا من عهد ظلم وعسف تطاول بهم، وهوت بهم إليه حماقة البيزنطيين، وآل أمرهم بعد خروجهم منه إلى عهد من السلام والاطمئنان. كانوا من قبل تحت نيرَيْن من ظلم حكام الدنيا واضطهاد أهل الدين، فأصبحوا (أي بالفتح الإسلامي) وقد فُكَّ قيدهم في أمور الدنيا، وأُرخي من عِنانهم. وأمَّا دينهم فقد صاروا فيه إلى تنفس حر وأمر طليق. وقد يقال إن حكامها (أي حكام مصر) الجديدين قد أدخلوا إلى الأرض

---

(١) يوحنا النقيوسي، ط بيشوي عبد المسيح، ص ٢١٨؛ وط عمر صابر عبد الجليل ص ٢٠٧.

(٢) مدة اختفاء بنيامين كانت في الواقع ١٣ سنة منها عشر سنوات قبل الفتح الإسلامي وثلاث بعده. وسبب ذلك أن الفتح احتاج إلى هذه المدة ليشمل أرض مصر كلها، وأن عَمْرًا لم يعلم بقضية بنيامين واختفائه إلا من رجل قبطي يقل له (شنودة = سانتيوس) كان يسير مع جيش المسلمين من مكان إلى مكان، فلما استقرت الحال أخبر عمرًا بقصة بنيامين فكتب عمرو كتاب أمان له مشهورًا عند المؤرخين؛ راجع: ساويرس بن المقفع، السابق، ص٥٨٢؛ ويوحنا النقيوسي، ط القمص بيشوي، ص٢٣٢؛ وط عمر صابر، ص٢٢٠.

(٣) عبد العزيز جمال الدين، السابق، ص ٦٥٤، وهو ينقل من بتلر، ص٤١٠، دون إشارة إليه.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٥٥.

(٥) المصدر نفسه ص ٦٥٦، وهو ينقل من بتلر ص ٤١٠-٤١١ بغير عزو!.

دينًا غريبًا غير دين المسيح، وهذا حق. غير أنهم لم يروا في ذلك إلا عدلا من الله، إذ أجمع الناس على قول واحد، فقالوا: ما خرج الروم من الأرض وانتصر عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر، وما أنزله بالقبط وملتهم على يد قيرس... إن التاريخ لن يحكم إلا بأن العسف وسوء الحكم هما اللذان هويا بدولة الروم بغير شك إلى الضياع وزوال السلطان»[1]. وفيما يرويه ساويرس بن المقفع عن البطريرك بنيامين أنه كان يشكر الله أن رده إلى مدينته الإسكندرية ونجاه من محاربين مخالفين واضطهادهم له[2]، وينقل ساويرس عن أسقف نيقيوس باسيليوس ثناءه على عطاء الله المتمثل في نجاة بنيامين من التنين العظيم الطاغي الذي كان يطارده[3]. وينقل بتلر هذه النصوص ويعلق عليها بقوله: «إن هذا القول لا ينم عن قوم يشعرون بأنهم في قيد الذل، بل ينم عمن يبتهج بالنجاة والخلاص»[4].

وعلى الرغم من عدم حياد يوحنا النقيوسي، الظاهر في كتابه كله، فإنه لم يملك إلا أن يقول: «كان موقف عمرو يصير أكثر قوة يومًا بعد يوم. وأمر عمرو برفع الضرائب التي كانت مفروضة على الكنائس، كما لم يرتكب أي عمل من [أعمال] السلب أو النهب، بل كان يحميها (أي الكنائس) خلال حكمه»[5]، وهذا النقل الذي ينقله يوحنا النقيوسي عن صنيع عمرو في مصر ينقض كل ما أورده، مما يخالف ذلك، في كتابه[6] فعلى الرغم من أن يوحنا النقيوسي يذكر في كتابه - كما أشرنا إلى ذلك آنفًا - أن «الحكام بدأوا في مساعدة المسلمين، وأن فيلق الشرطة كلها رفضت محاربة المسلمين، وأنه يذكر أنَّ: «الجنرال ثيودور والقائد دومنتيانوس لم يقدرا على إساءة معاملة سكان المدينة (ربما كان المقصود مدينة منف) بسبب المسلمين المتواجدين

(١) ألفريد بتلر، المرجع السابق، ص ٣٨٧؛ نيرَيْن مثنى نير، وهو الشدة والقوة؛ ويقال للحرب القوية الشديدة: ذات نيرَيْن، راجع: ابن منظور لسان العرب، مادة (ن ي ر).

(٢) ساويرس بن المقفع، السابق، ص ٦٠٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٦٠٩.

(٤) ألفريد بتلر، المرجع السابق، ص ٣٨٦.

(٥) يوحنا النقيوسي، ط القمص بيشوي، ص ٢٣٣، و ط عمر صابر عبد الجليل، ص ٢٢٠.

(٦) يجب مراجعة تقويم أحمد عادل كمال ليوحنا النقيوسي وكتابه، في الفتح الإسلامي لمصر، ص ١٣٨ - ١٥٠.

فيها»[1]، وعلى الرغم مما نقلناه عنه من عدل عمرو بن العاص، وحمايته الكنائس وأموالها، وإعادته البطريرك بنيامين إلى كرسيه في الإسكندرية، فإنه لا يتورع عن أن يقول «فليوقع الله هذا العقاب (أي الموت غرقًا كفرعون وجنوده) على الإسماعيليين (أي المسلمين)، وأن يعمل بهم كما فعل مع فرعون القديم! فإنه بسبب خطايانا سمح الله لهم أن يعاملونا هكذا. ولكنه بطول أناته سينظر إلينا ربُّنا ومُخَلِّصُنا يسوع المسيح وينقذنا. وأكثر من هذا فنحن ننتظر بأنه سيفني أعداء الصليب كما هو مكتوب في الكتاب الحق»[2].

> ولذلك، وأمثاله، وهو غير قليل في كتاب يوحنا النقيوسي، يقول أحمد عادل كمال، في إيجاز بليغ: «حين يدهش المسلمون المعاصرون من تحامل بعض القبط فقد نجد تفسير ذلك فيما كتب يوحنا النقيوسي ومن نقل عنه. فليس كل من يقرأ يبحث ويحقق ويصبر على ذلك»[3]. معنى كلام أحمد عادل كمال أن سر الحملات الطائفية المتعصبة التي يقع فيها نفر من الأقباط هو أنهم نُشِّئوا على كتابات يوحنا النقيوسي وأمثاله، وهي كتابات يتشبع قارئها، إن لم يبحث عن الحقيقة خارجها، بروح طائفية بغيضة تنسيه وحدة الوطن وأهله، وتوقعه في شرك الفكر المتعصب بالحق وبالباطل لطائفته.

ويبطل كلام يوحنا النقيوسي ـ فضلا عن إبطاله إياه بتناقضه ـ كلام مؤرخين مسيحيين آخرين: «لما شرع عمرو في بناء مدينة الفسطاط كان القبط من أهم العاملين على عمارتها ولاسيما رجال الحكومة الذين كان معظمهم، إن لم نقل كلهم، من الأقباط فشيدوا بها القصور العالية، والدور الرحبة (يعني لسكنى هؤلاء الأقباط) والكنائس والديارات الواسعة والمتنزهات والبساتين النضرة، وكان العرب يشجعونهم على ذلك لما فيه من العمران، .... وفي هذا دليل على إحكام الوفاق وتمكين العلاقات بين القبط والعرب

(١) يوحنا النقيوسي، ط القمص بيشوي، ص ٢١١.
(٢) يوحنا النقيوسي، ط القمص بيشوي عبد المسيح، ص ٢٢٦؛ وط عمر صابر عبد الجليل، ص ٢٢٢.
(٣) أحمد عادل كمال، السابق، ص ١٤٧.

في ذلك الزمن حتى أباحوا لهم بناء كنائس ومعابد متعددة في وسط الفسطاط التي هي مقر جيش الإسلام، على حين أن المسلمين كانوا يصلون ويخطبون في الخلاء، أو أنه لم يكن لهم غير جامع واحد الذي بناه عمرو بن العاص»[١].

«ثم أخذ عمرو في تنظيم البلاد، وإذ كان يعلم أن صاحب الدار أدرى بما فيها، استعان بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي والوالي معًا. فقسَّم البلاد إلى أقسام يرأس كلا منها حاكم قبطي له اختصاصات وحدود معينة... وعين نوابًا مخصوصين من الأقباط ومنحهم حق التداخل في القضايا المختصة بالأقباط والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية، فكانوا بذلك في نوع من الحرية والاستقلال المدني هي ميزة كانوا قد جرِّدوا منها في أيام الدولة الرومانية... وضَرَبَ الخراج على البلاد (=الضرائب على الأرض الزراعية) بطريقة عادلة، وولَّى عليه متوليًا من ذويه يقبضه على أقساط في آجالٍ معينة حتى لا يتضايق أهل البلاد. ورتب الدواوين فاختص الأقباط بمسك الدفاتر وسائر الأعمال الكتابية والحسابية وكانت كلها تجري باللغة القبطية»[٢]. ولنقف هنا عند الفرق بين صنيع عمرو بن العاص في الشأن القضائي والإداري وتمكينه الأقباط من توليهما، وعند صنيعه في شأن المال العام، الذي يقتضي دقة وأمانة ومحاسبة للعامل عليه دائمة، فقد ولاه رجلا من المسلمين يستطيع متى اقتضت الحال أن يحاسبه، أو يعاقبه، دون أن يتهم بظلم أو تعصب. وهذا من الحنكة السياسية والإدارية لعمرو بن العاص، وحسن تصوره لحال المصريين بعد قرون الاضطهاد الروماني.

وفي مقابلة هذا، نقرأ عند نعوم شقير، عن عهد الرومان، أنه: «لم يكن يسكن الإسكندرية مصري إلا ويشعر أنه من شعب مغلوب على أمره، لأنه لم يكن يتمتع بالحقوق المدنية التي كان يتمتع بها اليونان واليهود من سكان تلك المدينة، مع أنه لم يكن يدخل تلك المدينة يهودي أو يوناني إلا كانت تعطى له تلك الحقوق بحالِ

(١) يعقوب نخلة روفيلة، السابق، ج١ ص ٥١-٥٢.
(٢) المصدر السابق، ص ٥٦ ـ ٥٧.

دخوله، وبقيت هذه الحال.... إلى أن استولى العرب على الإسكندرية في أيام عمرو بن العاص»[1].

وعلى الرغم مما كان في نفوس القبط من مرارة ضد المسيحيين الملكانيين بسبب الاضطهاد الذي أصاب القبط على يد الروم ومن والاهم من أتباع مذهبهم، فإنهم لم يتمكنوا - تحت حكم المسلمين - من الاقتصاص منهم، ذلك «أن عَمْرًا كان في حكمه يسير على نهج الاعتدال والتسامح، ولم يكن له هوىً مع أحد المذهبين الدينيين، ولدينا كثير من الأدلة على صدق هذا الرأي... وعلى هذا لابد لنا أن نقول إن المذهبين كليهما قد بقيا جنبًا إلى جنب في مصر يظلهما الفاتحون بذمتهم، ويحمونهما جميعًا بحمايتهم»[2]. والظاهر «أن العرب كانوا أخف وطأة من الروم في جباية الأموال».[3] و«كان العرب الفاتحون هم أول من تسمى بالمصريين، ولم يأنفوا من مساواة أبناء البلاد بالانتساب إليها، كما أنف اليونان والرومان من قبلهم»[4].

«وبالجملة فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها منذ أزمان»[5]، لذلك لم يكن عجيبًا ولا مستغربًا أن يدخل القبط في الإسلام منذ وصلت طلائع المسلمين أرض مصر، وأن يستمر اعتناق المصريين للإسلام، على مدى نحو قرنين من الزمان، أصبحت مصر في خلالهما تلك الدولة الإسلامية التي نعرفها.

* * *

---

(١) نعوم شقير، السابق، ص ٧٠٥. وليتأمل في قوله هذا من شاء، ويقارن صنيع الاحتلال الروماني في مصر بصنيع الاحتلال الصهيوني لفلسطين، الذي لا يزال مستمرًا حتى الآن.

(٢) ألفريد بتلر، السابق، ص ٣٨٨-٣٨٩

(٣) المصدر السابق، ص ٣٩٢.

(٤) مصطفى كمال الشريف، السابق، ص ٢٤، وهو ينقل عن محمود كامل، عروبتنا، ص ٥٠.

(٥) يعقوب نخلة روفيلة، السابق، ج١ ص٥٧.

(٩)

وأسلم أهلها

ذكرنا آنفًا[١] أن سكان مصر عشية الفتح الإسلامي لها كانوا خليطًا من القبط والرومان واليونان واليهود. وعلى الرغم من مسيحية الرومان واليونان وأعداد كبيرة من القبط، فإن الصراع المذهبي بين هؤلاء المسيحيين حال بينهم وبين أن يُعتبروا ـ تاريخيًا أو واقعيًا ـ أمة واحدة. ولم يكن النزاع المذهبي وقفًا على مسألة طبيعة المسيح، التي فرقت بين الرومان المحتلين وأتباعهم من القبط من ناحية، وبين سائر القبط المسيحيين من ناحية أخرى، بل إنه كان أوسع من ذلك إذ شمل النزاع بين المسيحيين المُثَلِّثين كلهم في ناحية، والمسيحيين الموحدين (=الأريوسيين) في ناحية أخرى. وكان القبط ـ سكان مصر ـ الذين لم يعتنقوا المسيحية، قد استمروا على وثنيتهم الأولى على النحو الثابت من كتاب يوحنا النقيوسي[٢]، وهي حقيقة لم يشر إليها أحد من المؤرخين كما أشار هو.

ولم يكن القبط المسيحيون على رأي واحد في مسيحيتهم، فكان منهم من يتبع مذهب الطبيعتين، وهو مذهب الدولة البيزنطية (الرومانية الشرقية) آنئذ، وسمي هؤلاء بالمَلِكَانيين نسبة إلى الملك الذي هو إمبراطور بيزنطة؛ وكان منهم من يتبع مذهب الطبيعة الواحدة[٣]، وسمي هؤلاء باليعاقبة، أوالأرثوذكس. وكان من المسيحيين

---

(١) انظر فصل «خزائن الأرض» من هذا الكتاب.

(٢) راجع: على سبيل المثال، الصفحات ١٢٥ و١٢٧ و٢٠٤ و٢٢٢ من طبعة عمر صابر عبد الجليل.

(٣) الطبيعة الواحدة والطبيعتين للمسيح عليه السلام: بشرية وإلهية ويتبع القول في ذلك القول في المشيئة. وهي مسألة لاهوتية معقدة، وإن كان بعض المؤرخين المسيحيين يصف الخلاف فيها بأنه لفظي، انظر

المصريين فريق ثالث يتبعون مذهبًا مسيحيًا توحيديًا ويسمّون الأريوسيون (أتباع أريوس). فلم تكن في مصر، عشية الفتح العربي، دولة قبطية قائمة، وإنما كانت الدولة هي الدولة الرومانية (الشرقية) المحتلة لمصر، وكانت تلك الدولة في جانب والشعب المصري في عدة جوانب، فلم يكن هناك ما يسمى الحضارة القبطية، أو الدولة القبطية، بل كانت الدولة رومانية والحضارة رومانية[1]، فلا يجوز أن يصدق أحد دعاوى إنكار حضارة القبط ومحو تاريخهم، التي ينسبها المتعصبون إلى الإسلام ودولته، فهذا كله باطل لا صحة له.

كان أريوس قَسًّا مسيحيًا مصريًا، ولد في ليبيا، وعاش في الإسكندرية، وأصبح فيها كاهنًا مسؤولا عن كنيسة في بولكلي (الحيّ الذي فيه المقر الصيفي للحكومة منذ عهد الملكية حتى الآن). وكانت عقيدة الأريوسيين تذهب إلى أن المسيح، عليه، وعلى نبينا، الصلاة والسلام، ليس إلهًا، ولا هو ابن إله، لكنه مخلوق من عدم، كما خلق الله العالم من عدم. وكان شعار أريوس هو «فلْنَتَّبِعْ المسيح كما عَلَّمنا». واستند في قوله إن المسيح مخلوق، وإنه ليس إلهًا، إلى نصوص في الأناجيل لا يصح تفسيرها إلا بكون المسيح مخلوقًا لله، وليس هو الله نفسه[2].

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن المسيحيين الأريوسيين كانوا أكثر عددًا من المسيحيين الأرثوذكس، وهو الاسم الذي كان يطلق على جميع المسيحيين المثلثين قبل الانقسام الكبير بين جماعتي الكاثوليك والأرثوذكس بعد الاختلاف حول طبيعة المسيح في مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م.

وقد أدينت الأريوسية باعتبارها بدعةً وهرطقة، في مجمع نيقية، سنة ٣٢٥م ومع ذلك فإن المذهب ظل موجودًا في مصر حتى الفتح الإسلامي سنة ٦٤١م[3]. وبدأ اضطهاد

يعقوب نخلة روفيلة، السابق، ص ٣٧.

(١) محمد عمارة، عندما دخلت مصر في دين الله، نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٣ وما يليها. والكتاب هو رقم (١٢) من سلسلة: في التنوير الإسلامي.

(٢) راجع: فاضل سليمان، أقباط مسلمون قبل محمدﷺ، القاهرة ٢٠١٠، ص ٤٧ و٥٠ و٥٣ و٥٧ و٥٨.

(٣) فاضل سليمان، السابق، ص ٤٨-٤٩ وما يليها، وهو يذكر استمرار الأريوسية في أوروبا حتى سنة ٥٨١م.

الأريوسيين في مصر منذ مجمع نيقية سنة ٣٢٥م، واستمر إلى وقت الفتح الإسلامي لمصر، وصاحب اضطهادهم، الذي مارسه المسيحيون بفرقتيهم (الرومان والقبط)، نوعٌ من الاحتقار الذي يبدو جليًا في تعبيرات يوحنا النقيوسي عنهم، كلما ذكرهم في تاريخه، وهو لم يذكرهم إلا قارنًا إياهم بالوثنيين وأعداء المسيح(!)

ولم يكن الأريسيّون موجودين في مصر وحدها، بل كانوا في أماكن شتى من الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية)[١]، ولذلك جاء في كتاب النبي ﷺ إلى هرقل إمبراطور الروم:

«من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدِعَاية الإسلام: أسلم تسلم[٢]، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]»[٣].

ولم يأت في كتابه ﷺ إلى المقوقس أن عليه إثم الأريسيين - على الرغم من أن صاحب دعوتهم الأوّل قَسٌّ مصري - وإنما قال له: «....فعليك إثم القبط» لأن المقوقس، وهو عامل هرقل على مصر، كان يضطهد القبط أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة كما يضطهد القبط الأريسيين، فجمع النبي بينهما بلفظ (القبط)[٤]، ويؤكد العلامة أبو الحسن النَّدوي أن المقصود بالأريسيين في رسالته ﷺ إلى هرقل هم أتباع أريوس المصري[٥].

---

(١) فاضل سليمان، السابق، ص ٤٧-٥٢.

(٢) أي من عذاب الآخرة؛ وهذا تبشير وليس تهديدًا ولا وعيدًا كما يظنه بعض المعاصرين.

(٣) روت نص الكتاب كتب الحديث وكتب السيرة، وهو متفق عليه من حديث عبد الله بن عباس، البخاري ح (٧) ومسلم ح (١٧٧٣)، واللفظ هنا لمسلم.

(٤) راجع: نص كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس في فصل: (رسائل وبشارات) من هذا الكتاب، وراجع: فاضل سليمان، السابق، ص ١٠٩ وما يليها.

(٥) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، بيروت ١٩٨١، ص ٣٤٤-٣٤٩.

وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي، في شرح كتاب النبي ﷺ إلى هرقل: «وقد ذكر بعض أهل المعرفة بهذه المعاني أن في رهط هرقل جماعة تعرف بالأروسية توحد الله وتعترف بعبودية المسيح له عز وجل ولا تقول شيئًا مما يقول النصارى في ربوبيته.... وإذا كان ذلك كذلك.... جاز أن تكون هذه هي الفرقة التي ذكرها رسول الله ﷺ»[١]. وروى الإمام النووي مثل هذا القول في معنى الأريسيين[٢]. هؤلاء الأريسيون، الذين كانوا عددًا غير قليل من المصريين، والقبطُ أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، وبقايا الوثنيين الذين أشار إليهم يوحنا النقيوسي في مواضع من كتابه، تلقوا كلهم رسالة الإسلام عندما وصلت طلائع جيش الفتح الإسلامي إلى مصر. وليس من سبيل سوى التخمين للوصول إلى أعداد قريبة من الصحة ـ أما الصحة المطلقة فلا سبيل إليها ـ لمكونات المصريين والمقيمين في مصر من ذوي المذاهب المختلفة؛ لذلك نكتفي بذكر وجود هذه المذاهب دون أن نغامر باتباع صنيع بعض الذين زعموا معرفة أعدادها الصحيحة أو التقريبية، فتلك كلها ظنون لا حقيقة لها.

ويتحدث يوحنا النقيوسي عن مسيحيين مصريين كثيرين دخلوا في الإسلام: «والآن (أي وقتما كان يكتب) كثير من المصريين الذين كانوا مسيحيين كَذَبةً، أنكروا العقيدة الأرثوذكسية، والمعمودية الحية، وساروا في عقيدة الإسلام أعداء الرب، وقبلوا التعليم الركس للحيوان الذي هو (ويذكر اسم نبيّنا ﷺ). وأخطأوا مع هؤلاء الوثنيين وأخذوا في أيديهم السلاح وحاربوا المسيحيين. وكان أحدهم واسمه يوحنا الخلقيدوني من دير سيناء، انضم إلى عقيدة الإسلام وترك زيه الكنسي، واتخذ له سيفًا، وطارد المسيحيين المؤمنين بسيدنا يسوع المسيح»[٣]، ويشير في موضع من كتابه إلى أن المسلمين صحبوا «المصريين الذين تركوا المسيحية واعتنقوا ديانة هؤلاء

---

(١) أبو جعفر الطحاوي، مشكل الآثار، ج٢ ط حيدر أباد الدكن، ١٣٣٣هـ ص ٣٩٩، وهو في طبعة شعيب الأرنؤوط الثانية، مؤسسة الرسالة ٢٠٠٦، ج٥ ص ٢٣٢.

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم، ج١٢ ص ١٠٩.

(٣) يوحنا النقيوسي، ط عمر صابر عبد الجليل، ص ٢٢٢؛ وط القمص بيشوي، ص ٢٣٤. وهذا النص ونظائره، في كتابه، يؤيد صحة تقويم أحمد عادل كمال، الذي أشرنا إليه من قبل، للكتاب وصاحبه.

البهائم (أي المسلمين)»[1]. ويذكر عند فتح حصن بابليون كيف اضطهد الأريسيون الأرثوذكس الذين في الحصن وقطّعوا أيديهم (وقد تكون الإشارة إلى صنيع الروم لا الأريسيين بالقبط)[2].

وهذه النصوص القبطية المصرحة بانتقال بعض القبط، أو مجموعات منهم، إلى الإسلام في الشهور الأولى بعد دخول المسلمين إلى مصر يجب أن تفهم في ظل الاضطهاد الروماني لأهل مصر الذين لم يقبلوا عقيدة الرومان في طبيعة المسيح؛ والاضطهاد الروماني/ المصري لذوي العقيدة المسيحية التوحيدية (الأريسيين)؛ وفي ظل وجود قطاع من أهل مصر كان لم يزل على وثنيته الأولى. وهؤلاء جميعًا استقبلوا الإسلام بلا ضغائن تحول بينهم وبينه، إذ كان المسلمون يحاربون البيزنطيين لا المصريين، وكان المصريون يشعرون أن انتصار المسلمين هو غضب الله على الرومان، الله الذي «كان يخذل جيوش الروم أمام المسلمين لأجل أمانتهم (=عقيدتهم) الفاسدة»[3].

فلم يكن أمرًا غريبًا أن يرحب المصريون بالمسلمين ويعتبروهم - في الجملة - منقذين لهم من حكم البيزنطيين الجائر[4]، ولم يجد المصريون في العرب أعداءً لدينهم، ولا لمذهبهم فيه كما كان البيزنطيون فلم يقابلوهم بما يقابل به العدو من دفع ومحاربة. وكان فقهاء المسلمين يفتون ببناء الكنائس، وإصلاح ما تهدّم منها، وجعلوا أساس فتواهم أن ذلك من «جملة عمارة البلاد»[5]. وظل الأقباط بعد الفتح الإسلامي - وإلى اليوم - يحتفلون بأعيادهم الدينية التي عدَّ منها المقريزي ستة عشر عيدًا[6]. والأعياد

---

(١) يوحنا النقيوسي، ط القمص بيشوي، ص ٢٠٩، ط عمر صابر عبد الجليل ص ١٩٧، حيث يترجم العبارة إلى عقيدة هذا المفترس، بدلا من البهائم.

(٢) المصدر السابق، ط عمر صابر عبد الجليل ص ٢٠٤، ط القمص بيشوي، ص ٢١٥. والحق أن الكلام في الطبعتين عمَّن أُلحِقَ به الأذى، ومن الذي أَلحَقَه، يلفُّه الغموض.

(٣) ساويرس بن المقفع، السابق، ج١ ص ٥٧٦.

(٤) سيدة إسماعيل الكاشف، مصر في فجر الإسلام، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩، ص ١٨٤.

(٥) الكندي، السابق، ص١٥٦.

(٦) المقريزي، الخطط، السابق، ج١ ص ٧١٤-٧٢٩، وذكر أن الفانوس كان يباع بكثرة ويوفر في عيد الميلاد، وقال محققه (أيمن فؤاد سيد) ولا نعرف متى تحول إلى عادة رمضانية، راجع: ص ٧١٧. وهذا التبادل

الدينية من أهم مظاهر التدين، ليس ثَمَّ دينٌ بلا أعياد. وتركُ المسلمين للأقباط يحتفلون بأعيادهم تطبيق صحيح للقاعدة الإسلامية الآمرة بترك «أهل الكتاب وما يدينون به».

وقد أبدى المسلمون من حسن التعامل مع أهل مصر ما لابد أنه كان ذا أثر في تقبل هؤلاء للإسلام دخولا فيه أو تعايشًا معه.

ففي أول شهور الفتح قاتل أهل بعض القرى المصرية مع الرومان ضد المسلمين، وأعقب الهزيمة التي حاقت بالرومان أن أخذ جيش المسلمين من المصريين أسرى، أرسلهم عمرو بن العاص إلى المدينة المنورة، إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي ردهم إلى قراهم في مصر، وكتب إلى عمرو بن العاص يأمره بتخلية سبيل من في يده من الأسرى وإعادتهم إلى قراهم[1]، وقد تكرر ذلك في الحرب مع منويل الخصي سنة ٢٥هـ، وكان الخليفة الذي أعاد الأسرى هذه المرة عثمان بن عفان ـ رضيَ الله عنه[2].

وكان الفتح الإسلامي سببًا لاستعادة اللغة القبطية (لغة الطقوس الكنسية)[3] وأسماء المدن والقرى القبطية مكانها الأصلي في مصر بعد أن كانت تحولت إلى اللغة اليونانية[4]، حتى لقد كتب أحد الأساقفة النسطوريين بعد الفتح بنحو خمسة عشر عامًا: «إن العرب الذين وهبهم الله السيادة في أيامنا... لا يحاربون الدين المسيحي قط، بل يحافظون على ديننا ويحترمون الأساقفة والقديسين ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا»[5]، وأبقى المسلمون على تقليد سابق على الفتح هو عدم

للعادات والتقاليد بين المسلمين والمسيحيين في مصر ردٌّ بليغ على الذين يقولون إن الشعب المصري طوائف متباغضة، وعكس ذلك هو الصحيح: الشعب المصري أمة واحدة، لا ينكر ذلك إلا دعاة الفتنة والمتاجرون بالعصبية الدينية.

(١) ابن عبد الحكم، السابق، ص ١٠٧؛ والمقريزي، السابق، ص ٤٥٠-٤٥١؛ والسيوطي، حسن المحاضرة، السابق، ج١ ص ١١١.

(٢) ألفريد بتلر، السابق، ص ٤٢٢.

(٣) محمد بهجت قبيسي، أحمد كمال باشا، السابق، ص ١٠ و١٢.

(٤) سيدة إسماعيل الكاشف، السابق، ص ١٩٠-١٩١؛ وقاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧، ص ٣٧. وقارن صنيع المحتل الروماني لمصر بصنيع المحتل الصهيوني في فلسطين في شأن تغيير الأسماء من عربية إلى عبرية(!) وكما زال الاستعمار الروماني عن الشرق كله سيزول الاستعمار الصهيوني عن فلسطين إن شاء الله.

(٥) سيدة إسماعيل الكاشف، السابق، ص ١٩٧-١٩٨، وهي تنقل عن مصدر فرنسي.

فرض ضرائب على الأديرة والرهبان، وبذلك وجدت، منذ الفتح الإسلامي، طبقة متميزة من المسيحيين لا تقع تحت طائلة الأعباء المالية المفروضة على سائر الناس[١].

وقد كانت هذه كلها عوامل تقرِّبُ بين أهل مصر وبين الإسلام، ومع ذلك فإن الإسلام لم يبدأ في الانتشار بشكل واسع في مصر إلا بعد القرن الأول الهجري»،[٢] وقد تطلب التحول الديني من المسيحية بأقسامها، واليهودية، والوثنية إلى الإسلام نحو قرنين أو ثلاثة قرون[٣].

ولم تبلغ نسبة المسلمين في مصر نحو ٨٠٪ من السكان إلا في القرن التاسع الميلادي أي في القرن الثالث بعد الفتح الإسلامي[٤].

وقد كان شأن المسيحية في مصر، عند الفتح الإسلامي، من الضعف بسبب التناحر المذهبي العقدي، إلى الحد الذي دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن المسيحية لم تتغلغل في أعماق النفس المصرية، وبأنها لم تغير شيئًا من روح الجنس المصري، ولم تصل للتأثير في الحياة الخاصة للأفراد ولم تتحول الأرواح تحولا صادقًا إلى المسيحية؛ ودفع آخرين إلى إعلان أن: الشيء الذي لم يكن له أثر في مصر عندما دخلها العرب هو العقيدة والروح الديني، ذلك لأن نصرانية الأقباط اقتصرت على منازعات عقدية مع البيزنطيين[٥]. بل إن جمال حمدان، وهو من هو، يقول: «لم تنتشر المسيحية في أوجها إلا نصف انتشار على الأكثر»[٦]. فالدولة كانت رومانية لا قبطية، والقبط كانوا مذاهب ثلاثة لا مذهبًا واحدًا، وعندما نرى ذلك كله ندرك أي نوع من الإسلام البطيء

(١) المصدر نفسه، ص ٢٢٣.

(٢) قاسم عبده قاسم، السابق، ص ٣٦؛ وحامد سليمان، من القبطية إلى الإسلام، قصة فتح مصر، المكتب العربي للمعارف، القاهرة ١٩٨٨، ص ٧٥ وما بعدها.

(٣) جمال حمدان، شخصية مصر، الطبعة الموجزة، دار الهلال، مايو ١٩٩٣، ص ٣٨.

(٤) محمد عمارة، في تذييله على كتاب فاضل سليمان، السابق ذكره، ص ١٧٩؛ وهو يحيل إلى: فيليب فارج ويوسف كرباج، المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، ترجمة بشير السباعي، دار سينا، القاهرة ١٩٩٤.

(٥) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، السابق، ص ١٥٤.

(٦) جمال حمدان، شخصية مصر، عالم الكتب، القاهرة ١٩٨٤، ج٤ ص ٤٠٩.

المتعقل كان الدين الذي دخل فيه المصريون من القبط بأنواع مذاهبهم، وممن لم يكونوا يدينون بالمسيحية من أهل البلاد، على ما تذكر كتب التاريخ القبطي نفسها.

إن بعض الباحثين الأقباط المعاصرين يقدر أن بين سكان مصر المسلمين ٨٨٪ من أسر قبطية اعتنقت الإسلام[1]. ويرى أبو سيف يوسف أن الثابت تاريخيًا أن كثيرين من قبط مصر قد دخلوا في الإسلام طوعًا عن اقتناع، وثمة قطاع من القبط تحول إلى الإسلام بدافع الرغبة في تحقيق المساواة بينهم وبين المسلمين الفاتحين من الناحيتين السياسية والاجتماعية، وأن فريقًا من القبط دخلوا الإسلام بسبب النظم المالية التي طبقت على المصريين (المقصود هنا الخراج والجزية)[2].

أما الأستاذ ماسينيون (المستشرق الفرنسي) فإنه يضع في كتابه (حوليات الإسلام) نِسَبًا للمصريين تثبت أن غالبة المسلمين هم من المصريين الذين دخلوا الإسلام، فعنده أن المصريين المعاصرين ينقسمون كما يلي:

٦٪ من القبائل العربية الخالصة

٢٪ من البربر

٢٪ من الحاميين

٨٨٪ مصريين أسلموا

٢٪ مصريين لم يسلموا[3]

وقد رد أخونا العلامة الدكتور محمد عمارة في كتابه: (الفتنة الطائفية) على الدعوات

(١) أبو سيف يوسف، الأقباط والقومية العربية، ط مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٧، ص ١٧.

(٢) أبو سيف يوسف، السابق، ص ٥٩-٦١. ونلاحظ أن مسألة الجزية بقيمتها الزهيدة (ديناران على كل ذكرٍ بالغ قادر على حمل السلاح) لا يعقل أن تكون سببًا في ترك المرء دينه؛ ويصدق هذا بوجه خاص على شعب تحملت أكثريته، الأريوسية والأرثوذكسية، الاضطهاد الروماني لعدة قرون دون أن تغير إيمانها.

(٣) نقلا عن دكتور حسن محمود أحمد، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، ٢٠٠٦، ص ٨١. ونلاحظ أن الحكومة المصرية توقفت منذ مدة عن نشر نسبة السكان، بحسب الإحصاء الذي يجري كل عشر سنوات، من حيث انتماؤهم الديني. وهذا خطأ يجب أن يتدارك لأن نشر الأعداد الرسمية لأهل كل دين يقطع كثيرًا من طرق الفتن التي تعاني منها البلاد بين فينة وأخرى.

الطائفية العنصرية، التي تصدر بين حين وآخر، عن رجال كنسيين وعن أقباط من خارج سلك الكهنوت[١]. وكان رده ذا شعبتين: أولاهما، نقل تلك الدعوات، أو أهمها، على لسان أصحابها من البابا شنودة فمن دونه؛ وثانيتهما، نقل الردود على تلك الدعوات من ألسنة الأقطاب المسيحيين الكنسيين وغير الكنسيين. ففي الفريق الأول نقرأ كلامًا للبابا شنودة، والقمص سرجيوس، ودكتور سليم نجيب، والأنبا جريجوريس، وكمال فريد إسحاق، ورسمي عبد الملك، والأنبا مرقس، والأنبا توماس، ومشروع جماعة الأمة القبطية ١٩٥٢، وإعلان المشروع السياسي للكنيسة سنة ١٩٧٧، وإقامة بعض أقباط المهجر حكومة منفى في ألمانيا، لم تُدِنْها الكنيسة، في الثمانينيات من القرن العشرين... إلخ ما ذكره[٢]، وفي الفريق الثاني نقرأ كلام مكرم عبيد، والأنبا موسى والأنبا يوحنا قلتة، وغالي شكري، وأنور عبد الملك، ورؤوف نظمي (الشهير بمحجوب عمر)، وصادق عزيز، ومتّى المسكين[٣].

والحاصل أن المسيحيين المصريين أسلموا:

- لأن الموحدين منهم وجدوا في الإسلام المسيحية التي بشر بها المسيح والحواريون.[٤]
- ولأن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله، ونسيت ذلك في ثوراتها وحروبها التي كانت تنشب بين شيعها وأحزابها، ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته[٥].
- ولأن الاضطهاد الروماني للمسيحية المصرية كان قد بلغ مداه حتى نال من المقومات الثقافية والحضارية للمصريين إلى الحد الذي جعل مصر، الوطن والدولة والسيادة واللغة والدين والحضارة، بتعبير محمد عمارة، عندما ظهر الإسلام (سنة ٦١٠م)

---

(١) بدأت هذه الدعوات في التاريخ المعاصر على لسان القمص سرجيوس سنة ١٩٤٧ عندما كتب أن أرض الإسلام هي الحجاز فقط، وليست البلاد التي يعيش فيها المسلمون ـ مجلة المنارة ٦/ ١٢/ ١٩٤٧ والنقل عن: محمد عمارة، الفتنة الطائفية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٩، ص ٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٧ـ٥٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٥-٩٦.

(٤) محمد عمارة، السابق، ص ٧١، نقلا عن بتلر فتح العرب لمصر.

(٥) ألفريد بتلر، السابق، ص٣٨٥.

فراغًا حضاريًا، فقد قهر فيها الرومان أغلب سمات الانتماء وقسماته التي ميزت المصريين عبر تاريخهم العريق. فكان هذا الفراغ الحضاري هو العامل الأول والسر الأعظم وراء انخراط مصر في الدولة الإسلامية، ثم في الدين الإسلامي واللغة العربية، والحضارة الإسلامية، على نحو من العمق والشمول نادر الحدوث في غيرها من الأقطار التي فتحها الإسلام... وبذلك استعادت مصر الإسلامية عافيتها الحضارية عندما دخلت في الإسلام[1].

- ولأن تصرف المسلمين الفاتحين كان تصرفًا كريمًا يُطَمْئِنُ الناسَ إليهم ويحببهم في دينهم الذي يحملهم على هذه التصرفات. ومن أكثر ما يبين ذلك أن جماعة من قبط الوجه البحري جاءوا إلى عمرو بن العاص ـ بعد قيادته الجيش الإسلامي ضد منويل الخصي ومن معه ـ وأخبروه بما فعله الروم في قراهم من نهب وسلب، وقالوا له «كان لنا أن تقاتل عنا لأنا في ذمتك وقد أصابنا من وراء ذلك ما أصابنا». يقول بتلر «كانوا على حق في شكواهم لكن قلما تجد من الفاتحين من يعبأ بمثل تلك الشكوى» لكن عمرًا ندم، وقال لهم: «يا ليتني كنت لقيت الروم حين خرجوا من الإسكندرية»، وأمر بتعويض القبط عما فقدوه من أموالهم. ولم يكن ذلك ـ في تعبير بتلر ـ إلا دالا على «ما كان عليه عمرو من حسن الرأي في الحكم، وما كان متصفًا به من نبيل الشيم»[2].

- ولأنه لم تظهر في المدة التي أعقبت فتح مصر سياسات عامة من قبل الحاكمين المسلمين، أو إجراءات خاصة، يمكن أن تفسر على أنها موجهة إلى إجبار القبط على ترك عقيدتهم[3].

- ولأن بعض المسيحيين كان يرغب في تحقيق المساواة السياسية والاجتماعية مع المسلمين الفاتحين[4].

---

(١) محمد عمارة، عندما دخلت مصر في دين الله،السابق، ص ١٦ و١٧.

(٢) ألفريد بتلر، السابق، ص ٤٢٣.

(٣) أبو سيف يوسف، السابق، ص ٦٠.

(٤) أبو سيف يوسف، الموضع نفسه.

• ولأن المصريين لم يشعروا بغربة عن العرب الذين كان الإسلام دينهم «لا لسبب سوى أن العنصر العربي من أصل قاعدي واحد مشترك مع العنصر المصري، فكلاهما أقارب جنسيًا منذ ما قبل الإسلام، بل وما قبل التاريخ...»[١].

• ولأن معظم المال الذي يجبى من مصر كان ينفق في مصالحها وعمارة بلدانها ومرافقها[٢]. حتى إن بتلر يقول - بعد ذكر سيرة عمرو بن العاص في حكم مصر - إن القبط كانوا أجدر الناس أن يأسفوا مُرَّ الأسف عندما عُزِلَ عنهم عمرو بن العاص[٣].

• ولأن الإسلام يجعل لمن يدخل فيه مثل ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ويساويهم في شرف الفاتحين ومكانتهم ويجعلهم إخوانهم في كل شيء، ويُسهم لهم في الفيء، ولا يفرض عليهم الجزاء[٤].

وعلى ذلك كله، وفي ضوئه، نستطيع أن نفهم، ونصدِّق، عبارة الأستاذ توماس أرنولد: «لقد تحول كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح، حين كانت الإسكندرية، حاضرة مصر يومئذٍ، لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة»[٥]. وفي ضوء ذلك كله، كذلك، نستطيع أن نفهم محاولة الأخ العلامة الدكتور محمد عمارة للتوفيق بين الرأيين المتعلقين بفتح مصر: أفتحت عَنْوةً أم فتحت صلحًا؟ فهو يقول إن مصر الدولة (الحكومة) الرومانية فتحت عَنْوةً، أما مصر الشعب (القبط) فقد فتحت صلحًا، لأن أهل مصر دخلوا في الإسلام طواعية واختيارًا، والرومان هزموا عسكريًا وفرّوا من مصر فرارا أمام الجيش الإسلامي[٦]. ومهما يكن من أمر محاولة التوفيق هذه، فإن من الضروري أن نتذكر أن المسلمين الفاتحين تجاهلوا - في مصر - الفرق

---

(١) جمال حمدان، شخصية مصر، الطبعة الموجزة، السابق، ص ٣٨؛ والطبعة الموسعة، ج٢، دار الهلال، ص ٢٩٨.

(٢) سيديو، خلاصة تاريخ العرب، القاهرة ١٣٠٩، ص ٨١.

(٣) ألفريد بتلر، السابق، ص ٤٠١.

(٤) ألفريد بتلر، ص ٢٤٣.

(٥) الدعوة إلى الإسلام، السابق، ص ١٢٣-١٢٤. والنقل من محمد عمارة، الفتنة الطائفية، ص ٧١.

(٦) محمد عمارة، عندما دخلت مصر في دين الله، السابق، ص ٤٩.

بين البلاد المفتوحة عَنوة والبلاد المفتوحة صلحًا، وعاملوا أهل مصر دائمًا كما لو كانت مفتوحة صلحًا.

ومن الضروري أن نتذكر ـ كذلك ـ أنه لم تسجل حالة واحدة لانتقال مسلم من الذين جاؤوا مع جيش الفتح من الإسلام إلى المسيحية، على الرغم من الأمن الّذي تمتع به رجال الدين المسيحي ومن فتح كنائسهم وإعادتهم إليها بأوامر مباشرة من عمرو بن العاص.

وعلى ذلك كله، وفي ضوئه، نستطيع أن نعلم، بل أن نوقن، أن مقولة: «**المسلمون ضيوف على الأقباط**» أو مقولة «**العرب ضيوف على المصريين**»، كلتاهما مقولة فاسدة في ضوء حقائق التاريخ التي يثبتها المؤرخون المصريون وغير المصريين، المسلمون وغير المسلمين. هذا لمن أراد **الإنصاف فأحبه، وأراد العلم فطلبه. أما سواهم من أهل الهوى والعصبية الطائفية وصناع الفتنة فسيعلمون أي منقلبٍ ينقلبون.**

ويبقى لنا أن نعرف بعض المعرفة، بعض الذين أهدوا إلينا هذا الدين الحنيف وهَدَونا إليه بفضل الله سبحانه، وهو موضوع الفصل الآتي من هذا الكتاب.

* * *

(١٠)

جيل قرآني فريد

في نحو عشرين عامًا، أو تزيد قليلا، أقام النبي ﷺ دولة الإسلام في صحراء شبه جزيرة العرب بصورة لم تكن تخطر على بال أحد ، وبعث رسله يدقون أبواب الدول المجاورة لجزيرة العرب[١]، إلى الحد الذي روى فيه الإمام مسلم عن أنس بن مالك ـ رضيَ الله عنه ـ «أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى؛ وليس بالنجاشي الذي صلى عليه»[٢]. إن كلمة النجاشي لقبٌ لملوك الحبشة في ذلك الزمان وليست اسم علمٍ على ملك بعينه؛ شأنها شأن كلمة (فرعون) بالنسبة لملوك مصر القديمة، وكلمة (المقوقس) بالنسبة لحكام مصر الذين كانت تعينهم الدولة الرومانية الشرقية.

وأهم من ذلك أنه ربى جيلا من الصحابة الأخيار الأبرار على وقع تنزّل الوحي وهديه، وبرعاية الله لنبيه ﷺ وعنايته به، حتى خرج من هذه التربية النبوية رجال ليس لهم فيمن بعدهم نظير، وصفهم سيد قطب، رحمه الله، بأنهم «جيل قرآني فريد»[٣]. استطاعوا أن يكملوا الرسالة من بعده، فخرجوا من الجزيرة العربية ليواجهوا الإمبراطوريتين العظيمتين لا للاستيلاء على مغانمَ وبلادٍ وأراضٍ، ولكن ليبلغوا رسالة ربهم ويخرجوا الناس من جور الحكام إلى عدل الإسلام.

---

(١) أحمد عادل كمال، السابق، ص ٣٨٠.

(٢) رواه مسلم ح (١٧٧٤).

(٣) سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٣، ص ١٤.

كان هدف الفتوح ـ وفتح مصر من بينها ـ هو بناء الإنسان المسلم الذي يعرف ربه حق المعرفة ويعبده كما ينبغي له سبحانه وتعالى، فتلك هي رسالة الإسلام[1] الحقة الخالدة كما قال القرآن الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، ولذلك كان قول المسلم إذا سئل عن إلهه: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر:١٤]، وكان محرمًا عليه أن يعبد سواه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود:٢]، وعلّمه القرآن أن الحاكم المستحق للعبادة هو رب العالمين: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف:٤٠]. والآيات في هذا المعنى الكلي عديدة، وقد حكاه القرآن على لسان أنبياء الله ورسله كافة. وهذه العبادة تتضمن بطريق اللزوم الخضوع لأوامر الله ونواهيه، أي التسليم بما شرعه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ.

* * *

لقد تم فتح مصر في نحو عامين ١٩هـ ـ ٢١هـ، واستقر الحكم الإسلامي فيها بعد هزيمة منويل الخصي سنة ٢٥هـ؛ وكانت هزيمته على يد قائد الفتح الأول: عمرو بن العاص الذي عاد إليها من المدينة بأمر الخليفة الثالث عثمان بن عفان، رضيَ الله عنه، بعد أن كان قد عزله وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فلما دخل منويل الإسكندرية وغلب عليها، أعاد عثمان بن عفان عمرو بن العاص ليقود المسلمين في هذه المواجهة الثانية مع الروم على أرض مصر.

وكان الجيش الإسلامي يضم عشرات من أصحاب رسول الله ﷺ الذين تربوا على يديه، وتعلّموا منه، وشاهدوا تنزل الوحي، فكان هؤلاء هم حملة الإسلام إلى مصر وأهلها. نعم، إن الذي يلاحظه بعض دارسي الفتح الإسلامي من أن الجيش المسلم لم يكن معه دعاة ومبشرون ينشرون الإسلام، صحيح. لكن أولئك الصحابة الكرام كانوا حملة الدين والدعوة إليه بعلمهم وخلقهم وسلوكهم، لا بالكلام الذي يكذبه العمل، كما يفعل كثيرون من الدعاة إلى المذاهب والأفكار في كل العصور. كان الواحد منهم يعرف أنه لم يخرج من بلده إلا لنشر هذا الدين، وأنه إذا حيل بينه وبين نشره سيقاتل حتى

(١) أحمد عادل كمال، السابق، ص ٣٨١.

ينتصر فتفتح له أبواب الدعوة إلى الله أو يموت شهيدًا. وكانوا على قول رجل واحد أنهم لا يريدون منازعة أحد في مُلكه أو حكمه ما تركهم يبلغون الناس دعوة النبي ﷺ.

وإذ كان هؤلاء الصحابة هم حملة الوحي والهدى، إلى مصر وأهلها، فإنه يحسن بنا ـ ونحن نختم حديث الفتح الإسلامي لمصر ـ أن نذكر طَرَفًا من أخبار بعض هؤلاء الصحابة. ولنقل قبل ذلك إن الصحابة الذين دخلوا مصر بلغ عددهم ٣٥٧ صحابيًا وصحابية؛ وإن الذين شهدوا فتح مصر منهم نحو ١٤٠ صحابيًا، والباقون «نزلوا مصر» أو «سكنوا مصر» أو «ماتوا بمصر»؛ ولكل واحد من هؤلاء أثره، بغير شك، في انتشار الإسلام واستقراره في مصر. وتأكيد هذه الحقيقة يقتضي تأمل قول ابن حزم الظاهري عن الصحابة: «كلهم عدل إمام فاضل رضيٌّ، فرضٌ علينا توقيرهم وتعظيمهم... وكل امرئ منهم... لا شك أفتى أهله وجيرانه وقومه...»[1]. لكل واحد من هؤلاء الصحابة، إذن، نوع مشاركة في الدعوة والتعليم وتفقيه الناس، لأن الناس، يومئذ، كانوا إذا نزل بهم أمر قالوا: أفيكم أحد من أصحاب محمد ﷺ؟ فإن وجدوه سألوه ولم يخالفوا قوله؛ فإن لم يجدوا صحابيًا سألوا عن التابعين، ولم يكن تعليم أولئك وهؤلاء للناس إلا من كتاب الله أو من سنة رسول الله ﷺ.

ولا يتسع المقام لذكر بعض أخبار هؤلاء جميعًا، فنكتفي بذكر بعض مشاهيرهم الذين كان لهم في الفتح أثر مذكور. وقد ذكرتُ بعض أخبار عمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو، فيما سلف، فلأذكر الآن غيرهما من الصحابة القوّاد، رضي الله عنهم أجمعين. ونحن نذكر ذلك لأمرين: أحدهما، التعرف على ذوي الفضل على بلادنا بنقلها من الوثنية، واختلاف عقائد الدين الواحد، إلى توحيد الله بالإسلام له. وثانيهما، أن نعرف أن الذين يخوضون في حياة هؤلاء الصحابة بالأباطيل والحكايات المخترعة مخطئون، بل جاحدون لفضلهم، وكفى بذلك نقيصة يرمي بها المرء نفسه.

١ ـ **الزبير بن العوام بن خويلد**، حواري رسول الله ﷺ، وابن عمته صفية، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد أعلام السادة السالفين البدريين، كما يقول الإمام الذهبي في ترجمته.

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام، ط الشيخ أحمد شاكر، القاهرة د.ت، ج٥ ص ٦٦٣ و٦٦٥؛ و ط دار الكتب العلمية، تحقيق محمد تامر، بيروت ٢٠٠٤، ص ٨٢ و٨٤

أسلم وله اثنتا عشرة سنة، وقيل ثمان سنين والأول أثبت. هاجر الهجرتين. وكان طويلا تخط رجلاه في الأرض إذا ركب. وكان له ألف مملوك يؤدون إليه عائد عملهم فكان يتصدق به كله، ولا يدخل بيته شيئًا منه. كان أحد الأربعة الذين قال فيهم عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص ـ رضي الله عنهم ـ إن كل واحد منهم يعدل ألفًا من الجند. قُتِل ـ رضيَ الله عنه ـ في أثناء رجوعه من وقعة الجمل مع علي بن أبي طالب ـ رضيَ الله عنه ـ فحزن عليه، وقال: بشِّر قاتل ابن صفية بالنار، ولما أُتي بسيفه قال: إن هذا سيف طالما فرَّج الكُرَبَ عن رسول الله ﷺ. كان مقتله في جمادى الأولى سنة ٣٦هـ وله ست وستون أو سبع وستون سنة. كان له بلاء عظيم في فتح مصر، ذكرنا بعضه فيما سلف، وقد اتخذ أملاكًا بمصر[(١)]. وهو أول من سلَّ سيفًا في سبيل الله فقد شاع بمكة خبر أن النبي ﷺ أخذه الكفار (أي أسروه)، فأقبل الزبير يشق الناس بسيفه، والنبي ﷺ بأعلى مكة، فقال مالك يا زبير؟ قال: أخبرت أنك أُخِذْتَ(!). فصلى عليه النبي ﷺ ودعا لسيفه[(٢)]. وقال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي حواريًا، وحواريَّ الزبير بن العوام»[(٣)]. والحواري هو الذي ينصر نبيًا، ولذلك سمَّى القرآن أصحاب عيسى عليه السلام بالحواريين: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

* * *

٢ ـ **المقداد بن عمرو أو ابن الأسود**، والأسود ليس أباه، وإنما تبناه وهو صغير، قبل تحريم التبني، أبوه هو عمرو بن ثعلبة بن مالك، وهو من قضاعة ولذلك يقال له المقداد بن عمرو والمقداد بن الأسود. وهو قديم الإسلام من السابقين،

(١) السيوطي، دُرُّ السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة، تحقيق حمزة النشرتي وآخرين، المكتبة القيمة، القاهرة (د.ت)، رقم ١٠١ ص ٦٥.

(٢) ابن الأثير، أسد الغابة، رقم ١٧٣٢، ج٢ ص ٢٤٩.

(٣) المرجع السابق، عن علي بن أبي طالب ص ٢٥٠.

هاجر إلى الحبشة، ثم عاد إلى مكة، فلم يقدر على الهجرة إلى المدينة عندما هاجر إليها رسول الله ﷺ فتربص حتى بعث رسول الله ﷺ، قبل غزوة بدر، عبيدة بن الحارث في سرية، فلقوا جمعًا من المشركين عليهم عكرمة بن أبي جهل، وكان في المشركين المقداد بن الأسود وعتبة بن غَزْوان، كانا قد خرجا ليتوصلا إلى المسلمين، ولم يقع بين الفريقين قتال، لكن المقداد وعتبة انحازا إلى المسلمين ورجعا معهم إلى المدينة. وشهد بدرًا وكان له فيها مقام مشهود إذ استشار رسول الله ﷺ أصحابه فتكلم أبو بكر ثم عمر فأحسنا، ثم قام المقداد فقال: «يا رسول الله امض لما أمرت به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق نبيًا لو سرت بنا إلى بِرْكِ الغُماد[١] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله خيرًا، ودعا له».

وهو من أول سبعة أظهروا الإسلام بمكة، قيل لم يكن في بدر صاحب فرسٍ غيره وقيل كان على فرسٍ، أيضًا، الزبير بن العوّام، أحدهما على ميمنة رسول الله ﷺ والثاني على ميسرته[٢].

وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وقد ذكره النبي ﷺ في الحديث الذي فيه - إن صح - «إن الله أمرني بحب أربعة، قالوا سمِّهم لنا يا رسول الله، قال: عليٌّ منهم (قالها ثلاثا) وأبو ذر والمقداد وسلمان»[٣].

غزا مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح إفريقية فلما رجعوا قال له عبد الله في

(١) برك الغماد بكسر الباء وضم الغين وكسرها والكسر أشهر، قيل موضع على مسيرة خمس ليالٍ من مكة، وقيل بلد باليمن، راجع: ياقوت، معجم البلدان، رقم ١٧٩٩، ج١ ص٤٧٥.

(٢) وفي بعض روايات السيرة أن المسلمين كان معهم يوم بدر ثلاثة أفراس، الشيخ محمود البيلاوي، السابق، ص ٥٨.

(٣) خرَّجه الشيخ شعيب الأرنؤوط في سير أعلام النبلاء، السابق، ج١ ص٣٨٩، وقال: في سنده شَريك بن عبد الله القاضي وهو ضعيف وقد تفرَّد به، وشيخه أبو ربيعة الإيادي لم يوثق، والحديث في مسند أحمد وسنن ابن ماجة وسنن الترمذي وقال عنه: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ح(٣٨٠٢)، وقال الحافظ ابن حجر: وسنده حسن والصحيح ما قاله الترمذي وشعيب، والله أعلم.

دار بناها: كيف ترى هذه الدار؟ قال: إن كان من مال الله فقد أفسدت، وإن كان من مالك فقد أسرفت(!) فقال عبد الله: لولا أن يقول قائل: أفسدتُ مرتين لهدمتها[1]!

وليس معنى هذا القول أن البناء كان من المال العام، وإنما أراد عبد الله بن سعد بقوله (أفسدت) أن الإسراف نفسه نوع من الفساد. وهو كذلك بلا مراء(!)

توفي المقداد بالمدينة في خلافة عثمان ـ رضيَ الله عنهما ـ وأوصى إلى الزبير بن العوّام (يعني بتنفيذ وصيته) وهذه القصة الصحيحة، وأمثالها، تبين لنا مدى الصلة بين هؤلاء الصحابة الكرام، بعضهم وبعض. إنهم لم يكونوا مجرد أفراد ارتبط كل منهم برسول الله ﷺ على حدته، إنما كانوا جماعة عظيمة متآلفة يسطع نورها وهي مجتمعة، ويتآلف أفرادها ويتحابون، مثلهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى. ثم إن لكل واحد منهم نوره الخاص الذي يضيء لمن حوله ولمن تبعه من الناس طريقهم فيمضوا فيه مهديين هداة. وذلك بعض معنى قول النبي ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم...»[2].

* * *

٣ـ **عبادة بن الصامت** بن قيس بن أصرم الأنصاري الخزرجي، واسم أمه قرة العين بنت عبادة بن فَضْلة بن مالك العجلان. قال السيوطي ليس في الصحابيات من هذا اسمها سواها[3].

شهد العقبتين، وكان نقيبًا على بني عوف بن الخزرج[4].

---

(١) ابن الأثير، أسد الغابة، رقم ٥٠٩٦، ج٥ ص٢٥١؛ ودر السحابة، السابق، رقم ٢٧٣ ص١١٥.

(٢) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود وعمران بن حصين، البخاري ح (٤٦٢٨) و(٤٦٢٩) ومسلم ح (٢٥٣٣) و(٢٥٣٥).

(٣) لم يكونوا يخجلون، كما يفعل بعضنا الآن، من ذكر أسماء الأمهات والبنات والزوجات(!)

(٤) يقال لهم القواقل نسبة إلى قوقل وهو غَنْم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، ابن الأثير ترجمة رقم ٢٧٨٩، ج٣ ص١٦٠.

آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي مرثد الغنوي، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله، واستعمله ﷺ على بعض الصدقات (الزكاة) وقال له: اتق الله، لا تأتي يوم القيامة ببعير تحمله له رُغاء، أو بقرة لها خُوار، أو شاة لها ثُؤاج! قال: فوالذي بعثك بالحق لا أعمل على اثنين!

حفظ القرآن على عهد رسول الله ﷺ وكان يعلمه لأهل الصُفة. وأرسله عمر ومعه معاذ بن جبل وأبو الدرداء ليعلموا الناس القرآن بالشام ويفقهوهم في الدين. واختلف معه معاوية بن أبي سفيان في شيء أنكره عليه عُبادةُ، فأغلظ له معاوية القول فقال: لا أساكنك بأرض واحدة أبدًا (!) وعاد إلى المدينة، فقال له عمر: ما أَقْدَمَكَ؟ فأخبره، فقال عمر: ارجع إلى مكانك؛ فقبَّح الله أرضًا لست فيها أنت ولا أمثالك(!) وكتب إلى معاوية: لا إمرة لك عليه. وهو أول من ولي قضاء فلسطين، وكان مرجع أهلها مدة بقائه فيها، وكان مرجع أهل الشام (دمشق) مدة بقائه فيها. وبايع رسول الله ﷺ على أن لا يخاف في الله لومة لائم[1]. وهو أمر لا يقدر عليه إلا أولو العزيمة القوية من المؤمنين كما وصف الله تعالى أنبياءَه بأنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ... ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

توفي ـ رضيَ الله عنه ـ بالرملة، وقيل ببيت المقدس، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة[2].

* * *

٤ ـ **مَسْلَمَةُ بن مُخلَّد** بن الصامت بن نيار الأنصاري الخزرجي، ولد عند قدوم النبي ﷺ المدينة مهاجرًا وقيل كان له يومئذٍ أربع سنين. فعلى الأول تكون له عشر سنين عند وفاة النبي ﷺ وعلى الثاني يكون ابن أربع عشرة سنة عندئذٍ.

شهد بعد النبي ﷺ فتح مصر، وسكنها، ثم تحول إلى المدينة، واستعمله معاوية

(١) جملة من حديث متفق عليه عنه، البخاري ح(٧١٩٩ و٧٢٠٠)، ومسلم ح(١٧٠٩).
(٢) ابن الأثير، السابق، رقم ٢٧٨٩، ج٣ ص ١٦٠؛ والسيوطي، در السحابة، رقم ١٤٤ ص٧٨.

على مصر والمغرب وهو أول من جُمعا له، وجَمَعَ له الصلاة والأموال. أي كان واليًا على البلدين من الناحيتين السياسية والمالية، وكان المعتاد أن يولّى شأن المال جمعًا وإنفاقًا والٍ مستقل عن حاكم البلد، لكن مَسْلَمة بن مخلَّد جُمِعَ له أمر الولايتين معًا.

وكان من أحسن الناس حفظًا للقرآن الكريم، قال مجاهد[1]: كنت أرى أني أحفظ الناس للقرآن حتى صليت خلف مَسْلَمة بن مُخلَّد الصبح، فقرأ سورة البقرة، فما أخطأ فيها واوًا ولا ألِفًا.

ركب إليه عقبة بن عامر - رضيَ الله عنه - وهو أمير بمصر يسأله عن حديث سمعاه من رسول الله ﷺ[2]. وكان إذا قرأ في المحراب يُسمع صوت سقوط دموعه[3]. ولم يكن أحد يسمع قراءته إلا بكى، أي من شعور السامع بخشوع القارئ.

مات بمصر سنة ٦٢هـ، وقيل مات بالإسكندرية، وقيل بل مات بالمدينة، تحول إليها من مصر وهذا لا يصح فإن قبره بمصر ومسجده معروفان[4]، بمذبح الجبل في مصر القديمة، وفيها شارع باسمه[5].

* * *

٥ - **خارجة بن حذافة العدوي**، وقيل السهمي، وهو ابن غانم بن عامر بن عبد الله... القرشي العدوي.

كان أحد فرسان قريش، يقال: إنه يُعدَلُ بألف فارس، شهد فتح مصر، وكان قاضيًا لعمرو بن العاص، وقيل كان على الشُّرَطِ (أي قائدًا للشرطة) له بمصر

---

(١) مجاهد بن جبر تابعي، تلميذ عبد الله بن عباس روى عنه فأكثر وأطاب، وعنه أخذ التفسير والقرآن والفقه وعن عدة آخرين من الصحابة؛ مات وهو ساجد سنة ١٠٢هـ، ولم يكن أحد يسمع قراءته إلا بكى؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، رقم ٥٥٣، ج٤ ص٤٤٩.

(٢) ابن حجر، الإصابة، رقم ٧٩٩١، ج٣ ص٣٩٨.

(٣) سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج٢ ص ٣٤؛ وهي تنقل عن الواقدي.

(٤) ابن الأثير، أسد الغابة، رقم ٤٩١٧، ج٥ ص١٧٤؛ والسيوطي، در السحابة، رقم ٢٦١ ص١١١.

(٥) سعاد ماهر، الموضع السابق نفسه.

(أي لعمرو). ولم يزل بمصر حتى قتله أحد الخوارج الثلاثة الذين انتدبوا لقتل علي ومعاوية وعمرو، فأراد الخارجي قتل عمرو، فقتل خارجة وهو يظنه عَمْرًا(!) فأُخِذَ وأدخل على عمرو، فقال على من تدخلونني؟ قيل على عمرو قال: ومن قتلتُ؟ قيل: خارجة، فقال: أردتُ عمْرًا وأراد الله خارجةً، وقيل إن هذه العبارة من قول عمرو للخارجي. وكان سبب ذلك أن عمرًا مرض فاستخلف خارجة بن حذافة على الصلاة، فقتله الخارجي في الليلة نفسها التي قتل فيها علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما. وفي ذلك يقول الشاعر:

فليتها إذ فدت عمرًا بخارجة
فدت عليًا بمن شاءت من البشر(!)

وكان خارجة قد أسلم يوم فتح مكة، ولم يروِ عنه حديثه غير المصريين.

وقال ابن الأثير: «وقبره معروف بمصر عند أهلها» وكذا قال ابن عبد البر في الاستيعاب[1]. ولم أجد من ذكر موضع قبره في قبور الصحابة بمصر. والله أعلم أين هو.

* * *

٦ ـ **سعد بن أبي وقاص**، وهو سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة، القرشي، كنيته أبو إسحاق. أسلم بعد ستة، وقيل بعد أربعة، وكان عمره حين أسلم سبعَ عشرة سنة، ورُوي عنه أنه قال: أسلمت قبل أن تفرض الصلاة. وهو أحد الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين أخبر عمر ـ رضيَ الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ توفي وهو عنهم راضٍ.

شهد بدرًا وأحدًا والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وهو أول من أراق دمًا في سبيل الله، وأول من رمى بسهم في سبيل الله. فأما إراقة الدم: فقد كان المسلمون يستخفون في مكة بصلاتهم فبينما سعد في نفر من المسلمين

(١) ابن الأثير، السابق، ج٢ ص ٨٣؛ وابن عبد البر، الاستيعاب، في معرفة الأصحاب، بهامش الإصابة لابن حجر، ط دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت)، ج١ ص ٤٢٠.

في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين، فناكروهم (أي أنكروا عليهم عبادتهم) وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم، فاقتتلوا، فضرب سعدٌ رجلا من المشركين بلَحْي جمل[1] فَشَجَّهُ، فكان أول دم أريق في الإسلام. وأما الرمي بالسهام فكان يوم أُحد عندما التقى المسلمون بالمشركين. وهو فاتح القادسية وفاتح المدائن وباني الكوفة. وقال عمر عندما جعله في أصحاب الشورى: إني لم أعزله عن عجز ولا خيانة ـ وذلك أنه كان عزله عن العراق ـ فإن ولي الإمارة فذاك إلا فإني أوصي الخليفة بعدي أن يستعمله.

وقد قال عنه رسول الله ﷺ وقد أقبل على مجلسه: «هذا خالي فليرني امرؤ خاله». وإنما ذلك لأن أمه زهرية وأم رسول الله زهرية وهو ابن عمها، يجتمعان في عبد مناف، وأهل الأم كلهم أخوال. ودعا له رسول الله ﷺ فقال: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك» فكان لا يدعو إلا استجيب له. ولم يجمع رسول الله ﷺ لأحد أباه وأمه إلا لسعد، فقد كان يقول له يوم أحد: «ارم فداك أبي وأمي» وروي أنه جمعهما للزبير أيضًا.

واعتزل سعد الفتنة لما قُتِلَ عثمان، وأبى أن يكون في أحد الفريقين[2]. وكان يقول لمن دعاه إلى المشاركة فيها: أريد سيفًا إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئًا، وإذا ضربت به الكافر قطع»[3]، واستشاره رجل في الفتنة: ما يصنع؟ فقال له: ألك غنم؟ قال: لا قال فاشترِ غنمًا فكن فيها حتى تنجلي[4]. قال الإمام الذهبي: «اعتزل سعد الفتنة، فلا حضر الجمل ولا صفين ولا التحكيم، ولقد كان أهلا للإمامة، كبير الشأن ـ رضيَ الله عنه»[5].

نقل السيوطي عن ابن الربيع[6] أنه شهد فتح مصر، ثم دخلها رسولا من قبل

(١) اللَّحْي عَظْمُ الفك وهو موضع الأسنان من الإنسان والحيوان.
(٢) ابن الأثير، السابق، رقم ٢٠٣٧، ج٢ ص٣٦٦.
(٣) ابن حجر، الإصابة، السابق، ج٢ ص ٣١؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١ ص ١١٩.
(٤) الذهبي، السابق، ص ١٢٠.
(٥) المرجع السابق، ص ١٢٢.
(٦) السيوطي، در السحابة، السابق، ص ٧١.

عثمان ـ رضيَ الله عنه. وكان آخر العشرة المبشرين بالجنة وفاةً، توفي سنة خمس وخمسين ودفن بالبقيع ـ رضيَ الله عنه[1].

* * *

٧ ـ **عبد الله بن عباس** بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ابن عم رسول الله ﷺ كان يسمى البحر لكثرة ما كان لديه من العلم، ويسمى حَبر الأمة (أي عالمها، وهي بكسر الحاء وفتحها)، دعا له رسول الله ﷺ مرتين، وقد صح عنه ـ رضيَ الله عنه ـ أن رسول الله ضمه وقال: «اللهم علّمه الحكمة». ومن المأثور عن جابر بن زيد ـ رضيَ الله عنه ـ أنه كان يقول: أدركت سبعين صحابيًا فاغترفت ما عندهم كلهم إلا البحر، أي عبد الله بن عباس[2].

كان عمر إذا جاءته الأقضية المعضلة دعا ابن عباس وقال له: «إنها قد طرت (أي طرأت) علينا أقضية عُضَل، فأنت لها ولأمثالها» ثم يأخذ بقوله، وما كان يدعو لذلك أحدًا سواه، قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، راوي هذا الخبر، «وعُمَرُ عُمَرْ» أي في حِذْقه واجتهاده.

قيل لطاوس (وهو تابعي جليل)[3] «لَزِمتَ هذا الغلام ـ يعني ابن عباس ـ وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ»! قال: «إني رأيت سبعين رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارءوا في أمر صاروا إلى قول ابن عباس».

ولد ـ رضيَ الله عنه ـ في شعب بني هاشم حين حَصَرَتْ قريش رسول الله والمسلمين فيه، وكان له عند موت رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة[4]؛ وقيل خمس عشرة سنة[5].

---

(١) السيوطي، السابق، والذهبي، السابق، ص ١٢٣، وفيه أنه كان آخر المهاجرين وفاة.

(٢) الشيخ سالم حمّود السيابي، إزالة الوعثاء عن أتباع أبي الشعثاء، تحقيق سيدة إسماعيل الكاشف، القاهرة ١٩٧٩، ص ١٩.

(٣) كان من الزهاد العباد وترجمته في سير أعلام النبلاء، ج٥ ص ٣٨؛ وفي الحلية لأبي نعيم، ج٤ ص٤؛ وفي طبقات الصوفية للمناوي، ج١ ص ٣٣٥.

(٤) ابن الأثير، أسد الغابة، رقم ٣٠٣٥، ج٣ ص٢٩٠؛ وابن حجر، الإصابة، ج٢ ص٣٢٢.

(٥) الذهبي السابق، ج٣ ص ٣٣٦.

حَدَّثَ عن نفسه أنه لما قبض رسول الله ﷺ قال لرجل من الأنصار: «هلم نسألْ أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير» قال: «واعجبا لك يا ابن عباس! تظن الناس يفتقرون إليك؟» قال ابن عباس: فترك ذلك (أي الأنصاري) وأقبلت أسأل فإن كان ليبلغني الحديث عن رجل فآتي بابه وهو قائل[1] فأتوسد ردائي على بابه، يَسفي علي الريح من التراب، فيخرج فيراني فيقول: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ هلا أرسلت إليَّ فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث. فعاش الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألوني، فقال: «هذا الفتى كان أعقل مني»[2]. وكان عبد الله بن مسعود يقول: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس»[3].

قال فيه الحافظ الذهبي: «حبر الأمة، وفقيه العصر، وإمام التفسير... روى عنه من أهل مصر خمسة عشر نفسًا... كان يقول: إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ.... قال له أبوه، العباس بن عبد المطلب، يا بنيَّ! إن عمر يدنيك، فاحفظ عني ثلاثًا: لا تفشيَّن له سرًا، ولا تغتابَّن عنده أحدًا، ولا يجرِّبن عليك كذبًا... خرج معاوية حاجًا ومعه ابن عباس، فكان لمعاوية موكب (أي من حاشيته من أصحاب الدولة وموظفيها ولابن عباس موكب ممن يطلب العلم... أتاه أبو أيوب الأنصاري وهو والٍ على البصرة لعلي رضي الله عنهم فشكا دَينًا عليه (كان قد شكاه إلى معاوية قبله فلم يَرَ منه ما يحب!) فقال له ابن عباس لأصنعن بك كما صنعتَ برسول الله ﷺ (أي كما صنع أبو أيوب)، ففرَّغ له بيته، ثم قال: كم دينك؟ قال عشرون ألفًا. فأعطاه أربعين ألفًا، وعشرين مملوكًا وكل متاع البيت... مسنده ألف وستمائة وستون حديثًا. توفي سنة ثمانٍ وستين بالطائف ودفن بها»[4].

---

(١) أي نائم وقت الظهيرة.

(٢) ابن حجر، الإصابة، السابق، ص ٣٢٣؛ والذهبي، السابق، ج٣ ص ٣٤٢.

(٣) ابن حجر، السابق، ص ٣٢٤.

(٤) الذهبي، السابق، ج٣ ص ٣٣١-٣٥٩.

وسوف نرى في ترجمة أبي أيوب ـ رضيَ الله عنه ـ ما كان فعله برسول الله، مما أحب ابن عباس أن يجزيه عليه.

* * *

٨ ـ **أبو هريرة، عبد الرحمن بن صخر الدوسي، اختلف في اسمه على أقوال** أرجحها: عبد الرحمن بن صخر، وقيل كان اسمه في الجاهلية عبد شمس[١].

والمشهور عنه أنه كنيَّ بأولاد هرة برية، قال وجدتها فأخذتها في كُمّي فكنيت بذلك. كان يقول: كناني رسول الله أبا هر، فكان يقول: «ثكلتك أمك يا أبا هر». والذكر خير من الأنثى[٢]!

حمل عن النبي ﷺ علمًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ـ لم يلحق في كثرته ـ وروى عن أبي بكر، وعمر، وأسامة (أي ابن زيد)، وعائشة، والفضل (أي ابن عباس)، وبصرة بن أبي بصرة، وكعب الحَبر (وهو المسمى بكعب الأحبار).

حدَّث عنه خلق كثير من الصحابة والتابعين، حتى قال البخاري: روى عنه ثمانمئة راوٍ وأكثر.

وفي الصحيحين عنه ـ رضيَ الله عنه ـ أنه قال: «إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، والله الموعد[٣]. كنت رجلا مسكينًا أخدم رسول الله ﷺ على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصَّفقُ بالأسواق، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، وقال رسول الله ﷺ: «من يبسط ثوبه فلن ينسى شيئًا سمعه مني» فبسطت ثوبي حتى قضى حديثه، ثم ضممته إليَّ، فما نسيت شيئًا سمعته منه»[٤]. ومعنى (على ملء بطني) أنه كان يكتفي

---

(١) قال ابن الأثير في أسد الغابة: «كل ما في هذه الأسماء من التعبيد فلا شبهة أنها غيرت في الإسلام فلم يكن النبي ﷺ يترك اسم أحد: عبد شمس أو عبد غَنْم أو عبد العزى أو غير ذلك» ابن الأثير، السابق، رقم ٦٣١٩، ج٦ ص٣١٩. وقال الإمام البخاري: «... لولا الاقتداء بهم لتركنا هذه الأسماء فإنها كالمعدوم، لا تفيد تعريفًا، وإنما هو مشهور بكنيته»؛ نقله ابن الأثير، السابق، ص ٣٢٠.

(٢) هذه الجملة الأخيرة من كلام أبي هريرة على الأصح، والله أعلم.

(٣) يعني أن الله يحكم بيني وبينكم في هذا الذي تقولونه عني.

(٤) البخاري ح (١١٨) وفي مواضع أخرى، ومسلم ح(٢٤٢٩).

بالقليل من الزاد الحلال، وأنه كان قليل القوت، ولم يكن أكولا شَرِهًا، فكان يستغنى بهذا القليل الذي يحصله بأدنى جهد في العمل ليصحب النبي ﷺ في أغلب أوقاته ويتعلم منه ويحفظ عنه. وليس هذا من الخدمة بأجرة هي طعامه، ومن قال هذا فهو لم يفهم معنى الكلام.

قال عن نفسه: قدمت المدينة مهاجرًا، فصليت الصبح خلف سباع بن عُرْفُطَة - كان النبي قد استخلفه - فقرأ في السجدة الأولى بمريم وفي الآخرة بـ {ويل للمطففين} فقلت: ويل لأبي(!) قلَّ رجل كان بأرض الأزد إلا وكان له مكيالان: مكيال لنفسه؛ وآخر يبخس به الناس(!!)(١)

صحب رسول الله ﷺ أربع سنين(٢)، وكان الشافعي رحمه الله يقول: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره(٣).

روى البخاري عنه أنه قال: «ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثًا عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب»(٤). ومع ذلك فإن الحديث المروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أقل بكثير من الحديث المروي عن أبي هريرة. وقد قال العلماء إن لذلك أسبابًا: منها: اشتغال عبد الله بالجهاد، وخروجه في الفتوح أكثر من اشتغاله بالتعليم؛ ومنها أن أكثر مقامه كان بمصر أو بالطائف، ولم تكن الرحلة إليهما كالرحلة إلى المدينة التي كان أبو هريرة فيها مقيمًا ومتصديًا للفتوى والتحديث؛ ومنها أن النبي ﷺ اختص أبا هريرة بالدعاء له ألا ينسى ما حدَّث به؛ ومنها تحديث عبد الله بن عمرو بما جمعه من كتب أهل الكتاب، التي وجدها في الشام، فتجنب الأخذَ عنه كثيرٌ من أئمة التابعين(٥).قيل إنه التقى بعلماء

(١) طرقه في سير أعلام النبلاء، ج٢ ص ٥٨٩ هامش (١) والهوامش من صنع الشيخ شعيب الأرنؤوط.
(٢) االذهبي، السابق، ص ٥٩٠.
(٣) الذهبي، السابق، ص ٥٩٩.
(٤) البخاري ح(١١٣).
(٥) الذهبي، السابق، ج٢ ص ٥٩٩، هامش (٤). وقس على هذه الأسباب، وأضف إليها نظائرها، في شأن سائر الصحابة، تعرف لماذا تفاوتت رواياتهم كمًا ولم تطَّرد مع طول الصحبة للنبي ﷺ.

النصارى وأحبار اليهود في الشام وحمل من علمهم وِقْرَ بعير من الكتب فخشي كبار التابعين أن يختلط ما عنده عن رسول الله ﷺ بما تعلمه من علم أهل الكتاب فتجنبوا الإكثار من الرواية عنه.

دعا أبو هريرة يومًا لنفسه، فقال: «اللهم إني أسألك علمًا لا يُنْسى» فقال النبي ﷺ «آمين»[1]. مسنده خمسة آلاف وثلاث مئة وأربعة وسبعون حديثًا؛ وعدَّه ابن حزم في (الإحكام في أصول الأحكام) من المتوسطين في الفتيا الذين يجمع من فتاوى كل واحد منهم جزء صغير[2].

قدم مصر على مَسْلَمة بن مُخلَّد، وروى عنه المصريون ثلاثة وثلاثين حديثًا[3].

وتوفي أبو هريرة - رضيَ الله عنه - سنة سبع وخمسين - وقيل ثمان وخمسين - بالمدينة وصلى عليه الوليد بن عقبة بن أبي سفيان بعد صلاة العصر[4].

* * *

٩ - **أبو أيوب الأنصاري**، واسمه خالد بن زيد ونسبه في بني النجار من الخزرج. شهد بيعة العقبة الثانية وبدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان مع علي بن أبي طالب ومن خاصته.

نزل رسول الله ﷺ في بيته عندما قدم المدينة مهاجرًا حتى بنى المسجد وبنى مساكنه فانتقل إليها، فذلك قول ابن عباس له - كما تقدم - لأصنعن بك كما صنعت برسول الله ﷺ. وآخى ﷺ بينه وبين مصعب بن عمير.

عندما سكن رسول الله ﷺ بيت أبي أيوب ترك له هو وزوجتُه الغرفة العليا، وقال «ما ينبغي أن نكون فوقك».

لزم الجهاد، وكان يقرأ قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]

---

(١) الذهبي، السابق، ص ٦٢٨.
(٢) ابن حزم، الإحكام، السابق، ص ٨٥.
(٣) السيوطي، در السحابة، السابق، رقم ٣٣٧ ص١٣٦.
(٤) ابن حجر، السابق، رقم ١١٩٠، ج٤ ص ٢٠٠ و٢٠٨.

فيقول ما أجدني إلا خفيفًا أو ثقيلا، لم يتخلف عن الجهاد إلا عامًا واحدًا ـ زمن معاوية ـ أُمِّر على الجيش رجل شاب، فقعد ذلك العام؛ فجعل بعد ذلك يتلهف ويقول: وما عليَّ من استُعْمِل عليَّ[1]؟!

استخلفه عليٌّ على المدينة عندما خرج إلى العراق، ثم لحق به وشهد معه قتال الخوارج.

وهو أحد رواة الحديث الصحيح: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»[2].

قدم مصر في البحر سنة ست وأربعين[3] غازيًا، وكان قد شهد فتحها، ولأهل مصر عنه نحو عشرين حديثًا[4].

توفي مجاهدًا سنة اثنتين وخمسين للهجرة؛ فقد كان في الجيش الذي غزا القسطنطينية، وعليه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فمرض أبو أيوب، فعاده يزيد، فسأله عن حاجته؟ قال: حاجتي إذا أنا مت فاركب ثم سُغْ (أي ادخل) في أرض العدو ما وجدت مساغًا، فإن لم تجد مساغًا فادفنّي ثم ارجع، فتوفي، ففعل الجيش ذلك، ودفنوه بالقرب من القسطنطينية.

ومن الطريف أن القبر الذي أراد أبو أيوب أن يكون في أقصى أرض الروم قد أصبح الآن داخل العمران، وبُني عليه مسجد يعتز به الأتراك اعتزازًا كبيرا، ويطلقون عليه ـ رضيَ الله عنه ـ سلطان أيوب(!) إجلالا له وتقديرا. وإذا استسقى أهل القسطنطينية استسقوا عند قبره[5]؛ فخلَّدَ الله ذكره في أرض لم يكن لله تعالى فيها ذاكر عندما دفن فيها أبو أيوب، رحمه الله تعالى.

* * *

(١) ابن الأثير، أسد الغابة، السابق، رقم ١٣٦١، ج٢ ص٩٤ و٩٦، ورقم ٥٧٠٧، ج٦ ص ٢٥.

(٢) أخرجه أحمد في المسند، والطبراني في معجمه. والمتن متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود، ومن حديث أبي ذر. راجع: الذهبي، السابق، ج٢ ص ٤٠٤ هامش(٢).

(٣) الذهبي، السابق، ص ٤٠٦.

(٤) السيوطي، در السحابة، السابق، رقم ٢٩٣ ص١٢١.

(٥) ابن الأثير، السابق، ج٢ ص ٩٦؛ والذهبي، السابق، ص ٤٠٥؛ والسيوطي، السابق، ص ١٢١.

١٠ ـ **أبو الدرداء**، عويمر بن زيد بن قيس، ويقال ابن عامر، الأنصاري الخزرجي.

قال فيه الذهبي: «الإمام القدوة، قاضي دمشق، وسيد القراء بها، حكيم هذه الأمة... وهو معدود فيمن تلا القرآن على النبي ﷺ ولم يبلغنا أبدًا أنه قرأ على غيره، وهو معدود فيمن جمع القرآن في حياة رسول الله ﷺ».

تأخر إسلامه فلم يشهد بدرًا، لكنه شهد أُحدًا وما بعدها. أمره رسول الله ـ يوم أحد ـ أن يرد من على الجبل من المشركين فردهم وحده، وقال النبي «نعم الفارس عويمر»[١].

وألحقه عمر في الفريضة بالبدريين لحسن بلائه في الإسلام، وكان الصحابة يقولون أتْبَعُنا للعلم والعمل أبو الدرداء. وكان ابن عمر يقول: حدثونا عن العاقلين، فيقال: من العاقلان؟ فيقول: معاذ وأبو الدرداء[٢].

كان يحضر حَلْقَتَهُ للقرآن في دمشق أكثر من ألفٍ وستمائة، فكانوا يقرأون عشرة عشرة لكل عشرة ملقن يقرئهم ويصحح لهم، وأبو الدرداء يطوف عليهم واقفًا فمن أتم وأجاد انتقل إلى العَرْض عليه، وهو أول من سنَّ الحِلَق للقراءة[٣]. وكان يقول عن نفسه لولا ثلاث ما أحببت البقاء: ساعةُ ظمأ الهواجر (الهاجرة شدة الشمس وقت الظهيرة، والمقصود بذلك ظمأ الصائم في اليوم الشديد الحر)، والسجودُ في الليل، ومجالسةُ أقوام ينتقون جيد الكلام كما ينتقى أطايب الثمر[٤].

آخى الرسول ﷺ بينه وبين سلمان الفارسي[٥]. شهد فتح مصر، ولهم عنه خمسة أحاديث[٦]. رأى صاحب ذنب والناس يسبونه، فنهاهم. قالو أفلا نُبْغِضُه؟ قال: إنما أُبْغِضُ عمله، فإذا تركه فهو أخي.

---

(١) الذهبي، السابق، ج٢ ص٣٣٥ و٣٣٦ و٣٣٨، والحديث مرسل كما قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في هامش (٣) ص ٣٣٨.

(٢) الذهبي، السابق، ص ٣٤٣.

(٣) الذهبي، السابق، ص ٣٤٦ و٣٥٣.

(٤) الذهبي، السابق، ص ٣٤٩.

(٥) المصادر السابقة.

(٦) السيوطي، السابق، ص ١٢٣.

توفي في دمشق سنة اثنتين وثلاثين، قبل عثمان بسنتين. ولما حضرته الوفاة دعا ولده بلالاً فقال: ويحك يا بلال! اعمل للساعة، اعمل لمثل مصرع أبيك، واذكر به مصرعك وساعتك، فكأن قَد، ثم قُبض.

* * *

وذكر السيوطي في الصحابة الذين دخلوا مصر أو شهدوا فتحها:

١ ـ **أبو رافع القبطي**: مولى النبي ﷺ، اسمه أسلم. كان إسلامه قبل بدر ولم يشهدها؛ شهد أحدًا والخندق وما بعدهما، وشهد فتح مصر وله بها خطة توفي بالمدينة في خلافة علي ـ رضيَ الله عنه، وقيل في خلافة عثمان ـ رضيَ الله عنه[(١)].

٢ ـ **صالح القبطي**: يقال إنه خرج إلى النبي ﷺ مع مارية من مدينتها ثم عاد إلى مصر إما مع جيش الفتح وإما بعده[(٢)].

٣ ـ **يعقوب القبطي**: مولى أبي مذكور الأنصاري، له قصة في صحيح البخاري في كتاب البيوع، باب بيع الإمام على الناس أموالهم وضياعهم[(٣)].

٤ ـ **جبر بن عبد الله القبطي**: وهو رسول المقوقس إلى النبي ﷺ الذي بعث معه مارية القبطية برفقة حاطب بن أبي بلتعة، وكان مولىً لأبي بصرة الغفاري ويقال كان مولى لبني غفار، وكان قوم يزعمون أنه منهم (أي من بني غفار)، كان له ذرية بمصر توفي سنة ٦٣هـ[(٤)].

٥ ـ **رقب المصري**: ذكره السيوطي في در السحابة، ولم أجد ترجمته[(٥)].

---

(١) ترجمته في أسد الغابة، السابق، رقم ٥٨٧٦، ج٦ ص١٠٦؛ وفي الإصابة، السابق، رقم ٣٩١، في باب الكنى، ج٤ ص٦٨. وتعبير له بها خطة معناه أن له أملاكًا عقارية.

(٢) ترجمته في الإصابة، السابق، رقم ٤٠٢٦، ج٣ ص١٦٨.

(٣) ترجمته في أسد الغابة، السابق، رقم ٥٦٣٩، ج٥ ص ٥٢٣؛ والحديث في صحيح البخاري رقم (٧١٨٦) و(٢١٤١) ومواضع أخرى وهو مروي عن جابر بن عبد الله ـ رضيَ الله عنه.

(٤) ترجمته في أسد الغابة، السابق، رقم ٦٧٥، ج١ ص٣١٧؛ وفي الإصابة، السابق، رقم ١٠٦٤، ج١ ص ٢٢٢.

(٥) السيوطي، در السحابة، السابق، رقم ٩٩ ص٦٤.

وهذا العرض، شديد الإيجاز، لأخبار هؤلاء الصحابة القبط (أصلا) أو المصريين، ينقض بلا ريب مقولة ذاك القائل إن «المسلمين ضيوف على أهل البلد من القبط». إذا كان العرب كذلك ـ وهو كلام باطل كما بيّنا في فصول هذا الكتاب ـ فماذا يقول في هؤلاء (القبط) الذين لهم عقب بمصر؟ هل سيعدهم ضيوفًا كسائر العرب عنده؟؟ إن هذا الأمر كله ليس إلا كما قال القرآن الكريم: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ...﴾ [غافر:٥٦].

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١).

* * *

إن مجموع من ذكرنا خمسة عشر، من نحو ثلاثمائة وخمسين صحابيًا، شاركوا في الفتح الإسلامي لمصر، أو نزلوها وعلّموا الناس فيها دينهم. ولكل واحد منهم فضل على كل مسلم في مصر، ومن الواجب أن يعرفَ كلٌّ منا من استطاع منهم، وشيئًا ولو يسيرا من سيرته فإن الآخِرين لا يَبْقَوْنَ إلا بما غَرَسَهُ الأوَّلونَ، ولولا الأوَّلُ ما كان الآخِرُ.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

ملحق (١)

وحـدة الأصـل(*)

(*) صفحات من الجزء الثاني من كتاب الدكتور جمال حمدان، رحمه الله، (شخصية مصر).

وحدة الأصل

تلك هي خريطة المسيحية أو جغرافية الأقباط في مصر، فماذا تعني سياسيًا من حيث النسيج والتماسك الچيوبوليتيكي والوحدة الوطنية والسياسية؟ ابتداء. إن كثافة المسيحية تزداد كلما تعمقنا جنوبًا، أي كلما بعدنا عن مدخل الإسلام من الشمال، فهذا لا يعني مطلقًا أن الموجة العربية الإسلامية - إذا كان لنا أن نضع الحاضر في إطار الخلفية التاريخية - قد أزاحت الأساس «القبطي» إلى جيب الجنوب المغلق في الصعيد، وذلك كما حدث مثلًا للفرشات الأساسية في الشام أو المغرب حيث التجأت إلى المعاقل الجبلية والمرتفعات. فالانتشار العربي كان أشبه شيء بعملية الانتشار الغشائي الأسموزي: عالمية وسارية: عملية تغلل لا زحزحة، وتخلل لا زراعة، ولهذا فقد أثبتت الأبحاث الأنثروبولوچية الحديثة خطأ النظرية التي كانت ترى بين «الفلاحين والقبط» فارقًا كالذي بين «العرب والبربر» في المغرب:

«رأى بعض المؤلفين أن بينهما نفس الاختلافات التي بين من يدعون بالعرب وبين البربر. ولكن علم الأجناس لم يؤيد هذا الرأي: فالأقباط والفلاحون يكادون يكونون شيئًا واحدًا»[1] وهكذا، ميتة طبيعية لنظرية غير طبيعية.

والواقع أن الغريب في هذه النظرية ليس سقوطها وإنما أصلًا قيامها، ذلك لأن، وحدة الأصل بين المسلمين والأقباط ليست علميًا إلا تحصيل حاصل ومجرد بديهية أنثروبولوچية، ببساطة لأن تكوين مصر الجنسي سابق على تكوينها الديني بنحو

(1) Chantre,op.cit,P.149,Vallois,op.cit,P.39.

٣٠٠٠ - ٤٠٠٠ سنة على الأقل فالأساس القاعدي لأنثروبولوچيتها أسبق كما رأينا من المسيحية بأكثر من ٣٢٠٠ سنة، ومن الإسلام بأكثر من ٤٠٠٠ سنة، على أقل تقدير، أو كما يضعها حزين بكل وضوح لأن «الطابع الجنسي العام للمصريين قد وجد واتخذ صورته المميزة قبل أن يكون هناك أقباط ومسلمون».

وفي هذا، بالمناسبة، رد ضمني وتوضيحي أيضًا على النظرية الشائعة من أن الأقباط أقرب إلى تمثيل المصريين القدماء من المسلمين، ولا شك ابتداء أن هذا صحيح [1] ـ وإنما بالنسبة إلى جزء من المسلمين وليس كلهم، فليس كل المسلمين بالضرورة قد داخلتهم دماء عربية أو غير عربية، فهؤلاء إذن لا يقلون قربا من المصريين القدماء عن الأقباط والأصح أيضًا أن نقول عن معظم الأقباط لا كلهم ذلك لأن الأقباط هم أيضًا قد داخلتهم بعض مؤثرات خارجية، وإن تكن غير عربية أو إسلامية بالطبع، وذلك من خلال الزواج المختلط مع بعض العناصر والجاليات المسيحية اللفانتية والأوروبية.

بل إن المسلمين الذين انحدروا من الأصل المصري الأول دون التأثر بالدم العربي هم ببساطة شديدة أضعاف أضعاف أولئك الذين تأثروا به، وهم بالتالي عشرات أضعاف الأقباط أنفسهم، وهم من ثم أيضًا ليسوا «دخلاء» على مصر في أي معنى ولا هم أقل «مصرية» في الأصل عن الأقباط ـ وإلا لكان معنى هذا أن الغالبية العظمى من المصريين «دخلاء» وهو توهم على النقيض المطلق من الحقيقة العلمية التاريخية وانحراف منطقي على النقيض المطلق مع أوليات العقل.

بعبارة أخرى فإن معظم المسلمين المصريين أو الكثير منهم اليوم إنما هم معظم القبط المصريين أسلموا بالأمس، بمثل ما أن أقباط اليوم هم بقية قبط الأمس الذين استمروا على عقيدتهم السابقة، ومن هنا وحده أيضًا قد نستطيع أن نتفهم، إن لم نستطع أن نتقبل، وجهة نظر البعض أو تعبيرهم حين يقولون إن المصريين إما «قبط مسلمون» وإما «قبط مسيحيون»، يقصدون أن كلمة «قبط» إنما هي تحريف أو شكل آخر لكلمة «إيجبت» أي مصر، أي مرادف لكلمة مصري، ولقد تكون هذه طريقة خاصة جدًا

(1) Coon,P.459.

للتعبير عن وحدة الأصل بين الطائفتين، ولكن الجوهر فيها سليم عمليًا، وهو تلك الوحدة بعينها، وعلى أية حال، فقبل أخوة الدين، والعقيدة وعوضا عنها، هناك أخوة الوطن والعرق بين الطائفتين، فالكل مصريون قبل الأديان وبعدها، وإذا صح التشبيه الشائع عن الزواج الطبيعي بين أرض مصر وفيضان النيل، فإن من الصحيح أيضًا أن ثمرته هي المصريون جميعًا، فالنيل أبوهم ومصر أمهم[1].

ولعل العقاد كان عالما باحثا قبل أن يكون أديبًا متحمسا حين لخص الموقف كله في قضية الوحدة الوطنية بقوله الجامع «ينقضُ التاريخ كل ما يقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية. فمن الحقائق الواضحة أن المسلمين والمسحيين سواء في تكوين السلالة القومية، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء في الأصالة والقدم عند الانتساب إلى هذه البلاد، فإذا كان بين المسلمين المصريين أناس وفدوا من بلاد العرب أو الترك، فبين المسيحيين المصريين كذلك أناس وفدوا من سورية واليونان والحبشة ودانوا بمذهب الكنيسة المصرية أو بغيره من المذاهب المسيحية، ويبقى العدد الأعظم بعد ذلك سلالة مصرية عريقة ترجع بآبائها وأجدادها إلى أقدم العهود قبل الميلاد المسيحي وقبل بعثة موسى....»[2].

وبهذه المناسبة، واختتاما للمناقشة، نذكر أن كثيرًا من الأجانب خاصة الأوروبيين يَدَّعون القدرة على التمييز بين المسلمين والأقباط على نحو ما يفعلون مثلا في أوروبا بين المسيحيين واليهود، غير أن من الصعب علميا أن نفهم كيف فحتى المصريون أنفسهم يعجزون، وكم ذا تحدث من مفارقات، ليست غير محرجة أحيانًا، إذا ما هم حاولوا، والمحقق أن هذه الفكرة الشائعة هي إما من أوهام العوام وإما من أوهام الخواص، وتفسيرها العلمي هنا لا يختلف عن تفسير نظيرتها الخاصة باليهود في أوروبا، ولندع سليجمان يلخص، ويحسم، لنا الموقف كله في حالتنا نحن بألفاظه هو.

«يعتقد الأجانب غالبًا»، يقول الانثروبولوچي الكبير، «إنهم قادرون على التمييز بمجرد النظر بين المسلمين والأقباط، ولكن لما كان التحليل الجسمي لا يشير إلى

(١) نعمات فؤاد، أعيدوا كتابة التاريخ، ص ٨٤.

(٢) سعد زغلول، القاهرة، ١٩٣٦، ص ٢٥ وما بعدها.

اختلاف كبير، فإن التمييز إن وجد لا بد أن يكون حضاريًا أساسًا، يرجع إلى العادات والسمات التي تعتمد على طريقة الحياة، فالأقباط، وهم مسيحيون وسكان مدن في الدرجة الأولى، هم بصفة خاصة من الكتبة وأصحاب المحلات، في حين أن الأغلبية العظمى من الفلاحين هم من المزارعين، فلعل أثر العادات السائدة والتابعة لكليهما قد أحدث إذن فارقًا ملحوظًا، وصحيح أن فروقًا طفيفة في مظهر الوجه قد وصفت، فللأقباط عيون وبشرة أفتح لونا وأنف أضيق قليلًا، ولكن بالرغم من ذلك فان من المشكوك فيه ما إذا كان التشخيص بالنظر بين القبطي والمسلم ليس برمته سوى مسألة عوامل مثل المشية والملبس»[1].

ولنا على نقطة اللون والأنف التي يشير إليها سليجمان هامش تفسيري، فإذا كان لاخلاف على أن هذا الفارق بيئي أساسًا، ومهني بالتحديد، حيث لا يرتبط الأقباط كثيرًا بالزراعة والعمل في الخلاء وبالتالي لا يتعرضون للشمس كالفلاح المسلم، فإن لنا مع ذلك أن نضيف أن لون البشرة ومعه سائر الصفات الجسمية المرتبطة به كالشعر والعين تتفاوت بين الأقباط مثلما تفعل بين المسلمين ما بين الشمال والجنوب أو في المنطقة الواحدة، وعلى سبيل المثال فإن كثيرًا من الأقباط هم أشد سمرة من كثير من المسلمين، خاصة منهم أهل الجنوب الأقصى مثل قنا وأسوان، حتى إن بعض من يعمل منهم كبوابين مثلًا في العاصمة لا يكادون يختلفون في مظهرهم عن البواب النوبي التقليدي.

هذا على الجانب الجسدي البحت، ولكن حتى على الجانب الحضاري يصعب أن نجد كذلك فارقًا محسوسًا ذا بال بين الطائفتين، حتى كرومر نفسه عرف هذا واعترف به «فالقبطي»، كتب هو «في مصر الحديثة»، «هو من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، في السلوك واللغة والروح، مسلم وإن لم يدر كيف، فالقبطيات تتشبهن بالمسلمات، والأطفال تكيفوا بصفة عامة، وعادات الزواج والجنائز تشبه ما عند المسلمين»[2]. ورغم أن كرومر يرد هذا التشابه إلى قانون تأثر الأقلية بالأغلبية وتقليدها لها على

(1) Races of Arfica, P. 108 - 9.

(2) Modern Egypt, p. 158.

نحو ما كان في الهند بين الهندوس والمسلمين، إلا أن أثر البيئة والحضارة والحياة المشتركة لا يمكن تجاهله.

التداخل السكني

وليس أقل خطأ بعد هذا من تلك المحاولات السطحية عند بعض الكتاب الغربيين لتصوير أو تصور «نطاق قبطي» في الصعيد الأوسط حاليًا[1] وإذا كان هناك تركز مؤكد في هذا القطاع، فهو ليس نطاقا إلا على المستوى القبطي نفسه، بمعنى أنه قمة تجمع الأقباط في هيكل توزيعهم العام، ولكنه ليس نطاقا قبطيًا على المستوى الوطني، بمعنى أنه لا يشكل أغلبية محلية أو إقليمية على الإطلاق في جسم الوطن، فأقصى كثافة لا تعدو خُمْسَ السكان، أي يظل أقلية موضوعية بين أربعة أخماس من الأغلبية.

لا، ولا كانت مدينة الفيوم في القرن الماضي ولا مدينة أسيوط في الوقت الحالي[٢] «عاصمة» للأقباط إلا في المعنى المجازي جدًا، وعلى أية حال، فإذا كان للأقباط في مصر عاصمة حقيقية فهي العاصمة الوطنية القاهرة، عاصمة الجميع فلعل فيها وحدها الآن أكثر من ربع أقباط مصر جميعًا، أي أكبر تجمع منفرد لهم في أي منطقة من القطر، وفي هذا الصدد ربما جاز أن نقول أن حي شبرا بالذات، حيث تحتشد أكبر نسبة من أقباط العاصمة، هو بدوره «عاصمة الأقباط في العاصمة».

فيما عدا هذا، فرغم أن نسبتهم ترتفع بين السكان محليا، فإنهم لا يمثلون الأغلبية في أي مساحة على أي مستوى: فليس ثمة تركزات أو توطنات محلية، وإنما الكل منبثون في تضاعيف وخلايا الجسم الكبير كجزء لا يتجزأ ولا يتميز، والقرى التي تخلو من الأقباط تمامًا في مصر نادرة للغاية، وأندر منها جدًا تلك التي يمثلون فيها الأغلبية النسبية، بينما لا تعرف مصر قرية ينفردون بها تمامًا مثلما تعرف مناطق مختلفة في الشام مثلًا، وكثير من الحالات التي توصف في بعض المراجع بأنها مدينة أو قرية «قبطية» يتضح من الأرقام

(1) Bdnjamin E. Thomas in: World geography, ed. Freeman & Morris, 1958, p. 409.

(2) Chantre, P. 153, Stamp, Africa, P. 203.

الدقيقة أن هذه الصفة المطلقة إن هي إلا من قبيل التبسيط الشديد على الأقل، فمثلًا يذكر لوران نقادة - وهي بالصدفة من أعلى نسب الأقباط في أي مدينة صغيرة بمصر - على أنها مدينة «قبطية»[1]، بينما تصل النسبة الإحصائية إلى الثلثين بالتحديد.

ولعل من المفيد هنا أن نتوقف عند بعض الأمثلة والعينات والحالات الخاصة إلى الشمال من المنيا، وعلى الأخص في الدلتا، يندر، أن تتجاوز نسبة الأقباط في الحالات المختلفة مدنا كانت أو قرى حوالي ٥٪ كسقف أعلى، أما جنوب ذلك، وبالأخص ابتداء من أسيوط، فيمكن أن ترتفع النسبة في بعض المدن المتوسطة الحجم إلى الربع أو الثلث، ولكنها تقل عن ذلك كلما كان حجم المدينة أكبر أصلًا، ولا تتجاوزها إلا في المدن الصغيرة نسبيًا، فالنسبة مثلا نحو الربع في كل من مدينتي أخميم وجرجا، ولا تزيد على الثلث في الأقصر، بينما ترتفع إلى الثلثين في نقادة الصغيرة كما رأينا، وإلى أكثر من ذلك في بوش (بني سويف) ونزلة عبيد (المنيا)

هناك بعد هذا مجموعة من الحِلَّات الصغرى تحمل من أسماء الأماكن كلمة «دير» وتقتصر على الصعيد دون الدلتا. وهذه التسمية تشتق من أصولها التاريخية الغابرة حين بدأت بالفعل كأديرة، ولكنها لم تلبث بالتدريج أن تحولت إلى حلات سكنية عادية عامة، وهي من وجهة جغرافية السكن تقابل الحلات التي تبدأ بمقطع «زاوية» أو «مسجد» عند المسلمين والتي تتناثر بالعشرات وربما بالمئات في كل أنحاء الريف المصري بلا تمييز أو تحديد جغرافي. ولهذا فليس كل مكان يحمل اليوم اسم دير يعني أديرة دينية بالطبع، فهذه هي الأقلية المعدودة، بينما تظل الأغلبية العظمى حلات سكنية لا وليست كل حلة سكنية منها تدل اليوم بالضرورة على أغلبية قبطية.

ترجع أصول هذه المجموعة في الغالب إلى أيام الالتجاء إلى حواف الصحراء من الاضطهاد الروماني للمسيحية، من هنا فإن نواتها في الأعم الأغلب بدأت بالسكنى الدينية ثم تحولت بمرور الزمن إلى سكنى مدنية عادية للأهالي عامة ولكن بطبيعة الحال للأقباط خاصة، ومن ثم قد يغلبون عليها بدرجة أو بأخرى. غير أن أحجامها بالضرورة محدودة

(1) P.47.

للغاية، بضعة آلاف أو مئات تتألف من عدة عائلات تعيش في كنف الدير، وحيث تقترب هذه الحلات من المدن الكبرى فإنها تفقد بالضرورة انفصالها وتندغم في نسيجها العمراني المترامي وإن لم تفقد بالضرورة تركز الأقباط بها بدرجة أو بأخرى. مثال ذلك دير الطين ودير الجوابر في مصر القديمة جنوب مجمع القاهرة، ودير الملاك في شماله الشرقي.

وفيما عدا ذلك فإن الأصل الديني القديم يفسر انتخاب كثير منها لحواف الصحراء حيث كانت تنشد العزلة والحماية، فنجدها اليوم إما على أقصى أطراف الأرض الزراعية في الضفة الغربية من الصعيد، وإما في فراغ الضفة الشرقية اللامعمور أو قرب جيوبها الزراعية الصغيرة. كذلك فإن بعضها يبدو في عمارته أقرب إلى الحصون منه إلى الأديرة.

والمجموعة تبلغ نحو العشرين حلة، أغلبها في أسيوط وسوهاج وبعضها في بني سويف والمنيا، وأقلها ما هو اليوم دير حقيقي (+) كما يوضح الجدول الآتي:

بني سويف

دير الميمون

عزبة دير الحديد

دير الانبا انطوان (+)

المينا

دير سمالوط

دير جبل الطير (أو دير البقيرة) (+)

دير أبو حنس

دير البرشا

دير مواس

أسيوط

رزقة دير المحرق

دير درنكة

دير الجنادلة

دير القصير

دير الجبراوي

دير بصرة

ديرتاس

سوهاج

نجع دير الملاقطة

نجع الدير

دير مار جرجس

دير الحديد (+)

دير الملاك

الدير الأبيض (دير الانبا شنودة) (+)

الدير الأحمر (دير الانبا بشوى) (+).

قنا

الدير

فيما عدا هذه الحالات الخاصة المحدودة يتوزع السكان الأقباط حيثما توزع السكان المسلمون بلا حدود أو تمييز، حتى أسماء الأماكن يندر أن تحمل دلالة دينية. فما أقل القرى والنواحي أمثال كودية الإسلام وكودية النصاري (أسيوط) أو نزلة النصارى وبياض النصاري (بني سويف) أو أشنين النصارى (مغاغة) أو غيط النصارى (دمياط) أو عزبة الأقباط (سوهاج). فهذه وأمثالها أقل من القليل على الخريطة، ولها عادة أصول خاصة في التاريخ، ولذا لا يقاس عليها.

كذلك في داخل القرى والمدن لا نكاد نعرف تجمعات أو تركزات طائفية سكنية خاصة أو بارزة بل السكن مختلط مشاع، وكثيرًا ما تتداخل المساجد والكنائس في اللاندسكيب المدني، وقد تتجاور، أما ظاهرة «الحصة»، «حصة الأقباط» أو «الدرب»، «درب النصاري»، فاستثناء بل شذوذ محلي نادر، وظاهرة تاريخية عند ذلك، معنى هذا، بعيدًا تمامًا عن أي عزل سكني، هو التعايش والتداخل الجغرافي على كل المستويات، تمامًا كالتداخل والتشابك الاقتصادي والمهني حيث لا يختص الأقباط بحرف معينة بذاتها وإن كانت نسبة الزراعة بينهم أقل نوعًا والمهن الحرة أعلى نوعًا.

التماسك السياسي

نصل من هذا كله إلى أن ثنائية المسلمين ـ الأقباط في مصر لا تتعارض مع الوحدة الوطنية، بل الدينية، ولا هي تنسخها. فبالأصل الاثنولوچي. كما بالوضع الاجتماعي، كما بالتوزيع السكني، تعد الأقلية القبطية من صميم الكيان المصري الكبير، وكتلة رصينة رصيفة من جسم الأمة شديدة التماسك فيه والالتحام به. وقد تبدى ذلك سياسيًا حتى في العصور الوسطى، فضلًا عن العصر الحديث. في العصور الوسطى، ربما فرضت بعض حالات فردية عابرة من التمييز في الملبس والمظهر وما أشبه، مثلما وقعت بعض «حوادث مؤسفة» انتقامية نتيجة انفلات الأعصاب أثناء الحملات والغارات الصليبية على بعض المدن المصرية لكن هذا كله لم يكن إلا الشذوذ النادر، وذلك أيضًا في فترة كانت ما تزال مرحلة انتقال وتحول إلى الإسلام[1] وفيما عدا ذلك فإن صلابة الوحدة الوطنية إبان الصليبيات هي مضرب المثل بشهادة المستشرقين أنفسهم.

أما في العصر الحديث، فالثابت المسجل أنه لم يقع لا أثناء الحملة الفرنسية ولا أثناء الثورة العرابية (بشهادة النديم) أية صدامات أو انفعالات، دعك من ثورة ١٩١٩

(١) عباس حلمي إسماعيل، «التسامح الإسلامي مع أهل الذمة في عهد الدولة الأيوبية»، مجلة مرآة العلوم الاجتماعية، ديسمبر ١٩٦٤، ص ٥١، ٧١.

التي كانت نموذج الوحدة الوطنية، وبصورة عامة فإن مصر الحديثة لم تعرف التعصب الديني أو التفرقة الطائفية، ولا كان وضع الأقباط في يوم غير مريح قط، أما كل ما قيل بعكس ذلك فهو عادة من ترويج المغرضين من أعداء مصر، خاصة الاستعمار (الذي - بالمناسبة - لم ينفك حتى اليوم يشكك حتى في صحة أرقام تعدادهم الرسمية المعلنة ونسبتهم الاحصائية من مجموع السكان، ويروج من تزييفه أرقامًا مضخمة قد تبلغ أحيانًا ثلاثة أو أربعة أمثال الحقيقة).

ومن الثابت المقرر، مثلًا، أن الأقباط كانوا دائمًا يتمتعون بمستوى اقتصادي ومستوى معيشة أعلى عموما من متوسط الشعب ككل، وكمؤشر واحد إلى هذه الحقيقة، يذكر تقرير المؤتمر القبطي في أوائل هذا القرن أن الأقباط كانوا يدفعون ١٦٪ من ضريبة الأراضي رغم أن نسبتهم من السكان ٦٪ فقط[١]. كذلك فإنهم إلى وقت قريب كانوا يشغلون في وظائف الإدارة نسبة أكبر وأقوى بكثير من نسبتهم العددية، مثلما انتقلوا بعد ذلك إلى وضع مماثل في المهن الحرة العالية، فضلا عن ارتفاع نسبة التعليم وانخفاض نسبة الأمية بينهم بالقياس إلى المستوى الوطني العام[٢].

ويمكن لأي عابر سبيل في مصر أن يطالع هذا كله مختزلا ببلاغة ومنعكسا عمليا في اللاندسكيب المدني، حيث تبرز أبراج الكنائس العديدة بكثافة أعلى بكثير من كثافة السكان الأقباط نفسها إلى حد أنه - كما يفعل بعض الزوار الأجانب - لو اتخذ كثافة الكنائس المرئية مقياسًا لكثافة الأقباط غير المرئية لخرج بنسبة بعيدة جدًا عن الحقيقة وبعدد هو أضعاف الواقع تمامًا، أحيانًا ما اتخذه الاستعمار دليلًا مزعوما على أرقامه المضخمة المكذوبة عن عددهم كأقلية، غير أن هذا كله ومثله إنما يدل على مستوى أعلى من الثراء والدخل، ولهذا فإذا كان هناك حقًا تمييز، فهو بالتمييز لا بالتحيز وبالموجب لا بالسالب، وهذا في الواقع قانون عام شبه عالمي، إذ من المعروف أن الأقليات عادة تظفر بمزايا عديدة قد لا تتمتع بها الأغلبية أحيانًا[٣].

(1) Issawi, P. 34.

(2) Id., P. 161.

(3) E.E. Bergel, Urban sociology, Mc Graw - Hill, 1955, P. 274 ff.

من هنا جميعًا فلقد فشلت كل محاولات الاستعمار الحديث ابتداء من الحملة الفرنسية إلى الاحتلال البريطاني (هل نضيف: والصهيونية الإسرائيلية؟) في خلق مشكلة الطائفية أو مشكلة الأقليات ليضرب بها الوحدة الوطنية، فمن الثابت المحقق، بل والمعترف به الآن رسميًا، أن الاستعمار في استراتيجيته التقليدية «فرق تسد» كان يلعب في مصر دائمًا لعبة ثنائية مزدوجة محورها ثنائية الدين، فيضارب كلا من الطائفتين بالأخرى ويوغر ويؤلب كلتيهما سرا ضد الأخرى، موهما إياها بأخطار ومخططات خيالية تبيتها نحوها، مدعيا في ذلك كل الانحياز إليها والتعاطف معها وأن موقفه أقرب إليها منه إلى الأخرى إما بحكم ديانته أو بحكم موقعه، بحسب الحالة.

غير أن موقف الأقباط في وجه هذه الاستراتيجية كان دورًا إيجابيًا بناء للغاية فقد رفضوا كل مناورات وإغراءات ودسائس الاحتلال البريطاني لاحتضانهم وفرض حمايته المزعومة عليهم على غرار ما كانت تفعل القوى العظمى من بسط نوع من الحماية والرعاية التقليدية كل منها على إحدى الأقليات الدينية في الشام مثلًا، وهي نفسها تلك الحماية التي تذرع بها، من بين ما تذرع، لفرض الحماية على مصر نفسها والتي تشبث بها في التحفظات الأربعة بعد إلغاء الحماية[1].

ومن قبل ومن بعد رفض الأقباط مع المسلمين لعبة تحويل ثنائية المسلمين - الأقباط إلى ثنائية تركيا الخلافة - بريطانيا الاستعمار، وإذا كان بعض المسلمين قد والى الأتراك في تلك اللعبة، وكان بعض الأقباط قد والى الإنجليز، فلم يكن ذلك عن خيانة بل عن جهالة، ولا عن نقص في الوطنية ولكن عن نقص في التفكير، «وما منع الإسلام تركيا، ولا المسيحية انجلترا، أن تظلم مصر كلها باستعمارها، ثم باستغلالها، وتعويقها وقهرها»[2] وقد انعكس رد مصر على تلك اللعبة السياسية المزدوجة بصورة رائعة في ثورة ١٩١٩ على الاستعمار حين «تعانق الهلال والصليب» تحت شعار «الدين لله والوطن للجميع» وفيما بعد في الفترة الأخيرة، وعلى عكس دعاوى الاستعمار، لم يكن الأقباط أقل تحمسًا من سائر المصريين لفكرة القومية العربية ودولة الوحدة

---

(1) W. B. Fisher, The Middle East, P. 104- 5..

(٢) أعيدوا كتابة التاريخ، ٨٣.

العربية، كما ساهموا مساهمة مشرفة في حروب التحرير وفي صنع أكتوبر سواء في الميدان أو في الجبهة الخلفية.

هذا، وإذا كان قد وقع خلال تلك المراحل النضالية كلها بعض «أحداث مؤسفة»، فهي حالات فردية بحتة وثانوية للغاية لا تنفي القاعدة العامة بقدر ما تؤكدها، كما أن أغلبها ينبع لا من سوء النية ولكن من سوء المعرفة إن لم يكن الجهل المخجل حقًا، من ذلك مثلا صيحة بعضهم العصبية المفلوتة بعد هزيمة يونيو «فليعودوا إلى صحراء العرب التي أتوا منها!» ـ يقصدون المسلمين. وهي دعوة مترتبة منطقيًا على دعوى أن المسلمين «دخلاء» في مصر، تلك الدعوى التي لسنا بحاجة إلى أن نكرر فسادها وخطأها إلى حد يثير الشفقة أكثر مما يثير السخرية، والذي يدعو إلى السخرية في هذه الصيحة الجهول أنها دعوة إلى طرد الأغلبية العظمى والسواد الأعظم من المصريين أبناء مصر الأصلاء.

والغريب بعد هذا أنها تذكر ـ مع الفارق الهائل ـ بصيحة الأب سييس الشهيرة في فرنسا إبان الثورة «أعيدوهم إلى مستنقعاتهم الجرمانية التي أتوا منها!»[1] ـ يقصد طبقة النبلاء والأرستقراطية، الذين هم بالفعل غزاة ومهاجرون معًا في الأصل ولكن يبدو أنه في الأزمات القومية حين يصبح «الوطن في خطر» أو في مراحل الانحطاط السياسي تنفلت الانفعالات وقد تختلط الأمور والحقائق إلى حد التشويش والاضطراب الفكري.

ولا شك أن هذا الوضع بلغ بل تجاوز قمته الدرامية والمأساوية في أحداث أواخر السبعينيات حتى ١٩٨١ فلأول مرة في تاريخ مصر السياسي والوطني الحديث وربما القديم كله وباعتراف الدولة الرسمي علنا للأسف، وصلت المشكلة الطائفية في مصر إلى حد الانفصالية السياسية السافرة، حيث طالبت علنا بدولة قبطية مستقلة داخل مصر وعن مصر، وبعض النظر عن دوافع الدعوة المزعومة من اضطهاد وقهر موهوم أو صدامات عاصفة أو مشاكل متراكمة مكبوتة، فليس من شك أن هذه الدعوة الانفصالية إلى دولة أقلية دينية في الداخل لا أصل لها من

(1) Ripley, p. 157.

الدين ولا العلم لا من التاريخ ولا من الجغرافيا، بل لا من العقل ولا من المنطق، فمصر لم تنقسم قط داخليًا ولا عرفت التقسيم ولا هي قابلة للقسمة تحت أية ظروف أو ضغوط.

لذا كان حتما أن تسقط الدعوة المنحرفة وأن تمنى بالعجز والفشل، بحيث لو عدت الدعوة الانفصالية خيانة وطنية لوجب أن تعد انعكاسًا لما هو أعظم وتصغيرًا لما هو أكبر وفرعًا لما هو أصل. وعلى أية حال، فإن كلتا الظاهرتين أو المظاهرتين، على هولها وبشاعتها كوصمة دامغة وسبة أبدية في سجل التاريخ، لا تعدو في تاريخ مصر العريض العريق أكثر من جملة اعتراضية وزوبعة في فنجان وانحرافة ضد حركة التاريخ لا يلبث تياره أن يكسحها إلى بالوعته حيث يطويها إلى الأبد.

فيما عدا هذا الاستثناء الوحيد إذن، بل هذا الشذوذ البحت، الذي يؤكد القاعدة ولا ينفيها، فإن مثل تلك الحوادث والأحداث الطائفية العابرة مهما كانت مؤسفة تبقى في النهاية «مسألة عائلية» بحتةً بلا جدال، مسألة «خلافات عائلية» كتلك التي تقوم وتنفجر داخل كل من الجانبين ذاته وحتى عند ذلك فلربما كان لها أيضًا على علاتها بعض الفضل، كالبثور على سطح الجلد، في نزح وتصريف المستنقعات الفكرية الضحلة الآسنة والمفاهيم الخاطئة المنحرفة، الموروثة أو المكتسبة، التي عششت بعض الوقت في عقول البعض من الجانبين.

وأخيرًا فلعلها آخر بقايا عصور التخلف التي تذوب الآن بسرعة في بوتقة التقدم والتقدمية، وقد آن لكل هذه الخرافات الوطنية أن تنقرض إلى الأبد. وكما يلخص شارل عيسوي «لقد ربت السنوات الثلاثون الأخيرة من الحرية والتسامح جيلا من الشبان الذين لا يبدون شيئًا من رذائل الاضطهاد، الذين تعاونوا مع المسلمين في النضالات السياسية والاجتماعية في روح من المساواة التامة والاحترام المتبادل، والذين هم مهيأون جيدًا للوصول إلى تفاهم أعمق وأبقى بين كلتا الطائفتين»[1].

وبالفعل فلقد أثبتت التجارب السياسية الأخيرة أنه إذا كانت الأزمات الوطنية

(1) P. 162..

«اختبار أحماض» قاسيًا للوحدة الوطنية، فإنها أيضًا اختبار صحي مفيد ودرس عملي فيها، بينما أثبت الأقباط فيها أنهم إذا كانوا لا يزيدون على معظم المسلمين (مصرية) بالأصل الاثنولوجي، فإنهم لا يقلون عنهم «مصرية» بالحس الوطني وإذ كان ثمة شيء، فلقد خرجت الوحدة الدينية ومعها الوحدة الوطنية من هذه التجارب القاسية أو الأحداث المؤسفة وهي أكثر صلابة ونقاوة منها في أي وقت مضى، كالمعدن تخلص من شوائبه بعد نار الصهر وسندان الطرق، ومصر ـ نحن نَخْلُصُ ـ ليس لها مشكلة طائفية ولا عانت مشكلة أقليات، إلا أن تكون من صنع أو وهم الاستعمار أو من إفرازات عصور الانهيار والانحطاط السياسي، وتظل مصر رمزًا للوحدة الدينية مثلما تخرج علما على الوحدة الوطنية.

ملحق (٢)

الكنيسة.. والوطن(*)

(*) نص دراسة للمؤلف نفسه نشرت على جزئين، أولهما في صحيفة المصري اليوم، والثاني في صحيفة الدستور في شهري سبتمبر وأكتوبر ٢٠١٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

الكنيسة.. والوطن

- الشاغل الأكبر للمصريين جميعًا، وللعرب المتابعين للشأن المصري هذه الأيام، هو حالة الاحتقان الإسلامية/ المسيحية التي لم تخل وسيلة من وسائل الإعلام المصرية من إشارة إليها، أو مقالات عنها، منذ يوم الأربعاء ١٥/ ٩/ ٢٠١٠ حتى اليوم.

- وكان الذي أنشأ القول في هذه المسألة حديث نشرته (المصري اليوم) أدلى به الأنبا بيشوي أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري، وسكرتير المجمع المقدس، ونائب البابا في رئاسة المجلس الإكليركي لشؤون الكهنة. وفي اليوم نفسه، مساءً، كنت ضيفًا على الإعلامي الشهير أحمد منصور في برنامج (بلا حدود) الذي تبثه كل يوم أربعاء (قناة الجزيرة) على الهواء مباشرة، وكان الموضوع المتفق عليه للحلقة هو العلاقة الإسلامية المسيحية في مصر في ضوء الشائعات التي راجت، وأدت إلى مظاهرات في مدن عدة، عن إسلام السيدة كاميليا شحاتة زوجة أحد الكهنة في محافظة المنيا.

- وأثار الأستاذ أحمد منصور قضايا، نشر عنها في الصحف، إحداها تتعلق بضبط سفينة تحمل أسلحة أو أسلحة وذخائر لنجل وكيل مطرانية بورسعيد (جوزيف بطرس الجبلاوي) وتكلمت في هذا الأمر بما أملاه عليَّ الضمير الوطني والمعرفة المهنية، وحديثي فيه لا يزال معروضًا على مواقع عديدة على

الشبكة الدولية للمعلومات والاتصالات (الانترنت ـ اليوتيوب) يمكن لمن شاء أن يراجعه، ولا أزال عند كل كلمة قلتها فيه، وليس صحيحًا بحالٍ ما نشر أو نسب إليَّ مما يوهم خلاف ذلك في أية وسيلة إعلامية كان نشره.

● لكن حديث الأنبا بيشوي أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري فرض نفسه على اللقاء إذ كان مما جاء فيه:

ـ إن من يعلن رغبته في اعتناق المسيحية الآن تأخذه الشرطة «يرنُّوه علقة تمام ويتحبس عدة أيام علشان يرجع عن اللي في دماغه».

ـ أما الخلاف على بناء الكنائس أو الأسوار فلم يحدث إلا في المنيا والسبب هو المحافظ نفسه، حيث أخذ موقفًا ضد المصابين في حادث أبو فانا من طالبي الرهبنة ورفض علاجهم... وما وقع لا يتعلق بسور أو كنيسة بل كان هجومًا بالأسلحة على الدير.

ـ .... ألا يكفي أن الجزية فرضت علينا وقت الفتح العربي، تريدون الآن أن تُصَلُّوا لنا... وتقيموا الصلوات والقداسات؟

ـ .... الأقباط أصل البلد، نحن نتعامل بمحبة مع ضيوف حلوا علينا ونزلوا في بلدنا واعتبرناهم إخواننا «كمان عايزين يحكموا كنايسنا» أنا لا أرضى بأي شيء يمس المسلمين، ونحن كمسيحيين نصل إلى حد الاستشهاد إذا أراد أحد أن يمس رسالتنا المسيحية.

* * *

● وكان طبيعيًا أن تناقش هذه المسائل، وأن يجاب عن كل واحدة منها بما يناسب المقام، ويعبِّر عن الشعور الإسلامي الحقيقي بلا مواربة ولا مداهنة ولا مجاملة، لأنه لا يفسد علاقات الأخوة في الوطن شيء أكثر من قيامها على التقية، والنفاق السياسي والاجتماعي، بديلين للمصارحة والصدق في السر والعلانية على السواء.

● وقد أدى كلامي، الذي كان تعقيبًا على حديث الأنبا بيشوي أسقف دمياط وكفر

الشيخ والبراري، ثم ما نشر من بحثه المعنون (الميديا وتأثيرها على الإيمان والعقيدة) الذي قدمه إلى مؤتمر العقيدة الأرثوذكسية ١٣، إلى فتح الحديث في المسألة كلها: مسألة الكنيسة والوطن.

- ولست بحاجة إلى إعادة سرد مواقفي في شأن العلاقات القبطية الإسلامية، وهي مواقف حملني عليها ديني والتزامي به، وقد فصَّلت بعض ذلك في كتابي (للدين والوطن)(*)، وفي مقالات لا أحصيها، ومؤتمرات ولقاءات مع إخواننا الأقباط الأرثوذكس في الكاتدرائية بحضور الأنبا موسى أسقف الشباب وغيره من رجال الكنيسة، وفي المركز القبطي للدراسات الاجتماعية عندما كان يديره الأخ الأستاذ سمير مرقس، وفي غيرهما من الكنائس وأماكن اللقاء. وهذه الحوارات يذكرها من حضرها أو قرأ عنها أو استمع إلى تسجيلاتها على الرغم من قول البابا شنودة ـ لأسباب أجهلها ـ في لقائه يوم الأحد ٢٦/ ٩/ ٢٠١٠ مع الإعلامي المعروف عبد اللطيف المناوي، إنني لم أقم أي حوار مع الكنيسة الأرثوذكسية. ولا أحب تذكيره بالحوارات المتعددة معه شخصيًا التي كان بعضها بناء على دعوته المباشرة (يوم ٦/ ٦/ ١٩٩١ لمدة تزيد على الساعتين حضره ثلاثة من شباب الأساقفة لا أذكر أسماءهم، والمرحوم أديب نجيب وهو أرثوذكسي كان مدير العلاقات العامة في الهيئة الإنجيلية)، وبعضها بدعوة من غيره (الندوة المغلقة في نقابة المهندسين المصرية في سنة ١٩٩٢ حول الإرهاب وسبل معالجته بدعوة من وزير الإسكان ونقيب المهندسين آنئذٍ المهندس حسب الله الكفراوي، وشريطا تسجيلها صوتًا وصورة عندي، وقد حضرها نحو ثلاثين مفكرًا وعالمًا وحركيًا منهم، مع حفظ الألقاب: محمد الغزالي، ومصطفى مشهور، وحلمي مراد، وبهاء الدين إبراهيم، وعادل حسين، وعبد المنعم أبو الفتوح، ، وميلاد حنا، وأبو العلا ماضي، وكمال أبو المجد الذي كان يديرها وكانت كلمة الختام هي مداخلة ثانية عَقَّبتُ فيها على كلام البابا شنودة عن الأوقاف القبطية). وبعضها بدعوة من مؤسسات للحوار الإسلامي

(*) نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الثالثة ٢٠٠٩.

المسيحي (مسلمون ومسيحيون من أجل القدس - بيروت ١٩٩٦ بدعوة من الفريق العربي للحوار الإسلامي المسيحي). وأنا ألتمس العذر للبابا شنودة أن ينسى هذه اللقاءات المهمة، وهو قد دعا لي الأسبوع الماضي بالهداية وصلاح الحال والمغفرة وأن يسامحني الله (الدستور، ٢١/ ٩/ ٢٠١٠) وأنا أبادله دعاءً بدعاءٍ، ورجاءً برجاء، صادقًا غير مجامل، وجادًا غير هازل.

- أقول لست بحاجة إلى سرد موقفي من العلاقة الإسلامية - المسيحية فقد عرفه من عرفه، ولكن الذي أنا - وجماهير المسلمين فيما أعتقد - بحاجة إليه حقًا هو التوقف عند التصريحات الكنسية التي تؤدي إلى الإساءة إلى هذه العلاقة التاريخية، وتحولها من بناء صلب، لا يتأثر بالزلازل الاجتماعية والسياسية العارضة، إلى واقع هشٍّ قابل للانهيار تحت وطأة الضغوط التي تسببها عوامل الإثارة، وأسباب الفتنة، التي لا يدرؤها ولا يتجاوز قدرتها على العمل التخريبي في كيان الوطن إلا وحدة أبنائه مهما اختلفت أديانهم.

- لقد أشرت من قبل إلى مواقف نشرةٍ كنسية أرثوذكسية يطلقون عليها (الكتيبة الطيبية)، وذكرت عملها في إذكاء نيران الفتنة الطائفية، وناقشت بعض أسوأ ما نشرته في كتاب (للدين والوطن)، وأود هنا أن أشير إلى عددها رقم (٦٠) الصادر في نوفمبر ٢٠٠٧ الذي نشر فيه مقال بعنوان (**الثورة القبطية بيضاء**) لم تستطع المجلة نشر اسم كاتبه، مما يجعل المسؤولية عنه تقع - قانونًا - على عاتق رئيس التحرير، يقول هذا المقال: «أصبح الوضع بالنسبة للأقباط خطيرًا وسريع التقلب.... وبدون تغيير فعال وسريع فإن أولئك المصريون الأصليون بحضارتهم التي تمتد إلى ألف عام والتي ساهمت في بلورة طبيعة التاريخ المصري سوف تتعرض لخطر الإبادة الكاملة.... أصبح الوقت سانحًا لأقباط مصر المسيحيين من أجل المقاومة. وبما أن الثورة الحمراء قد خدمت العديد من الشعوب على مدار التاريخ فإن هذا بالتأكيد ليس الأفضل بالنسبة لمسيحي مصر، الاشتباك في معركة ضد الحكومة المصرية والجيش المصري وما يقدر بحوالي ٤ , ١ مليون فرد من قوات الأمن المركزي ليس خيارًا على الإطلاق. التغييرات

الأساسية يجب أن تتم من خلال التظاهرات السلمية المنظمة وعدم الانصياع المدني (يقصد العصيان المدني) بعيدًا عن العنف والنضال من أجل الإصلاح السياسي والحكومي. وفي مواجهة العنف الشديد والتمييز ضد الأقباط، فإن هذه المهمة المروعة قد تبدو مستحيلة، ولكن بالصبر والتصميم والوقت والمقاومة السلمية يمكن أن يتم التغيير... حياة وعمل المهاتما غاندي.... يمكن أن تشجع وتوجه الأقباط نحو القيام بثورة سلمية بيضاء في مصر». لقد كتبت يوم نُشِرَتْ هذه المقالة أقول: «هذه العبارات الصارخة في الحض على الثورة والخروج على الدولة والمجتمع لا تحمل توقيعًا من أحد مما يعني ـ في العرف الصحفي ـ أنها رأي للمطبوعة نفسها لا لأحد كتابها. ومن ثم فإن المساءلة عن هذا التحريض السافر تتوجه إلى الكتيبة الطيبة والكاهن الذي يرأس تحريرها والكنيسة التي تصدرها» [ص ١٠ من كتاب للدين والوطن، ط٣، ٢٠٠٩].

- ولم تتم مساءلة أحد. ولم تحاسب الصحيفة الكنسية، ولا الكنيسة الأرثوذكسية التي تصدرها، ولا الكاهن الذي يرأس تحريرها.

* * *

- لقد بدأت حديثي إلى الإعلامي الشهير أحمد منصور بعبارة نصها: «**إن العلاقة بين المسلمين والأقباط في مصر علاقة أُخوّة أزلية لا تنفصم ولا تنقسم**». وهذه عقيدة أومن بها ولا يزعزها عندي حدث أو مجموعة أحداث مهما كان نوعها. لكن ملايين المصريين المسلمين من حقهم علينا أن ندفع عن مشاعرهم ما يسيء إليها، وعن شعورهم بأخوة القبط لهم ما يضعفه، وعن كرامتهم في بلدهم ما يمسها، أو يوهم المساس بها، لاسيما عندما يصدر مثل هذا عن رؤوس الكنيسة والمسؤولين فيها. نفعل ذلك أداءً للواجب كما نؤديه في مواجهة أهلنا المسلمين عندما يخطئ بعضهم في حقوق إخواننا القبط، وكما نفعله في مواجهة الدولة نفسها، وسلطاتها كلها، عندما يقع إخلال بحقوق الأقباط، أو استهانة بها، أو إهمال لها، كما فعلنا في شأن الكُشح، وفي شأن التنابز بالأديان، وفي شأن

ترشيح الأقباط للمجالس النيابية وانتخابهم لعضويتها، وفي شأن حقوق الأقباط النقابية، وفي شأن الفتن الكثيرة التي أطلت برأسها في السنين الثلاثين الأخيرة.

● وأبدأ من أداء ذلك الواجب بما يخص مقولة الأنبا بيشوي أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري وسكرتير المجمع المقدس ورئيس المجلس الإكليركي لشؤون الكهنة، عن الضيوف والضيافة.

في لقاء البابا شنودة مع الأستاذ عبد اللطيف المناوي يوم الأحد ٢٦/ ٩/ ٢٠١٠، على التلفزيون المصري، قال: «حكاية ضيوف أشك فيها بسبب النشر في الصحف.... ليس كل ما ينشر في الصحف نصدقه بتسليم كامل».

وقال: «أنا مش عارف العبارة قيلت ولا لأ.. أرجو أن تكون كتبت بطريقة صحفية غير صحيحة. العبارة شاذة في لغته هو (يقصد الأنبا بيشوي أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري) ومنطقه هو. ما أعرفش كتبت إزاي».

وقال البابا شنودة: «من واجب الصحفي لما يعمل حديث مع أحد أن يحذف منه ما لا يحقق المصلحة من كلام ذلك الشخص».

● وفي هذه المسألة أمور:

ـ **الأمر الأول**: أن البابا شنودة صحفي قديم، وهو أدرى من سواه من قيادات الكنيسة بواجبات الصحفيين، ومدى وجوب التزامهم أمانة الكلمة في أدائهم المهني. ونصيحته للصحفيين بالحذف من كلام من يحاورونهم تقتضي تعقيبًا من نقابة الصحفيين، ومن لجنة آداب المهنة في مجلسها، وتقتضي إخبار النقابة رَأْيَها في ذلك إلى عضوها القديم البابا شنودة.

ـ **الأمر الثاني**: أن تشكيك البابا شنودة في أن يكون الأنبا بيشوي أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري وسكرتير المجمع المقدس قد قال عبارة: «ضيوف حلوا علينا ونزلوا في بلدنا واعتبرناهم إخواننا» يقتضي من المصري اليوم، التي نشرت حوار الأنبا بيشوي، التعقيب عليه. فهذا التشكيك ينصرف إليها وإلى أدائها المهني، ولا ينصرف بحال إلى الذين غضبوا من العبارة وردوا عليها وانتقدوها. وعلى

الأنبا بيشوي أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري وسكرتير المجمع المقدس - بل كان عليه منذ ١٥/ ٩/ ٢٠١٠ - إن صح تشكك البابا، أو تشكيكه، في تلك العبارة أن يبادر إلى نفيها وتصويبها وإعلان براءته منها على النحو الذي اقترحته عليه في برنامج بلا حدود.

وهذا كله لم يكن، بل الذي كان عكسه، كما أبينه الآن.

- **الأمر الثالث**: أن أسقفًا كبيرًا وكاهنًا موقرًا، وغيرهما من الأقباط، دافعوا دفاعًا مستميتًا عن العبارة التي يتشكك، أو يشكك، فيها قداسة البابا شنودة الثالث.

- فأما الأسقف الكبير فهو الأنبا بسنتي أسقف حلوان والمعصرة ورئيس دير الأنبا برسوم العريان الذي قال: «الأنبا بيشوي كلامه واضح، فالمواطنون كانوا أقباطًا وأتى إخوتنا المسلمون بقيادة عمرو بن العاص وكانوا في البداية ضيوفًا أو فاتحين ومع الاستمرار أصبح إخوتنا المسلمون من عامة الشعب، لكن التعبير نفسه لا غبار عليه... وما قاله الأنبا بيشوي وصف دقيق لوقائع تاريخية بطريقة مسالمة وودية» (الدستور ١٩/ ٩/ ٢٠١٠).

- وأما الكاهن الموقر فهو القمص بطرس بطرس، وكيل عام مطرانية دمياط وكفر الشيخ والبراري ودير القديسة دميانة، وكاهن كنيسة مار جرجس بدسوق، الذي ردد نحو كلام الأنبا بسنتي في صحيفة (المصري اليوم) بتاريخ ٢٢/ ٩/ ٢٠١٠. واستشهد القمص بطرس بطرس، لصحة كلامه، بتأويل رقيق أبداه صديقنا الجليل الدكتور يحيى الجمل لكلام الأنبا بيشوي، إذ أوَّلهُ بأنه كان يقصد أن المسلمين كانوا ضيوفًا من الناحية التاريخية. ومع تقديري الكامل لأخي الكريم الأستاذ الدكتور يحيى الجمل، فإن ما قاله هو تأويله الشخصي الذي قد يقبله أو لا يقبله أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري، وسكرتير المجمع المقدس، الأنبا بيشوي، الذي لا يزال حتى اليوم لم ينبس في هذا الأمر ببنت شفة.

ولست أدري كيف تستقيم دعوى (الضيوف) مع العبارة التي يحيل إليها القمص بطرس بطرس من كلام الأنبا بيشوي وهي قوله «أنا لا أرضى بأي شيء يسيء للمسلمين». فهل

يظن نيافة الأنبا، وسيادة القمص وكيله، أن حكاية الضيوف ـ كما يسميها البابا شنودة ـ لا تسيء إلى المسلمين؟! أم إن الأنبا بيشوي لا يرضى إلا بإساءته هو، دون إساءة غيره إلى إخوته المسلمين؟!

ـ **الأمر الرابع**: أن البابا شنودة نفسه ـ قبل أن يصبح حاملا لهذا اللقب ـ كتب في سنة ١٩٥١، في المقال الافتتاحي لمجلة (مدارس الأحد) في عددها الصادر يوم ١/ ١/ ١٩٥١ كلامًا يدل على المعنى نفسه الذي عبر عنه الأنبا بيشوي بلفظ (ضيوف) وكان التعبير عنه في كلام البابا شنودة ـ قبل أن يصبح كذلك ـ بتعبير (إن المسلمين قد أتوا وسكنوا معنا في مصر)! ومن قبله كتب القمص سرجيوس الذي يدعى أحد آباء الوحدة الوطنية يقول: «إن أرض الإسلام هي الحجاز فقط، وليست البلاد التي يعيش فيها المسلمون» (مجلة المنارة عدد ٦/ ١٢/ ١٩٤٧).

- وقص البابا شنودة في المقال نفسه قصة احتراق كنيسة في مدينة الزقازيق سنة ١٩٤٨، وقيام الوطني الكبير والقطب الوفدي الشهير إبراهيم باشا فرج بالتدخل لدى مدير المديرية وقتها، وإنهاء الخلاف الذي أدى إليه احتراق الكنيسة وأنه ـ أي البابا شنودة نفسه ـ قد اعترض على ما فعله إبراهيم باشا فرج وانتقده ووقف ضده؛ فأرسلت إليه الحكومة نجيب إسكندر باشا، الذي كان وزير الصحة في حكومة النقراشي باشا، وكان مما قاله للبابا شنودة: «الحساب من تعملون؟ أنتم تهددون وحدة العنصرين» [الدكتور نجيب سليم رئيس الجالية القبطية في كندا، الأقباط عبر التاريخ، دار الخيال، القاهرة ٢٠٠١، ملحق الكتاب].

- **وحق لكل مسلم، ولكل قبطي مؤمن بوحدة الوطن مثل إيمان إبراهيم فرج ونجيب إسكندر أن يتساءل، بعد أن يسمع ما يقال ويقرأ ما يكتب، عن الذين يهددون وحدة العنصرين؟**

وأن يتساءل كذلك عما إذا كان البابا شنودة لا يزال يتشكك، أو يشكك في حكاية (الضيوف) بسبب النشر في الصحف؟؟!!

* * *

- منذ سنين ناقشنا، في الفريق العربي للحوار الإسلامي المسيحي، سبل التعايش بين المسلمين وغير المسلمين في الوطن الواحد وفي أوطان شتى. وانتهينا يومئذ إلى إصدار وثيقة سميناها (العيش الواحد) أصبحت هي دستور عمل الفريق، ووصفت في تصديرها ـ بحق ـ بأنها «دعوة للناس، وشهادة بينهم، وميثاق للعمل العربي الإسلامي ـ المسيحي».
- وكان مما قررته تلك الوثيقة أن الحوار ينطلق «من احترام حق الآخر في اعتقاده، وتعزيز الأسس الدينية للعيش الواحد في وطن واحد» وهذا الحوار لا يستقيم «بغير احترام الخصوصيات والمشاعر والرموز والمقدسات الدينية الإسلامية والمسيحية. ولا يقتصر ذلك على سلوك أهل كل من الدينين تجاه أهل الدين الآخر، وإنما يعبر عن نفسه كذلك في وقوف الطرفين معًا ضد أي امتهان لمقدسات أيٍّ منهما أيًا كان مصدره» [الفريق العربي للحوار الإسلامي ـ المسيحي، الحوار والعيش الواحد، بيروت ٢٠٠١].
- وفي سنة ٢٠٠٨ أصدر الفريق العربي نفسه وثيقته الثانية بعنوان «وثيقة الاحترام المتبادل بين أهل الأديان». وقد نصت هذه الوثيقة في فقرتها رقم (٧) على أنه: «ينبغي على أهل كل دين ألا يخوضوا في خصوصيات دين آخر. وينطبق هذا على أهل المذاهب المختلفة والفرق المتعددة في الدين الواحد... وإشاعة أمر التعارض أو التناقض، بين عقيدة وغيرها من العقائد، لا يؤدي إلا إلى البغضاء والشحناء وإغراء الناس بعضهم ببعض...».
- ونصت الوثيقة نفسها في فقرتها رقم (٩) على أنه: «من حق أهل كل دين أو عقيدة أن يتوقعوا من مخالفيهم تصحيح ما يرتكب في حقهم من خطأ، والاعتذار عما يصدر من هؤلاء المخالفين أو بعضهم من إساءة أو إهانة أو قول أو فعل لا يليق. ولا يجوز لمن وقع منه الخطأ: غفلة أو هفوة أن يستكبر عن تصحيحه أو يبحث عن تأويله وتبريره» [الفريق العربي للحوار الإسلامي ـ المسيحي، وثيقة الاحترام المتبادل بين أهل الأديان، بيروت ٢٠٠٨].
- وهذه المبادئ التي صاغها الفريق العربي للحوار الإسلامي ـ المسيحي للتعبير

عما تراه جموع المؤمنين بالدينين حافظًا لوحدتها الوطنية، وعاصمًا لها من الفرقة، وحائلا بينها وبين التعصب الممقوت، لو اتبعها رجال الكنيسة المصرية في تناولهم للمسائل المتعلقة بالإسلام والمسلمين لما وقعت فتن كثيرة اصطلى بنارها المصريون جميعًا أقباطًا ومسلمين. والفتن، وحوادث التعصب وما يصاحبها من تطورات حمقاء من أيٍّ من الطرفين، مهما خمد أوارُها وأطفأت جهود (المصالحة) نارَها، واعتذر المتسبب فيها، أو من يتحدث باسم جهة ينتمي إليها، عما كان منه ــ مهما وقع ذلك كله فإن الفتن المتوالية تتراكم آثارها في النفوس، وينشأ على ذكريات كل منها جيل أو أجيال من أبناء الوطن وبناته يفتقدون صفاء النفس نحو المخالف لهم في الدين، وينظرون إليه نظرة العدو المتربص لا نظرة الشريك في الدار، ولا نظرة الأخ في الوطن.

- فإذا تكلم الأنبا بيشوي أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري (المصري اليوم: ١٥/ ٩/ ٢٠١٠) عن الجزية ضاربًا عُرض الحائط بكل ما انتهت إليه الدراسات الإسلامية في شأنها، وكأن شيئًا منها لم يكن، فإن هذا الحديث لا يؤدي إلى شيء إلا إلى إثارة ضغائن الأقباط على إخوانهم المسلمين، وبعث فتنة لا مسوغ لها، تعمل عملها في هدم بناء الوطن بتحطيم علاقات الأخوة فيه. سيذكر الأقباط كلام الأنبا بيشوي عن الجزية وهم لم يدفعوها ـ ولا هو دفعها ـ قط، وسينسون كل العلاقات الوادة الراحمة بينهم وبين المسلمين المعاصرين لهم وهم لم يقبضوا الجزية قط!! فما الذي يستفيده نيافة الأنبا من هذه المسألة؟ وما الذي يعود على الشعب المصري من ذكرها؟

- وعندما يتحدث عن الاستشهاد، ويؤيده فيما قال رأس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، البابا شنودة، مفسرًا الاستشهاد بأنه في المفهوم المسيحي الموت في سبيل المبدأ أو العقيدة دون قتال لأن الاستشهاد في القتال موت وقتل وليس استشهادًا بالمعنى المسيحي. (حديثه مع الإعلامي عبد اللطيف المناوي، الحلقة الثانية، ٢٧/ ٩/ ٢٠١٠).

أقول عندما يتحدث أنبا موقر والبابا نفسه عن هذا المفهوم فإن من واجبهما أن

يراعيا، مع المفهوم المسيحي الذي يقولان به، المعنى العربي اللغوي، والمعنى الإسلامي، للاستشهاد، وهو الموت في سبيل الله؛ الذي قد يكون في قتال وقد لا يكون، كما في الرجل يقول كلمة حق عند سلطان جائر فيقتله، وقد سمي في الحديث النبوي (سيد الشهداء) وقرن بحمزة بن عبد المطلب ـ رضيَ الله عنه، فكيف غاب هذا عن الرجلين، وغيرهما، وهما يتحدثان عن الاستشهاد.

ثم إن هذا الذي يموت في سبيل العقيدة، بغير قتال، يموت بلا شك مظلومًا مضطهدًا، فأين هي مظاهر هذا الاضطهاد الذي سيصل بمن يقع عليهم إلى حد القتل في سبيل مبدئهم؟؟ إن الاعتذار عن التهديد بالاستشهاد بإيراد معناه في المسيحية لا يزيد الطين إلا بلة لأنه يتضمن اتهامًا للمسلمين باضطهاد الأقباط، وهو اتهام باطل قطعًا فلا المسلمون في مصر يضطهدون الأقباط ولا الأقباط يضطهدون المسلمين، لكنه التلاسن السياسي الذي لم يستطع أحد أن يدرك ماذا أراد منه الأنبا بيشوي عندما أورده خارج سياق حديث (المصري اليوم) معه، وعندما نبهته الصحفية التي كانت تحاوره إلى السياق الصحيح للسؤال ذكرنا بأحداث سبتمبر ١٩٨١ ولم يصحح جوابه عن سؤالها.

- وأحداث سبتمبر ١٩٨١، فيما يخص الكنيسة القبطية، قطع كل قول فيها حكم محكمة القضاء الإداري في الدعوى رقم ٩٣٤ لسنة ٣٦ق التي كانت مقامة من البابا شنودة الثالث ضد رئيس الجمهورية وآخرين، والعودة إلى أوراق هذه الدعوى، وأسباب حكمها، لا تفيد نيافة الأنبا بيشوي ولا تفيد البابا. والحكم منشور في مصادر كثيرة يستطيع الرجوع إليها من شاء، إذ ليس المقام هنا مقام تذكير بأخطاء الماضي، لكنه مقام تصويب لما لا يصح من مقولات الحاضر.

- كما أقحم الأنبا بيشوي أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري، سكرتير المجمع المقدس في حديثه مع (المصري اليوم) حكاية (الضيوف) وذكر أحداث ١٩٨١، أقحم في بحثه المعنون (الميديا وتأثيرها على الإيمان والعقيدة) فقرة من ٤ صفحات كاملة تتحدث عن القرآن الكريم، ومعاني بعض آياته، ومدى تناسق ما تذكره بعضها مع ما تذكره آيات أخرى. والبحث أعده صاحبه ليلقيه في

مؤتمر العقيدة الأرثوذكسية ١٣ الذي عرف إعلاميًا باسم مؤتمر تثبيت العقيدة. واعترض على كلمة (تثبيت) البابا شنودة في حديثه مع الأستاذ عبد اللطيف المناوي (٢٦/ ٩/ ٢٠١٠).

- ومما اتخذتُه سبيلا في علاقتي بإخواني غير المسلمين جميعًا ألا أدخل معهم في نقاش حول ديني أو دينهم، لأنني أعتقد أن الأديان والمذاهب مُطْلقاتٌ عند أصحابها، لا تحتمل التبديل ولا التغيير، ولا يقبل المؤمنون بها احتمال خطئها، صغيرًا كان الخطأ أم كبيرًا. إن الجائز بين أهل الأديان هو الإجابة عن سؤال أو شرح مسألة لمن لم يعرفها، إذا وُجِّه ذلك السؤال أو طُلِبَ هذا الشرح. وما سوى ذلك لا يجوز. وهذا هو مضمون ما تقرره وثيقتا: العيش الواحد، والاحترام المتبادل اللتين ذكرتهما آنفًا.

لذلك لن أعيد ما قاله الأنبا بيشوي في بحثه المذكور عن القرآن الكريم، فاعتقادي أنه ليس من حقه مناقشة القرآن ولا الجدل في شأن كيفية تفسيره، ولا محاولة التوفيق بين معاني بعض آياته ومعاني العقيدة المسيحية كما يؤمن بها هو ومن يتبعون مذهبه.

- غير أن كلام الأنبا بيشوي عن القرآن الكريم فيه مسائل تحتاج إلى بيان. ولست أوجه هذا البيان له وحده، ولكنني أوجهه إلى كل من قرأ بحثه أو استمع إليه، أو تابع ما نشرته الصحف وأذاعته وسائل الإعلام عنه.

ـ **المسألة الأولى**: أن الأنبا بيشوي نقل كلامًا نسبه إلى الفخر الرازي (أبو الفضل محمد فخر الدين بن عمر بن الحسين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦) في كتابه: التفسير الكبير، قال الأنبا بيشوي إن الفخر الرازي يقول عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧] بأن المصلوب شخص غير عيسى بن مريم عليه السلام: «إنها إهانة لله أن يجعل شخصًا شبهه يصلب بدلا منه، لأن هذا يعني أن الله غير قادر على أن ينجيه. وهكذا فقد أورد لنا أدلة لم نذكرها نحن من قبل... وقال أيضًا ما ذنب الذي صلب في هذه الحالة إن هذا يعتبر ظلم (كذا)....» [ص٤٣ من بحث الأنبا بيشوي والنقاط الثلاث من أصل نصه].

ولا يقتضي الأمر أكثر من الرجوع إلى التفسير الكبير ليتبين القارئ الكريم أمرين: **الأول**، أن الألفاظ التي زعم الأنبا بيشوي أنها من كلام الفخر الرازي لا توجد في كلامه قط. **الثاني**، أن الفخر الرازي أورد الأقوال في شأن قوله تعالى {ولكن شبه لهم} وردَّ عليها، واختار أصحها في نظره، وأنه لما ناقش كيفية إلقاء شبه المسيح عليه السلام على الشخص الذي صلبه اليهود والرومان ذكر أربعة أقوال في شرح تلك الكيفية وانتهى إلى أن «الله أعلم بحقائق الأمور». ولم يرد في كلامه في أي موضع تعبير (إن هذا يعتبر ظلمًا) ولا تعبير (أن هذا يعني أن الله غير قادر على أن ينجيه). [تفسير الفخر الرازي، ج١١، ط المطبعة المصرية، القاهرة ١٩٣٨، ص ٩٩. ورقم الآية من سورة النساء هو ١٥٧ وليس ١٥٦ كما ذكره الأنبا بيشوي].

وأنا أترك للقارئ أن يحكم على هذا الصنيع ومدى صلته بالعلم، الذي من بركته عندنا الدقة في نسبة كل قول إلى قائله، ومدى صلته بواجب الأحبار والرهبان في حفظ أمانة الكلمة وتأديتها إلى الذين يتحدثون إليهم.

- **المسألة الثانية**: أن الأنبا بيشوي يحكي قصة حوار بينه وبين الملحق العسكري المصري في منزل سفير مصر في قبرص (لم يذكر اسم السفير ولا اسم الملحق العسكري) وينتهي منها إلى أن الملحق العسكري وافقه على تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة:١٧].

ودون دخول في تفصيلات الحوار الذي ذكره الأنبا بيشوي، أقول إنه حوار لا معنى له ولا جدوى منه، ودار ـ إن صحت الرواية ـ بينه وهو غير مختص ولا متخصص وبين رجال مثله غير مختصين ولا متخصصين، فكان حاصله صفرًا، لا يقتضي تعقيبًا ولا يستحق ردًا. لكن المهم في الأمر كله أن محاولة إعادة فهم القرآن الكريم على خلاف ما فهم منه على مدى التاريخ الإسلامي كله محاولةٌ مآلها الإخفاق، ونتيجتها إثارة الفتنة بين الأقباط والمسلمين إذا ردد الأقباط فهم الأنبا

بيشوي وفهم الملحق العسكري!! وقد كان حريًا بالأنبا بيشوي ألا يقتحم هذا المجال أصلا فليس هو من رجاله ولا أهله. ومما يحسُنُ بالمرء ألا يهرف بما لا يعرف وبخاصةٍ إذا ترتب على ذلك أن تحدث وقيعة بين أبناء الوطن الواحد يحمل وزرها الذين يجادلون فيما ليس لهم به علم.

- **المسألة الثالثة**: أن الأنبا بيشوي يتساءل عما إذا كانت الآية الكريمة (وصفها من عندي) «قيلت أثناء بعثة نبي الإسلام، أم أضيفت أثناء تجميع عثمان بن عفان للقرآن الشفوي وجعله تحريري(؟)، لمجرد وضع شيء ضد النصارى» ويتساءل قبل ذلك عما إذا «كانت قد قيلت وقتما قال نبي الإسلام القرآن أم أنها أضيفت فيما بعد، في زمن متأخر».

والتساؤلان غير مشروعين، وفي غير محلهما، ووجها إلى من لا شأن له في الجواب عليهما.

فالنبي ﷺ لم (يقل) القرآناً إنما تنزل عليه القرآن من لدن عليم حكيم. وأنا لا أريد من نيافة الأنبا، ولا من أي مسيحي، أن يقر لي بنبوة محمد ﷺ لأنه إن فعل ذلك خرج من عقيدته الحالية، وليس هذا مطلبي. لكنني أتوقع منه أن لا يهين كتابنا الكريم (القرآن) وينسبه إلى مخلوق، ولو كان هو النبي نفسه، لأن في ذلك إهانةً لا تقبل، ومساسًا لا يحتمل بالإسلام نفسه.

والخليفة الثالث، عثمان بن عفان، لم يحوّل القرآن من شفهي إلى تحريري. بل كان القرآن الكريم يكتب فور نزوله على النبي ﷺ آية آية، وقطعة قطعة، وسورة سورة، وهذا كله مبسوط في كتب علوم القرآن التي لو طالعها أي ملمٍ بالقراءة والكتابة لم يقل مثل الكلام الذي كتبه الأنبا بيشوي في بحثه.

وأخشى ما أخشاه أن يفهم المسلمون الذين يقرأون كلام الأنبا بيشوي أن المقصود هو التسوية بين النص القرآني المتواتر بلا خلاف وبين نصوص دينية أخرى لم تدون إلا بعد أكثر من مئتي سنة من انتهاء عصر الأنبياء المنسوبة إليهم.

ومثل هذه المحاولة تعني التشكيك في تواتر القرآن. والتساؤل عما إذا كانت آية

ما أضيفت إلى القرآن الكريم «في زمن متأخر» تكذيب لا يقبله مسلم، بقول الله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

- ولذلك فقد أحسن البابا شنودة عندما قال في حديثه مع الأستاذ عبد اللطيف المناوي: «آسف إنه يحصل جرح لشعور المسلمين، ونحن مستعدون لأي ترضية» (الحلقة المذاعة في ٢٦/ ٩/ ٢٠١٠).

والترضية الواجبة لا تكون إلا بأن يعتذر الأنبا بيشوي نفسه عما قال وفعل وكتب. إن البابا شنودة، وهو رأس الكنيسة لا يجوز أن يتحمل أوزار المنتسبين إليها. ولا يُسْتَغنى بأسفه الشخصي عن اعتذار المخطئ من رجال الكهنوت خطأً يثير الفتنة ويحتمل أن يدمر بسببه الوطن. والبابا شنودة أَسِفَ وهو لم يقرأ كلام الأنبا بيشوي، ولا استمع إليه، ولا رأى الأنبا بيشوي نفسه منذ نشر كلامه المسيء إلى الإسلام والمسلمين (حلقة ٢٦/ ٩/ ٢٠١٠ مع عبد اللطيف المناوي) فأسفه كان لمجرد مشاعر نقلها إليه، برقةٍ بالغةٍ ولطفٍ ملحوظٍ، الأستاذ عبد اللطيف المناوي، وهو أَسَفٌ حسن لكنه لا يغني من المطلوب، الواجب، المستحق للمسلمين المواطنين عند الأنبا بيشوي نفسه، شيئًا. ولا يشك أحد في أن البابا بسلطته الروحية والإدارية على جميع رجال الكنيسة قادر على إلزام الأنبا بيشوي بإعلان اعتذاره بلا مواربة ولا التفاف حول الأمر بكلمات هي معاريض لا تسمن ولا تغني من جوع. وما لم يتم ذلك فإن الترضية التي أبدى البابا استعداده لها لا تكون قد تمت، ويبقى الجرح مفتوحًا حتى تتم فيلتئم، وتعود العلاقة مع الكنيسة سيرتها الأولى، ويتجنب الوطن زلزالا لا يبقي ولا يذر.

- فإذا أبى الأنبا بيشوي أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري، سكرتير المجمع المقدس ذلك، فإنه لا يبقى أمامنا إلا أن نطبق ما يأمرنا به قرآننا فنقول له:

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٠-٦١].

• لقد أحسن البابا شنودة ـ أيضًا ـ عندما قال للأستاذ المناوي: «الآية التي ذكرت كانت آية يعني مش أصول أن ندخل في مفهومها» (حلقة ٢٦/ ٩/ ٢٠١٠) «مش عارف إزاي حصل سرد لحاجات زي دي، ربما كان المقصود أن يعرضوا آيات ليصلوا إلى حل للخلاف اللي فيها لكن ما كانش أصول إنها تعرض خالص، كما أنهم ظنوا أن هذا مؤتمر للكهنة فقط فكأنه ناس بيفحصوا بعض أمور جوه البيت مش للخارج. بعض الصحفيين حضروا وأخذوا الحاجات وبدأوا ينشروا» (الحلقة نفسها).

• وليس خفيًا أن الكهنة مهما علا كعبهم لا يستطيعون أن يصلوا إلى حلول للخلاف بين العقيدتين الإسلامية والمسيحية الذي تعبر عنه بعض آيات القرآن الكريم. فلا هم مؤهلون لهذا، ولا هو من علمهم أو شأنهم، ولن يستمع إلى ما يقولونه أحد من المسلمين. فلماذا يذكر القرآن أصلا في مثل هذا المؤتمر؟؟

والخلاف بين العقيدتين واقع أبدي لا يزول، فالبحث في التوفيق بينهما عبث يجب أن ينزه العقلاء أنفسهم عنه، ويصونوا أوقاتهم عن إضاعتها فيه.

وأن الأمر كان «داخل البيت» لا يسوغُ قبولُه مع ما نشرته الصحف التي ذكرت الموضوع من أن النص «وزع على الصحفيين».

وكم غضبت الكنيسة والأقباط كافة، من كلام كتب أو قيل داخل البيت الإسلامي، ومن كلام يقال داخل المساجد، بل من كلام قيل وكتب لمجمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف (كلام الدكتور محمد عمارة في تقريره العلمي عن كتاب: مستعدون للمواجهة، الذي أحاله المجمع إليه لكتابة تقرير عنه فلما كتبه قامت الدنيا ولم تقعد ـ وكاتب هذا الكتاب ينتحل اسم سمير مرقس، وهو قطعًا لا علاقة له بهذا الاسم، فصاحبه المعروف هو صديقنا المهندس سمير مرقس، وهو رجل وحدة وطنية بامتياز).

لقد كان كلام الدكتور محمد عمارة داخل المجمع، ونشر ملحقًا بمجلة الأزهر، وكان ردًا ولم يكن كلامًا مبتدأ، ومع ذلك كله فقد ثارت الكنيسة

على نشره وطلبت سحبه من التداول وفعل الأزهر ذلك، محافظة على مشاعر الأقباط، وحرصًا على وحدة أبناء الوطن. فهل يأمر البابا شنودة الأنبا بيشوي بأن يفعل مثل ما فعلت القيادة الدينية الرسمية للمسلمين؟ أرجو مخلصًا أن يفعل.

- سأل الإعلامي المعروف الأستاذ عبد اللطيف المناوي ضيفه البابا شنودة الثالث عما سبب تغيير الأجواء، التي كانت سائدة بين المسلمين والأقباط، من الحوار والأخوة الوطنية ونحوهما إلى التوتر والاحتقان الحاليين؟ وكان جواب البابا: «المسألة الأولى بدأت من مشكلات كاميليا... هل سيدة معينة يمكن توجد خلافًا على مستوى البلد كله... لماذا هذا الضجيج كله من أجل موضوع يمكن يكون شخصي خاص بها وبزوجها... المسألة تطورت من فرد معين إلى هياج كبير جدًا جدًا، استخدمت فيه شتائم وكلام صعب إلى أبعد الحدود، ونحن لم نتكلم وسكتنا... حدثت مظاهرات تؤذي مشاعر كل مسيحي.. لم تحدث مظاهرات من جانبنا» وعندما حاول الأستاذ المناوي تلطيف الجو بقوله «كان هناك جرح متبادل» رد عليه البابا بحزم: «الجرح مش متبادل.. أرجوك».

- والواقع أن الإجابة عن سؤال: ما الذي حدث فأدى إلى تغيير الأجواء؟ بأن المسألة «بدأت من مشكلات كاميليا» إجابة غير صحيحة جملة وتفصيلا. كاميليا وقصتها كانت آخر ما أثار مشاعر الجماهير المسلمة التي انفعلت لما أشيع من أنها أسلمت وأنها سُلِّمت إلى الكنيسة كسابقاتٍ لها في السنين السبع الأخيرة.

وأول هؤلاء اللاتي سلِّمن إلى الكنيسة كانت السيدة/ وفاء قسطنطين زوجة كاهن كنيسة (أبو المطامير) آنئذٍ. وواقعة السيدة وفاء قسطنطين حدثت في سنة ٢٠٠٤ وهي سلِّمت إلى الكنيسة التي أودعتها دير الأنبا مقار بوادي النطرون (حسبما أعلن في الشهر الحالي، سبتمبر ٢٠١٠، الأسقف الأنبا باخوميوس أسقف البحيرة ومطروح والمدن السبع الغربية). وهي لا تزال تحيا فيه حبيسة ممنوعة من مغادرته حتى اليوم. وقد ثار شباب ورجال أقباط على بقاء السيدة/ وفاء قسطنطين في حماية الدولة من أن تقع في قبضة من يقيد حريتها بغير سند

من القانون، وتظاهروا في مقر الكاتدرائية بالعباسية، وألقوا حجارة على رجال الأمن فأصيب منهم (٥٥) من بينهم خمسة ضباط، واعتُديَ بالضرب على الصحفي مصطفى سليمان، من صحيفة الأسبوع وانتُزِعَتْ منه بطاقته الصحفية وآلة تصوير، واعتديَ بالتهديد على الصحفية نشوى الديب، من صحيفة العربي، ولولا حماية رجل قبطي، ذي مروءة، لها لكان نالها مثل ما نال زميلها. وقد نشرتْ تفاصيل مسألة وفاء قسطنطين منذ إسلامها إلى تسليمها جميع وسائل الإعلام المصرية، وكثير من وسائل الإعلام العربية والعالمية [كتابنا: للدين والوطن ص ٢٠٧-٢٧٥].

- وقد تزامن مع تسليم وفاء قسطنطين تسليم السيدة/ ماري عبد الله التي كانت زوجة لكاهن كنيسة بالزاوية الحمراء إلى الكنيسة، بعد أن أسلمت. وفي أعقاب هاتين الحادثتين المخزيتين سلمت إلى الكنيسة (مارس ٢٠٠٥) طبيبتي الامتياز ماريا مكرم جرجس بسخريوس، وتيريزا عياد إبراهيم في محافظة الفيوم وأعلن الأنبا أبرام وكيل مطرانية سمالوط أن الفتاتين «هما الآن تحت سيطرتنا» [المصدر السابق ص ٢٧٧].

- وتبع هاتين الحادثتين تسليم بنات السيدة ثناء مسعد، التي كانت مسيحية وأسلمت ثم قتلت خطأً في حادث مرور، إلى زوجها المسيحي، بقرار من النيابة العامة ليس له سندٌ من صحيح القانون [التفاصيل في كتابنا سالف الذكر ص ٢٥٨].

- كان تسليم المسْلِمات إلى الكنيسة، وإصرارها على ذلك، والمظاهرات العنيفة التي قامت في القاهرة والبحيرة والفيوم (وليتأمل القارئ كلام البابا شنودة لعبد اللطيف المناوي الذي يصطنع فيه تفرقة بين المظاهرات، التي يقوم بها المسلمون، والتجمعات الاحتجاجية التي يقوم بها الأقباط. ولمن شاء أن يسأل هل كان الاعتداء على رجال الشرطة، وجرح ٥٥ منهم بينهم ٥ ضباط، مجرد تجمع احتجاجي!!). كان ذلك التسليم هو بداية الاحتقان المستمر، حتى اليوم، بين الكنيسة من جانب وأهل الإسلام في مصر من جانب آخر.

• وهذا الاحتقان له سببه المشروع عند المسلمين. فذلك التسليم تم للمرة الأولى في تاريخ الإسلام (١٤٤٤ سنة)، لم يُسْبَقْ إليه شعب ولا دولة ولا حكومة. والقرآن الكريم ينهى عنه نهيًا قاطعًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ...﴾ [الممتحنة: ١٠].

• وقد طالب المسلمون، بألسنة مفكريهم وعلمائهم وأقلام كتابهم، بتصحيح هذه الأخطاء فلم يستمع إليهم أحد!! وأحدث هذا الإهمال لما يوجبه الدين تأثيره في جماهير المسلمين، وهو تأثير مستمر حتى اليوم، يزداد الشعور به كلما وقعت حادثة جديدة، أو أشيعت شائعة عن وقوعها، أو اتخذ موقف أو قيل كلام من جانب رجال الكنيسة يحرك حفيظة المسلمين.

فما يقوله البابا شنودة عن أن أصل المسألة هو موضوع كاميليا شحاتة كلام غير صحيح. إن أصل المسألة هو انتهاز الكنيسة فرصة ضعف الدولة بإزائها، وتغولها على النطاق المحفوظ بغير جدال لسلطاتها الرسمية، واتخاذها محابس لمن لا ترضى عنهم من الناس بغير سند من القانون، وبالمخالفة للدستور، مع سكوت الجهات المختصة في الدولة كافة على هذا السلوك العجيب. ويزداد الأمر شدة وصعوبة كلما ادعت الكنيسة على لسان قياداتها أن ما حدث، ويحدث، هو ممارسة لحقوقها وحماية لمن أسلمن - بزعم عودتهن عن هذا الإسلام - ممن قد يصيبهن بأذى!!

• لقد كان بيان هذا الأمر لازمًا لوضع الأمور في نصابها، ولتذكير الحَبر الجليل البابا شنودة الثالث بدور الكنيسة، تحت قيادته، في إحداث الاحتقانات المتتالية بين المسلمين وغير المسلمين. وقد كان آخر فصول هذا الدور هو تصريحات الأنبا بيشوي، ومن تبعه من الكهنة ذوي الرتب الكهنوتية الكبيرة والمتوسطة والصغيرة عن مسألة (ضيافة) الأقباط للمسلمين، وعن مسألة (الجزية) ثم تصريحات الأنبا بيشوي - التي نفى البابا شنودة علمه بها - عن تفسير آيات القرآن الكريم بما يوافق العقيدة المسيحية كما يعتنقها الأنبا بيشوي، وحديثه عما إذا

كانت بعض آيات القرآن قد أضيفت في زمن متأخر في عهد الخليفة عثمان بن عفان ـ رضيَ الله عنه.

* * *

- إن حياة المسلمين والمسيحيين على أرض مصر قدر لا فكاك منه لأحد الفريقين. والعمل من أجل تأكيد معاني العيش الواحد الذي يجمع بينهم في وطنهم الواحد، والتوعية بها، هو المخرج الوحيد من الفتن المتتالية التي نعاني منها منذ نحو أربعة عقود.

إن معنى العيش الواحد في الوطن الواحد أن يكون بين المختلفين، دينًا أو ملة أو طائفة أو أصلا عرقيًا أو هوية ثقافية، نوع احتمال لما لابد منه من الاختلاف بين الناس، ومعيار هذا الاحتمال الواجب أن ينزل كل طرف عن بعض حقه، الواجب له، رعاية لمرضاة أخيه في الوطن.

وفرق ما بين ذلك وما بين العيش المشترك الذي يضم المختلفين دينًا أو ملة أو طائفة أو أصلا عرقيًا أو هوية ثقافية ويعيشون في مناطق مختلفة من العالم، أن معيار التعامل في العيش المشترك هو الحقوق وحدها، تُطلب وتُؤدى على ما توجبه العقود أو الاتفاقات أو القوانين.

في العيش الواحد ليس بين الناس كرامات، وإنما بينهم أخوة وتعاون، ينزل هذا عن بعض ما يريد ويترك ذاك بعض ما يستحق، لأن الناس في العيش الواحد عائلة واحدة يحمل بعضها بعضًا، ويعين بعضها بعضًا، وينصر بعضها بعضًا. لكن في العيش المشترك يتقاسم الناس خيرات الأرض، وما خلق الله لهم فيها مما يسعهم جميعًا، فإذا زاحم أحدهم الآخر في حقه أو ملكه أو سيادته لم يقبل ذلك منه.

في العيش الواحد علاقات مودة وأخوة مصدرها قول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

وفي العيش المشترك واجبات تؤدى وحقوق تُستأدى معيارها قول الله تبارك

وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢-١٣].

* * *

- **والذي ندعو إليه إخواننا المسلمين والأقباط جميعًا هو إدراك هذه الحقيقة الأزلية: أننا للعيش على أرض هذا الوطن الواحد خُلِقْنا.**
- **وأن أحدًا منا لن يستطيع أن ينفي الآخر مهما كان له من القوة، أو ظن بنفسه من البأس، أو استشعر من مناصريه التصميم على ما يحرضونه عليه، أو يدفعونه إليه، أو يستحسنونه من قوله وفعله.**
- **والدين الحق حائل بين صاحبه وبين العدوان على غيره.**
- **والإمساك عن العدوان باللسان واجب كالإمساك عن العدوان بالسنان.**
- **والعود إلى داعي العقل أَحْمَدُ.**
- **والعمل بموجب الرشد أَسَدُّ.**
- **ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بعهده فله الحسنيان، في الأولى والآخرة.**

والله من وراء القصد.

ملحق (٣)

شبهتان

شبهتان...

نتناول في هذا الملحق شبهتين أثيرتا في أثناء المدة التي استغرقها إلقاء المحاضرات العشر التي هي أصل هذا الكتاب. لقد أتيح لي في أثناء تلك المحاضرات، ثم في الحلقة الخاصة التي بثتها قناة الجزيرة مباشر من برنامجها اليومي (مباشر مع) يوم الخميس ١٧ من المحرم ١٤٣٢ هـ = ٢٣/ ١٢/ ٢٠١٠م أن أجيب على كثير من الأسئلة، وأرد عددًا من الشبهات التي أثيرت بمناسبة تناول هذا الموضوع. وقد كنت أتمنى لو اتسع وقتي، وأنا أعد هذا النص، لإيراد الأسئلة كلها وإجاباتها، والشبهات كافة ووجوه الرد عليها. ولكن الذي لا يدرك كله لا يترك جُله. وقد اخترت الشبهتين المتعلقتين بالصحابيين عمرو بن العاص فاتح مصر، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح أول من تولى حكمها من بعده، لأهميتها البالغة، ولاتصالهما بصحابيين ممن نهانا رسول الله ﷺ عن تناولهم إلا بخير[١].

الشبهة الأولى: تدور حول ما يقال عن أم عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ. والذي يقال في هذا الأمر إن أم عمرو كانت، في الجاهلية، بغيًا، مغنية، وإنها نسبت عمرو بن العاص إلى العاص بن وائل إذ كان أقرب شبهًا به من غيره من الرجال الذين عاشروها قبل حملها به[٢].

---

(١) روى أحمد عن أنس بن مالك قول النبي ﷺ «دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أُحد ذهبًا، أو مثل الجبال، ما بلغتم أعمالهم»؛ وفي المتفق عليه، من حديث أبي سعيد الخدري قول النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا لم يدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه».

(٢) محمود عباس العقاد، عمرو بن العاص، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٦، ص ١٧.

وأصل هذه الرواية قصة عن محاورة بين عمرو بين العاص وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب، يزعمون أنها جرت في مجلس معاوية بن أبي سفيان، وقد وردت في كتابين لا ثالث لهما: كتاب (بلاغات النساء) لابن طيفور[1]، وثانيهما هو كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسي[2].

فأما الرواية في الكتاب الأول[3] فمروية عن عبيد الله بن محمد بن حفص الملقب بابن عائشة، وهو رجل منكر الحديث، وهو يروي عن رجل ثقة لكنه له مناكير هو حماد بن سلمة، وهو يروي عن رجل كان كثير التدليس عن أنس بن مالك هو حميد الطويل. هذا هو السند، فما شأن مصنف الكتاب نفسه؟ يقول ابن النديم في (الفهرست): «لم أر من تشهر بمثل ما تشهر به من تصنيف الكتب وقول الشعر أكثر تصحيفًا منه، ولا أبلد علمًا، ولا ألحن.. وكان أسرق الناس لنصف بيت وثلث بيت؛ قال: وكذا قال لي البحتري فيه. وكان مع هذا حميد الأخلاق، ظريف المعاشرة، وحلوًا من الكهول»[4].

والرواية في الكتاب الثاني (العقد الفريد)[5] مروية عن رجل كذاب هو العباس بن الوليد ابن بكار الضبي عن شيخ من القصاص كان يروي عن الأثبات الأشياء الموضوعات هو أبو بكر الهذلي، واسمه سُلمى بن عبد الله بن سلمى، سئل عنه شعبة بن الحجاج، أحد أئمة أهل الحديث والعلم بالرجال[6]، فقال لسائله: «دعني لا أقيء!!»[7].

---

(١) هو أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر: ٢٠٤هـ - ٢٨٠ هـ.

(٢) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: ٢٤٦هـ - ٣٢٨هـ.

(٣) ابن طيفور، بلاغات النساء، ط مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة ١٩٠٨، ص٣٢.

(٤) الفهرست، ابن النديم، ط دار المعرفة، بيروت ١٩٩٧، تحقيق إبراهيم رمضان، ص ١٨٠؛ وللفهرست طبعة محققة مدققة أخرجها صديقنا الدكتور أيمن فؤاد سيد ونشرتها مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن ٢٠٠٩، وهي في جزئين وأربعة مجلدات والكلام عن ابن طيفور فيها في مج٢ من ج١ ص ٤٥١.

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ط محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت (د. ت)، ج١ ص ٣٠٣.

(٦) ترجمته في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي بتحقيق صديقنا العلامة الدكتور بشار عواد معروف، ج١٠، ص ٣٥٣.

(٧) المصدر السابق، ص ٣١٠.

وبين ابن عبد ربه وأول سلسلة الرواية عنده (العباس بن الوليد بن بكار) حائلان من الزمان والمكان يمنعان قبول الرواية لو كان سندها خاليًا من أسباب الضعف والوهن التي ذكرناها: فإن ابن عبد ربه ولد بقرطبة في الأندلس سنة ٤٢٦هـ والعباس بن الوليد مات بالبصرة سنة ٢٢٥هـ فكيف التقيا؟! ثم إن بين أبي بكر الهذلي وبين ما روي عن أروى بنت الحارث في مجلس معاوية، من طعن في أم عمرو بن العاص نحو قرن من الزمان ليس فيه راوٍ تعبر به هذه المدة فأنى تصح هذه الرواية.

إن القصة مختلقة تمامًا أو ضعيفة ضعفًا لا تقوم به حجة.

وقد روي أن عمرًا بن العاص كان يخطب على منبر مدينة تنيس[1] فقام إليه رجل وسأله: «من أم الأمير؟»، فقال عمرو: «كانت امرأة من عَنَزَة، أصابتها رماح العرب في الجاهلية، فوقعت في سهم الفاكه بن المغيرة، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت له فأنجبت[2]، فإن كان جُعِل لك شيء فخذه!!».

وهذه الرواية وإن كانت لا تحمل أي منقصة لعمرو إلا أن عيبها أنها لا يمكن إثباتها من حيث التاريخ، إذ ليس في أي مصدر أن عمرًا دخل تنيس أو خطب على منبرها[3]!!

* * *

الشبهة الثانية: تتعلق بعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وسر ركون عثمان بن عفان - رضي الله عنهما - إليه، على الرغم مما هو معروف عنه من ردته، وادعائه أنه كان يكتب ما يشاء من القرآن، قبل الردة، ويقره النبي ﷺ عليه.

والجواب على هذا يسير، وهو من شقين: أولهما، أن ما نقل عن عبد الله بن سعد بن أبي سرح حال ردته من مزاعم حول القرآن وكتابته إياه كما يحلو له.. إلخ، هذا كله

(١) مدينة صان الحجر بمحافظة الشرقية الآن.

(٢) يشير إلى ذكائه ودهائه ونبهاته في العرب!!

(٣) أفدت هذا البحث في جملته من: أحمد عادل كمال، السابق، ص ١٥٤ - ١٧٦؛ غير أن الإحالة إلى المراجع من نسخها التي تحت يدي وهي مختلفة عن النسخ التي كان يحيل إليها.

كلام مرتد لا يصدَّق ولا يعوَّل عليه؛ وثانيهما، أن الثابت عند مصنفي كتب تراجم الصحابة، وكلهم من علماء الحديث الذين يعنون أعظم العناية بالسند وصحته، أن النبي ﷺ كان قد أمَّن، يوم الفتح، الناس كلهم إلا أربعة نفر هم: عكرمة بن أبي جهل، وابن الأخطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، فذهب عبد الله إلى أخيه لأمه عثمان بن عفان وأقسم له أنه تاب عما كان منه، وأنه مسلم مصدق، فأخذه عثمان إلى رسول الله ﷺ وشفع له عنده، وأكد له أنه تاب عما فعل، فأعرض عنه النبي مرات، ثم قبل توبته وأمَّنه.

وبعد التوبة، والإسلام، لا يؤاخذ المرء بما كان منه حال كفره، ولو كان هذا الكفر ردة عن الإسلام نفسه. لأن القاعدة الإسلامية: «الإسلام يجب ما قبله» لا استثناء منها، لا بالنسبة إلى الزمان، ولا بالنسبة إلى الإنسان.

يذكر ابن حجر وغيره، عن عبد الله بن سعد ابن أبي سرح: أنه شهد فتح مصر، وكان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في الفتح، وكان له مواقف محمودة في الفتوح.. ولما وقعت الفتنة، بين علي ومعاوية، سكن عسقلان ولم يبايع لأحد ومات بها سنة ست وثلاثين، وهو الذي فتح إفريقية زمن عثمان، وكان فتحها من أعظم الفتوح، وصالح أهل النوبة الصلح الذي استمر بعده[1]، وهو الذي قاد الجيش الإسلامي البحري في موقعة ذات الصواري.. وكان محمودًا في ولايته. توضأ يوم موته لصلاة الصبح وقال: «اللهم اجعل آخر عملي الصبح» فقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب والعاديات، وفي الثانية بفاتحة الكتاب وسورة[2]، وسلم عن يمينه فلما ذهب يسلم عن يساره قبض الله روحه[3].

ويقول ابن عبد البر: «أسلم أيام الفتح (أي فتح مكة) فحسن إسلامه فلم يظهر منه شيء ينكر عليه بعد ذلك. وهو أحد النجباء العقلاء الكرماء من قريش.. كان فارس

---

(١) كانت النوبة قد استعصت على المسلمين سنين عددًا حتى ولي مصر عبد الله بن سعد فرأى أن مصالحتهم أولى من قتالهم، وقد كان رأيًا حكيمًا أدى إلى إسلام أهل النوبة كافة.

(٢) لم يذكرها الراوي.

(٣) ابن حجر، الإصابة، السابق، ج٢ ص ٣٠٩.

بني عامر بن لؤي المعدود فيهم، وكان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في افتتاحه مصر وفي حروبه هناك كلها»[1].

ويقول ابن الأثير، بعد أن ذكر مثل كلام ابن عبد البر: «شهد معه فتح إفريقية عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص.. ولم يبايع لعلي ولا معاوية»[2].

وأما ما ينقله بعض الكاتبين، عن تاريخ الطبري، من أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان أسوأ ولاة عثمان، فإنه نقل ينبغي النظر فيه من حيث السند لأن الطبري في التاريخ ناقلٌ محض، وهو في التفسير إمام ذو رأي سداده أكثر مما يؤخذ عليه.

والصحيح في أمر ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح هو ما قاله الكندي: «ومكث عبد الله بن سعد أميرًا عليها (أي على مصر) ولاية عثمان كلها، محمودًا في ولايته، وغزا ثلاث غزوات، كلها لها شأن وذكر: فغزا إفريقية سنة ٢٧هـ.. وغزا غزوة الأساود وهي النوبة حتى بلغ دنقلة، وهادنهم على الصلح الباقي بعده، وغزا ذات الصواري في مائتي مركب أو نحوها والروم بقيادة هرقل في ألف مركب، فهزم الله الروم، وسميت ذات الصواري لكثرة المراكب واجتماع صواريها»[3].

والقرآن الكريم يقول فيمن افتتن فارتد ثم تاب: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٣٥ ـ ٥٥]. وفي المأثور عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن هذه الآيات نزلت في قوم آمنوا ثم ارتدوا، ثم تابوا، ففتح الله لهم باب رحمته للعودة إلى دينه. فالذي ينبغي على كل مسلم في هذا الشأن هو الوقوف عند أمر الله تبارك وتعالى وإدراك سعة رحمته وعظيم فضله.

* * *

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب، السابق، ج٢ ص ٣٦٧.
(٢) ابن الأثير، أسد الغابة، السابق، ج٣ ص ٢٥٩.
(٣) الكندي، ولاة مصر، السابق، ص ٣٤.

وهكذا لا يجد القارئ أن أيًا من هاتين الشبهتين تؤثر، تأثيرًا من أي نوع، في فضل الصحابيين الجليلين عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي سرح، وأن ما أداه كل منهما من العمل في سبيل الله لنصرة دينه موجب لتوقيره واحترامه، مانع من تناوله بما لا يليق، أو ذمه بمختلق من القول أو باطل من حكايات القُصاص.

* * *

والحمد لله رب العالمين